وأربعون سنة وثلاثة(٤١٥/٩)أشهر وعشرين يوماً، وكانت الخلافة قبله قد طمع فيها الديلم والأتراك، فلمّا وليها القادر باللّه أعاد جدّتها، وجدّد ناموسها، وألقى اللّه هيبته في قلوب الخلق، فأطاعوه أحسن طاعة وأتمّها.

وكان حليماً، كريماً، خيّراً يحبّ الخير وأهله، ويأمر به، وينهى عن الشرّ ويبغض أهله، وكان حسن الاعتقاد، صنّف فيه كتاباً على مذهب السُّنّة.

ولمّا توفّي صلّى عليه ابنه القائم بأمر اللّه، وكان القادر باللّه أبيض، حسن الجسم، كَثّ اللحية، طويلها، يخضب، وكان يخرج من داره في زيّ العامّة، ويزور قبور الصالحين، كقبر معروف وغيره، وإذا وصل إليه حالٌ أمر فيه بالحقّ.

قال القاضي الحسين بن هارون: كان بالكرخ مِلك ليتيم، وكان له فيه قيمة جيّدة، فأرسل إليّ ابن حاجب النعمان، وهو حاجب القادر، يأمرني أن أفكّ عنه الحجر ليشتري بعض أصحابه ذلك الملك، فلم أفعل، فأرسل يستدعيني، فقُلتُ لغلامه: تقدّمني حتّى ألحقك؛ وخفته، فقصدت قبر معروف، فدعوتُ اللّه أن يكفيني شرّه، وهناك شيخ، فقال لي: على من تدعو؟ فذكرتُ له ذلك، ووصلتُ إلى ابن حاجب النعمان، فأغلظ لي في القول، ولم يقبل عذري، فأتاه خادم برقعة، ففتحها وقرأها وتغيّر لونه، ونزل من الشدّة، فاعتذر إليّ ثم قال: كتبتَ إلى الخليفة قصّة؟ فقلتُ: (٤١٦/٩)لا. وعلمتُ أنّ ذلك الشيخ كان الخليفة.

وقيل: كان يقسم إفطاره كلّ ليلة ثلاثة أقسام: فقسْم كان يتركه بين يديه، وقسم يرسله إلى جامع الرُّصافة، وقسم يرسله إلى جامع المدينة، يفرّق على المقيمين فيهما، فاتّفق أنّ الفرّاش حمل ليلة الطعام إلى جامع المدينة، ففرّقه على الجماعة، فأخذوا، إلاّ شابّاً فإنّه ردّه.

فلما صلّوا المغرب خرج الشابّ، وتبعه الفرّاش، فوقف على باب فاستطعم، فأطعموه كسيرات فأخذها وعاد إلى الجامع، فقال له الفرّاش: ويحك ألا تستحي؟ ينفذ إليك خليفة اللّه بطعام حلال فتردّه وتخرج وتأخذ من الأبواب! فقال: واللّه ما رددتّه إلاّ لأنّك عرضتهُ عليّ قبل المغرب، وكنت غير محتاجاً إليه، فلمّا احتجت طلبت؛ فعاد الفرّاش فأخبر الخليفة بذلك فبكى وقال له: راعِ مثل هذا، واغتنم أخذه، وأقم إلى وقت الإفطار.

وقال أبو الحسن الأبهريّ: أرسلني بهاء الدولة إلى القادر باللّه في رسالة، فسمعته ينشد:

سَبقَ القضاءُ بكلّ ما هو كائنٌ ... واللّه يا هذا لِرزقِكَ ضامِنُ
تُعنى بما يفنى، وتترك ما به ... تَغنى، كأنّك للحوادث آمنُ
أوَما ترى الدّنيا ومَصرع أهلها ... فاعملْ ليومِ فراقها، يا خائنُ
(٤١٧/٩)
واعْلم بأنّك لا أبا لك في الذي ... أصبحت تجمعه لغيرك خازنُ
يا عامرَ الدنيا أتعمرُ مَنزلاً ... لم يبقَ فيه مع المنيّة ساكنُ
الموتُ شيءٌ أنت تعلم أنّه ... حقٌ، وأنت بذكره متهاونُ
إنّ المنيّة لا تؤامر مَن أتت ... في نفسه يوماً ولا تستاذنُ

فقلتُ: الحمد لله الذي وفّق أمير المؤمنين لإنشاد مثل هذه الأبيات. فقال: بل لله المنّة إذ ألزمنا بذكره، ووفّقنا لشكره. ألم تسمع قول الحسن البصريّ في أهل المعاصي: هانوا عليه فعصوه، ولو عزّوا عليه لعصمهم؛ ومناقبه كثيرة.

ذكر خلافة القائم بأمر اللّه

لمّا مات القادر باللّه جلس في الخلافة ابنه القائم بأمر اللّه، أبو جعفر عبد اللّه، وجدّدت له البيعة، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة إحدى وعشرين[وأربعمائة]، كما ذكرنا، واستقرّت الخلافة له، وأوّل من بايعه الشريف أبو القاسم المرتضى، وأنشده:

فإمّا مَضى جَبَلٌ وَانقضَى ... فَمنك لنا جَبلٌ قد رسَا
(٤١٨/٩)
وَإمّا فُجِعْنا بِبَدرِ التّمامِ ... فقد بقيَتْ منه شمسُ الضُّحَى
لنا حَزَنٌ في محلّ السرور ... وكم ضَحِك في خِلال البُكَا
فيا صارماً أغمدَتْهُ يدٌ ... لنا بَعدَك الصارمُ المنتضَى

وهي أكثر من هذا. وأرسل القائم بأمر اللّه قاضي القضاة أبا الحسن الماورديّ إلى الملك أبي كاليجار ليأخذ عليه البيعة، ويخطب له في بلاده، فأجاب وبايع، وخطب له في بلاده وأرسل إليه هدايا جليلة وأموالاً كثيرة.

ذكر الفتنة ببغداد

في هذه السنة، في ربيع الأول، تجددت الفتنة ببغداد بين السّنّة والشيعة.

وكان سبب ذلك أن الملقّب بالمذكور أظهر العزم على الغزاة، واستأذن الخليفة في ذلك، فأذن له، وكتب له منشور من دار الخلافة، وأعطى علماً، فاجتمع له لفيف كثير، فسار واجتاز بباب الشعير، وطاق الحرّانيّ، وبين يديه الرجال بالسلاح، فصاحوا بذكر أبي بكر وعمر، رضي اللّه عنهما، وقالوا هذا يوم معاوية؛ فنافرهم أهل الكرخ ورموهم، وثارت الفتنة، ونهبت دور اليهود لأنّهم قيل عنهم إنهم أعانوا أهل الكرخ.(٤١٩/٩)

فلما كان الغد اجتمع السنة من الجانبين، ومعهم كثير من الأتراك، وقصدوا الكرخ، فأحرقوا وهدموا الأسواق، وأشرف أهل الكرخ على خطّة عظيمة. وأنكر الخليفة ذلك إنكاراً شديداً، ونسب

إليهم تخريق علامته التي مع الغزاة، فركب الوزير، فوقعت في صدره آجرّة، فسقطت عمامته، وقُتل من أهل الكرخ جماعة، وأُحرق وخرّب في هذه الفتنة سوق العروس، وسوق الصفّارين، وسوق الأنماط، وسوق الدقّاقين، وغيرها، واشتدّ الأمر، فقتل العامّة الكلالكيّ، وكان ينظر في المعونة، وأحرقوه.

ووقع القتال في أصقاع البلد من جانبيه، واقتتل أهل الكرخ، ونهر طابق، والقلائين، وباب البصرة، وفي الجانب الشرقيّ أهل سوق الثلاثاء، وسوق يحيى، وباب الطاق، والأساكفة، والرهادرة، ودرب سليمان، فقطع الجسر ليفرق بين الفريقين، ودخل العيّارون البلد، وكثر الاستقفاء بها والعملات ليلاً ونهاراً. وأظهر الجند كراهة الملك جلال الدولة، وأرادوا قطع خطبته، ففرّق فيهم مالاً وحلف لهم فسكنوا، ثمّ عادوا الشكوى إلى الخليفة منه، وطلبوا أن يأمر بقطع خطبته، فلم يجبهم إلى ذلك، فامتنع حينئذ جلال الدولة من الجلوس، وضربه النوبة أوقات الصلوات، وانصرف الطبّالون لانقطاع الجاري لهم، ودامت هذه الحال إلى عيد الفطر، فلم يضرب بوق، ولا طبل، ولا أظهرت الزينة وزاد الاختلاط.

ثم حدث في شوّال فتنة بين أصحاب الأكسية وأصحاب الخلعان، وهما شيعة، وزاد الشرّ، ودام إلى ذي الحجّة، فنودي في الكرخ بإخراج العيّارين،(٤٢٠/٩) فخرجوا، واعترض أهل باب البصرة قوماً من قمّ أرادوا زيارة مشهد عليّ والحسين، عليهما السلام، فقتلوا منهم ثلاثة نفر، وامتنعت زيارة مشهد موسى بن جعفر.

ذكر ملك الروم قلعة أفامية

في هذه السنة ملك الروم قلعة أفامية بالشام.

وسبب ملكها أن الظاهر خليفة مصر سيّر إلى الشام الدزبريّ، وزيره، فملكه، وقصد حسّان بن المفرّج الطائي، فألحّ في طلبه، فهرب منه، ودخل بلد الروم، ولبس خلعة ملكهم، وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب، ومعه عسكر كثير، فسار إلى أفامية فكبسها، وغنم ما فيها، وسبى أهلها، وأسرهم، وسيّر الدزبريّ إلى البلاد يستنفر الناس للغزو.

ذكر الوحشة بين بارسطغان وجلال الدولة

اجتمع أصاغر الغلمان هذه السنة إلى جلال الدولة، وقالوا له: قد هلكنا فقراً وجوعاً، وقد استبدّ القوّاد بالدولة والأموال عليك وعلينا، وهذا بارسطغان ويلدرك قد أفقرانا وأفقراك أيضاً.(٤٢١/٩)

فلمّا بلغهما ذلك امتنعا من الركوب إلى جلال الدولة، واستوحشا، وأرسل إليهما الغلمان يطالبونهما بمعلومهم، فاعتذرا بضيق أيديهما عن ذلك، وسارا إلى المدائن. فندم الأتراك على ذلك، وأرسل إليهما جلال الدولة مؤيّد الملك الرُّخّجيّ والمرتضى وغيرهما، فرجعا، وزاد تسحّب الغلمان على جلال الدولة إلى أن نهبوا من داره فرشاً، وآلات، ودواباً، وغير ذلك، فركب وقت الهاجرة إلى دار الخلافة، ومعه نفر قليل من الركابيّة والغلمان وجمع كثير من العامّة وهو سكران، فانزعج الخليفة من حضوره، فلمّا علم الحال أرسل إليه يأمره بالعود إلى داره، ويطيّب قلبه، فقبّل قربوس سرجه، ومسح حائط الدار بيده وأمرّها على وجهه، وعاد إلى داره والعامّة معه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قبل قاضي القضاة أبي عبد اللّه بن ماكولا شهادة أبي الفضل محمّد بن عبد العزيز بن الهادي، والقاضي أبي الطيّب الطبريّ، وأبو الحسين بن المهتدي، وشهد عنده أبا القاسم بن بشران، وكان قد ترك الشهادة قبل ذلك.

وفيها فوّض مسعود بن محمود بن سبكتكين إمارة الرَّيّ، وهمذان، والجبال إلى تاش فرّاش، وكتب له إلى عامل نيسابور بإنفاق الأموال على حشمه، ففعل ذلك وسار إلى عمله، وأساء السيرة فيه.

وفيها، في رجب، أخرج الملك جلال الدولة دوابّه من الإصطبل، وهي خمس عشرة دابّة، وسيّبها في الميدان بغير سائس، ولا حافظ، ولا علف،(٤٢٢/٩)فعل ذلك لسببين: أحدهما عدم العلف، والثاني أنّ الأتراك كانوا يلتمسون دوابّه، ويطلبونها كثيراً، فضجر منهم فأخرجها وقال: هذه دوابّي منها: خمس لمركوبي، والباقي لأصحابي؛ ثم صرف حواشيه، وفرّاشيه، وأتباعه، وأغلق باب داره لانقطاع الجاري له، فثارت لذلك فتنة بين العامّة والجند، وعظم الأمر، وظهر العيّارون.

وفيها عُزل عميد الدولة وزير جلال الدولة، ووزر بعده أبو الفتح محمّد بن الفضل بن أردشير، فبقي أيّاماً، ولم يستقمّ أمره، فعُزل، ووزر بعده أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الحسين، وهو ابن أخي أبي الحسين السهليّ، وزير مأمون صاحب خُوارزم، فبقي في الوزارة خمسة وخمسين يوماً وهرب.

وفيها توفّي عبد الوهّاب بن عليّ بن نصر أبو نصر الفقيه المالكيّ بمصر، وكان ببغداد، ففارقها إلى مصر عن ضائقة، فأغناه المغاربة.(٤٢٣/٩)

سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة

ذكر وثوب الأجناد بجلال الدولة وإخراجه من بغداد

في هذه السنة، في ربيع الأول، تجددت الفتنة بين جلال

الدولة وبين الأتراك، فأغلق بابه، فجاءت الأتراك ونهبوا داره، وسلبوا الكتّاب وأرباب الديوان ثيابهم، وطلبوا الوزير أبا إسحاق السهليّ، فهرب إلى حلّة كمال الدولة غريب بن محمّد، وخرج جلال الدولة إلى عُكبرا في شهر ربيع الآخر، وخطب الأتراك ببغداد للملك أبي كاليجار، وأرسلوا إليه يطلبونه وهو بالأهواز، فمنعه العادل بن مافنّة عن الإصعاد إلى أن يحضر بعض قوّاده.

فلمّا رأوا امتناعه من الوصول إليهم، أعادوا خطبة جلال الدولة، وساروا إليه، وسألوه العود إلى بغداد، واعتذروا، فعاد إليها بعد ثلاثة وأربعين يوماً، ووزر له أبو القاسم بن ماكولا، ثم عُزل، ووزر على أبي المعمّر إبراهيم بن الحسين البساميّ، طمعاً في ماله، فقبض عليه، وجعله في داره، فثار الأتراك وأرادوا منعه، وقصدوا دار الوزير، وأخذوه وضربوه، وأخرجوه من داره حافياً، ومزّقوا ثيابه، وأخذوا عمامته وقطعوها، وأخذوا خواتيمه من(٤٢٤/٩)يده، فدَميتْ أصابعه، وكان جلال الدولة في الحمّام، فخرج مرتاعاً، فركب وظهر لينظر ما الخبر، فأكبّ الوزير يقبّل الأرض، ويذكر ما فُعل به، فقال جلال الدولة: أنا ابن بهاء الدولة، وقد فُعل بي أكثر من هذا، ثم أخذ من البساميّ ألف دينار وأطلقه، واختفى الوزير.

ذكر انهزام علاء الدولة بن كاكَوَيه من عسكر مسعود بن محمود بن سبكتكين

قد ذكرنا انهزام علاء الدولة أبي جعفر من الرَّيّ ومسيره عنها، فلمّا وصل إلى قلعة فردجان أقام بها لتندمل جراحه، ومعه فرهاذ بن مرداويج، كان قد جاءه مدداً له، وتوجّهوا منها إلى بروجرد، فسيّر تاش فرّاش مقدّم عسكر خراسان جيشاً إلى علاء الدولة، واستعمل عليهم عليّ بن عمران، فسار يقصّ أثر علاء الدولة، فلمّا قارب بروجرد صعد فرهاذ إلى قلعة سليموه، ومضى أبو جعفر إلى سابور خواست، ونزل عند الأكراد الجوزقان.

وملك عسكر خراسان بروجرد، وراسل فرهاذ الأكراد الذين مع عليّ بن عمران، واستمالهم، فصاروا معهم، وأرادوا أن يفتكوا بعليّ، وبلغه الخبر، فركب ليلاً في خاصّته وسار نحو همذان، ونزل في الطريق بقرية تُعرف بكسب، وهي منيعة فاستراح فيها، فلحقه فرهاذ وعسكره والأكراد الذين صاروا معه وحصروه في القرية، فاستسلم وأيقن بالهلاك، فأرسل الله تعالى ذلك اليوم مطراً وثلجاً، فلم يمكنهم المقام عليه لأنّهم كانوا جريدة بغير(٤٢٥/٩)خيام ولا آلة شتاء، فرحلوا عنه، وراسل عليّ بن عمران الأمير تاش فرّاش يستنجده ويطلب العسكر إلى همذان، ثم اجتمع فرهاذ وعلاء الدولة ببروجرد، واتّفقا على قصد همذان، وسيّر علاء الدولة إلى أصبهان، وبها ابن أخيه، يطلبه، وأمره بإحضار السلاح والمال، ففعل وسار. فبلغ خبره عليّ بن عمران، فسار إليه من همذان جريدة، فكبسه بجرباذقان، وأسره وأسر كثيراً من عسكره، وقتل منهم، وغنم ما معه من سلاح ومال وغير ذلك.

ولمّا سار عليّ عن همذان دخلها علاء الدولة، وملكها ظنّاً منه أنّ عليّاً سار منهزماً، وسار علاء الدولة من همذان إلى كرج، فأتاه خبر ابن أخيه ففتّ في عضده.

وكان عليّ بن عمران قد سار بعد الوقعة إلى أصبهان طامعاً في الاستيلاء عليها وعلى مال علاء الدولة وأهله، فتعذّر عليه ذلك، ومنعه أهلها والعسكر الذي فيها، فعاد عنها، فلقيه علاء الدولة وفرهاذ، فاقتتلوا، فانهزم منهما، وأخذا ما معه من الأسرى، إلا أبا منصور ابن أخي علاء الدولة، فإنّه كان قد سيّره إلى تاش فرّاش، وسار عليّ من المعركة منهزماً، نحو تاش فرّاش، فلقيه بكرج فعاتبه على تأخره عنه، واتّفقا على المسير إلى علاء الدولة وفرهاذ، وكان قد نزل بجبل عند بروجرد متحصّناً فيه، فافترق تاش وعليّ وقصداه من جهتين: إحداهما من خلفه، والأخرى من الطريق المستقيم، فلم يشعر إلاّ وقد خالطه العسكر، فانهزم علاء الدولة وفرهاذ، وقُتل كثير من رجالهما، فمضى علاء الدولة إلى أصبهان، وصعد فرهاذ إلى قلعة سليموه فتحصّن بها.(٤٢٦/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة توفّي قدرخان ملك التّرك بما وراء النهر.

وفيها ورد أحمد بن محمّد المُنْكدريّ الفقيه الشافعي رسولاً من مسعود بن سبكتكين إلى القائم بأمر الله معزّياً له بالقادر بالله.

وفيها نُقل تابوت القادر بالله إلى المقبرة بالرُّصافة، وشهده الخلق العظيم، وحجّاج خراسان، وكان يوماً مشهوداً.

وفيها كان بالبلاد غلاء شديد، واستسقى الناس فلم يُسقَوا، وتبعه وباء عظيم، وكان عامّاً في جميع البلاد بالعراق، والموصل، والشام، وبلد الجبل، وخراسان، وغزنة، والهند، وغير ذلك، وكثر الموت، فدُفن في أصبهان، في عدّة أيّام أربعون ألف ميّت، وكثر الجدريّ في الناس، فأُحصي بالموصل أنّه مات به أربعة آلاف صبيّ، ولم تخلُ دارٌ من مصيبة لعموم المصائب، وكثرة الموت، وممن جُدر القائم بأمر الله وسلم.

وفيها جمع نائب نصر الدولة بن مروان بالجزيرة جمعاً ينيّف على عشرة آلاف رجل، وغزا من يقاربه من الأرمن، وأوقع بهم، وأثخن فيهم، وغنم وسبى كثيراً، وعاد ظافراً منصوراً.

وفيها كان بين أهل تونس من إفريقية خُلف، فسار المعزّ بن باديس إليهم بنفسه، فأصلح بينهم، وسكّن الفتنة وعاد.(٤٢٧/٩)

وفيها اجتمع ناس كثير من الشيعة بإفريقية، وساروا إلى أعمال

نفْطة، فاستولوا على بلد منها وسكنوه، فجرّد إليهم المعزّ عسكراً، فدخلوا البلاد وحاربوا الشيعة وقتلوهم أجمعين.

وفيها خرجت العرب على حاجّ البصرة ونهبوهم، وحجّ الناس من سائر البلاد إلاّ العراق.

وفيها توفّي أبو الحسن بن رضوان المصريّ، النحويّ، في رجب.

وفيها قتل الملك أبو كاليجار صندلاً الحصيّ، وكان قد استولى على المملكة، وليس لأبي كاليجار معه غير الاسم.

وفيها توفّي عليّ بن أحمد بن الحسن بن محمّد بن نعيم أبو الحسن النعيميّ البصريّ، حدّث عن جماعة، وكان حافظاً، شاعراً، فقيهاً على مذهب الشافعيّ.(٤٢٨/٩)

سنة أربع وعشرين وأربعمائة

ذكر عود مسعود إلى غزنة والفتن بالرّيّ وبلد الجبل

في هذه السنة، في رجب، عاد الملك مسعود بن سبكتكين من نيسابور إلى غزنة وبلاد الهند.

وكان سبب ذلك أنّه لمّا كان قد استقرّ له الملك بعد أبيه أقرّ بما كان قد فتحه أبوه من الهند نائباً يسمّى أحمد ينالتكين، وقد كان أبوه محمود استنابه بها ثقةً بجلده ونهضته، فرسَتْ قدمه فيها، وظهرت كفايته.

ثم إنّ مسعوداً بعد فراغه من تقرير قواعد الملك، والقبض على عمّه يوسف والمخالفين له، سار إلى خراسان عازماً على قصد العراق، فلمّا أبعد عصى ذلك النائب بالهند، فاضطر مسعود إلى العود، فأرسل إلى علاء الدولة بن كاكَوَيْه، وأمره على أصبهان بقرار يؤدّيه كلّ سنة، وكان علاء الدولة قد أرسل يطلب ذلك، فأجابه إليه، وأقرّ ابن قابوس بن وشمكير على جرجان وطَبَرستان على مال يؤديه إليه، وسيّر أبا سهل الحمدونيّ إلى الرّيّ للنظر في أمور هذه البلاد الجبليّة، والقيام بحفظها، وعاد إلى الهند، فأصلح الفاسد، وأعاد المخالف إلى طاعته، وفتح قلعة حصينة تسمّى سُرستى، على ما نذكره، وقد كان أبوه حصرها غير مرّة فلم يتهيّأ له فتحها.(٤٢٩/٩)

ولمّا سار أبو سهل إلى الرّيّ أحسن إلى الناس، وأظهر العدل، فأزال الأقساط والمصادرات. وكان تاش فرّاش قد ملأ البلاد ظلماً وجوراً، حتّى تمنّى الناس الخلاص منهم ومن دولتهم، وخربت البلاد، وتفرّق أهلها، فلمّا وليَ الحمدونيّ، وأحسن، وعدل، عادت البلاد فعمرت، والرعيّة أمنت؛ وكان الإرجاف شديداً بالعراق، لمّا كان الملك مسعود بنَيسابور، فلمّا عاد سكن الناس واطمأنّوا.

ذكر ظفر مسعود بصاحب ساوة وقتله

فيها قبض عسكر السلطان مسعود بن محمود على شهريوش بن ولكين، فأمر به مسعود فقُتل وصُلب على سور ساوة.

وكان سبب ذلك أن شهريوش كان صاحب ساوة وقُمّ وتلك النواحي، فلمّا اشتغل مسعود بأخيه محمّد بعد موت والده جمع شهريوش جمعاً وسار إلى الرّيّ محاصراً لها، فلم يتمّ له ما أراد، وجاءت العساكر فعاد عنها.

ثمّ[في]هذه السنة اعترض الحجّاج الواردين من خُراسان، وعمّهم أذاه، وأخذ منهم ما لم تجر به عادة، وأساء إليهم، وبلغ ذلك إلى مسعود، فتقدّم إلى تاش فرّاش، وإلى أبي الطيّب طاهر بن عبد اللّه خليفته معه، يطلب شهريوش وقصْده أيْن كان، واستنفاد الوسع في قتاله، فسارت العساكر في أثره، فاحتمى(٤٣٠/٩)بقلعة تقارب قُمّ تسمّى فستق، وهي حصينة، عالية المكان، وثيقة البنيان، فأحاطوا به وأخذوه، وكتبوا إلى مسعود في أمره، فأمرهم بصلبه على سور ساوة.

ذكر استيلاء جلال الدولة على البصرة وخروجها عن طاعته

في هذه السنة سارت عساكر جلال الدولة مع والده الملك العزيز فدخلوا البصرة في جمادى الأولى.

وكان سبب ذلك أنّ بختيار متولّي البصرة توفّي فقام بعده ظهير الدين أبو القاسم خال ولده لجلد كان فيه، وكفاية، وهو في طاعة الملك أبي كاليجار، ودام كذلك، فقيل لأبي كاليجار: إنّ أبا القاسم ليس لك من طاعته غير الاسم، ولو رُمْت عزله لتعذّر عليك.

وبلغ ذلك أبا القاسم، فاستعدّ للامتناع، وأرسل أبو كاليجار إليه ليعزله فامتنع، وأظهر طاعة جلال الدولة، وخطب له، وأرسل إلى ابنه، وهو بواسط، يطلبه، فانحدر إليه عساكر أبيه التي كانت معه بواسط، ودخلوا البصرة وأقاموا بها، وأخرجوا عساكر أبي كاليجار منها، وبقي الملك العزيز بالبصرة مع أبي القاسم إلى أن دخلت سنة خمس وعشرين[وأربعمائة] وليس له معه أمر، والحكم إلى أبي القاسم.

ثم إنّه أراد القبض على بعض الديلم، فهرب ودخل دار الملك العزيز(٤٣١/٩)مستجيراً، فاجتمع الديلم إليه، وشكوا من أبي القاسم، فصادفت شكواهم صدراً مُوغَراً حنقاً عليه لسوء صُحبته، فأجابهم إلى ما أرادوه من إخراجه عن البصرة، واجتمعوا، وعلم أبو القاسم بذلك، فامتنع بالأبلّة، وجمع أصحابه، وجرى بين الفريقَيْن حروب كثيرة أجلت عن خروج العزيز عن البصرة وعوده إلى واسط، وعود أبي القاسم إلى طاعة أبي كاليجار .

ذكر إخراج جلال الدولة من دار المملكة وإعادته إليها

في هذه السنة، في رمضان، شغب الجند على جلال الدولة، وقبضوا عليه، ثم أخرجوه من داره، ثم سألوه ليعود إليها فعاد.

سبب ذلك أنّه استقدم الوزير أبا القاسم من غير أن يعلموا، فلمّا قدم ظنّوا أنّه إنّما ورد للتعرّض إلى أموالهم ونعمهم، فاستوحشوا واجتمعوا إلى داره وهجموا عليه، وأخرجوه إلى مسجد هناك، فوكّلوا به فيه، ثمّ إنّهم أسمعوه ما يكره، ونهبوا بعض ما في داره، فلمّا وكّلوا به جاء بعض القوّاد في جماعة من الجند، ومَن انضاف إليه من العامّة والعيّارين، فأخرجه من المسجد وأعاده إلى داره، فنقل جلال الدولة ولده وحُرَمه وما بقي له إلى الجانب الغربيّ، وعبر هو في الليل إلى الكرخ، فلقيه أهل الكرخ بالدعاء، فنزل بدار المرتضى، وعبر الوزير أبو القاسم معه.

ثم إنّ الجند اختلفوا، فقال بعضهم: نخرجه من بلادنا ونملّك غيره. وقال بعضهم: ليس من بني بويه غيره وغير أبي كاليجار، وذلك قد عاد إلى بلاده، ولا بدّ من مداراة هذا، فأرسلوا إليه يقولون له: نريد أن تنحدر عنّا إلى واسط،(٤٣٢/٩)وأنت ملكنا، وتترك عندنا بعض أولادك الأصاغر، فأجابهم إلى ذلك، وأرسل سرّاً إلى الغلمان الأصاغر فاستمالهم، وإلى كلّ واحدٍ من الأكابر، وقال: إنّما أثق بك، وأسكن إليك؛ واستمالهم أيضاً، فعبروا إليه، وقبّلوا الأرض بين يديه، وسألوه العود إلى دار الملك، فعاد، وحلف لهم على إخلاص النيّة، والإحسان إليهم، وحلفوا له على المناصحة، واستقرّ في داره.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّي الوزير أحمد بن الحسن الميمَنْديّ، وزير مسعود بن سبكتكين، ووزر بعده أبو نصر أحمد بن عليّ بن عبد الصّمد، وكان وزير هارون التونتاش، صاحب خوارزم، ووزر بعده لهارون ابنه عبد الجبّار.

وفيها ثار العيّارون ببغداد، وأخذوا أموال الناس ظاهراً، وعظم الأمر على أهل البلد، وطمع المفسدون إلى حدّ أنّ بعض القوّاد الكبار أخذ أربعة من العيّارين، فجاء عقيدهم وأخذ من أصحاب القائد أربعة، وحضر باب داره ودقّ عليه الباب، فكلمه من داخل، فقال العقيد: قد أخذتُ من أصحابك أربعة، فإن أطلقت مَن عندك أطلقتُ مَن عندي، وإلاّ قتلتُهُم، وأحرقتُ دارك! فأطلقهم القائد.

وفيها تأخّر الحاجّ من خراسان.

وفيها خرج حُجّاج البصرة بخفير، فغدر بهم ونهبهم.

وفيها، في جمادى الأولى، توفّي أبو عبد اللّه محمّد بن عبد اللّه بن البيضاويّ، الفقيه الشافعيّ، عن نيّف وثمانين سنة.

وفيها، في شوّال، توفّي أبو الحسن بن السَّمّاك القاضي عن خمس وتسعين سنة.(٤٣٣/٩)

سنة خمس وعشرين وأربعمائة

ذكر فتح قلعة سَرَسْتى وغيرها من بلد الهند

في هذه السنة فتح السلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين قلعة سَرَسْتى وما جاورها من بلد الهند .

وكان سبب ذلك ما ذكرناه من عصيان نائبه بالهند أحمد ينالتكين عليه ومسيره إليه . فلما عاد أحمد إلى طاعته أقام بتلك البلاد طويلاً حتى أمنت واستقرّت، وقصد قلعة سَرَسْتى، وهي من أمنع حصون الهند وأحصنها، فحصرها، وقد كان أبوه حصرها غير مرّة، فلم يتهيّأ له فتحها، فلما حصرها مسعود راسله صاحبها، وبذل له مالاً على الصلح، فأجابه إلى ذلك .

وكان فيها قوم من التجار المسلمين، فعزم صاحبها على أخذ أموالهم وحملها إلى مسعود من جملة القرار عليه، فكتب التجار رقعة في نشّابة ورموا بها إليه يعرّفونه فيها ضعف الهنود بها، وأنه إن صابرهم ملكها، فرجع عن الصلح إلى الحرب، وطمّ خندقها بالشجر وقصب السكر وغيره، وفتح اللّه عليه، وقتل كل من فيها، وسبى ذراريهم، وأخذ ما جاورها من البلاد، وكان عازماً (٤٣٤/٩) على طول المقام والجهاد، فأتاه من خراسان خبر الغزّ، فعاد، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى .

ذكر حصر قلعةٍ بالهند أيضاً

لما ملك مسعود قلعة سرستى رحل عنها إلى قلعة نغسى، فوصل إليها عاشر صفر، وحصرها فرآها عالية لا تُرام، يرتدّ البصر دونها وهو حسير، إلا أنه أقام عليها يحصرها، فخرجت عجوز ساحرة، فتكلّمت باللسان الهنديّ طويلاً، وأخذت مكنسة فبلتها بالماء ورشّته منها إلى جهة عسكر المسلمين، فمرض وأصبح لا يقدر أن يرفع رأسه، وضعفت قوّته ضعفاً شديداً، فرحل عن القلعة لشدة المرض، فحين فارقها زال ما كان به، وأقبلت الصحة والعافية إليه، وسار نحو غزنة .

ذكر الفتنة بنيسابور

لما اشتد أمر الأتراك بخراسان، على ما نذكره، تجمع كثير من المفسدين وأهل العيث والشر، وكان أول من أثار الشر أهل أبيورد وطوس، واجتمع معهم خلق كثير، وساروا إلى نيسابور لينهبوها، وكان الوالي عليها قد سار عنها إلى الملك مسعود، فخافهم خوفاً عظيماً، وأيقنوا بالهلاك .

فبينما هم يترقّبون البوار والاستئصال، وذهاب الأنفس

والأموال، إذ (٤٣٥/٩) وصل إليهم أمير كرمان في ثلاثمائة فارس، قدم متوجّها إلى مسعود أيضاً، فاستغاث به المسلمون، وسألوه أن يقيم عندهم ليكفّ عنهم الأذى، فأقام عليهم، وقاتل معهم، وعظم الأمر، واشتدت الحرب، وكان الظفر له ولأهل نيسابور، فانهزم أهل طوس وأبيورد ومَن تبعهم، وأخذتهم السيوف من كل جانب، وعمل بهم أمير كرمان أعمالاً عظيمة، وأثخن فيهم، وأسر كثيراً منهم، وصلبهم على الأشجار وفي الطرق، فقيل إنه عدم من أهل طوس عشرون ألف رجل .

ثم إن أمير كرمان أحضر زعماء قُرى طوس، وأخذ أولادهم وإخوانهم وغيرهم من أهليهم رهائن، فأودعهم السجون، وقال : إن اعترض منكم واحد إلى أهل نيسابور أو غيرهم، أو قطع طريقاً، فأولادهم، وإخوانهم، ورهائنكم مأخوذون بجناياتكم . فسكن الناس، وفرج اللّه عن أهل نيسابور بما لم يكن في حسابهم .

ذكر الحرب بين علاء الدولة وعسكر خراسان

في هذه السنة اجتمع علاء الدولة بن كاكويه وفرهاذ بن مرداويج، واتفقا على قتال عسكر مسعود بن محمود بن سبكتكين، وكانت العساكر قد خرجت من خراسان مع أبي سهل الحمدوني، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً صبر فيه الفريقان، ثم انهزم علاء الدولة، وقتل فرهاذ، واحتمى علاء الدولة بجبال بين أصبهان وجَرْباذقان، ونزل عسكر مسعود بكرج .

وأرسل أبو سهل إلى علاء الدولة يقول له ليبذل المال، ويراجع الطاعة (٤٣٦/٩) ليقره على ما بقي من البلاد، ويصلح حاله مع مسعود . فترددت الرسل، فلم يستقر بينهم أمر، فسار أبو سهل إلى أصبهان فملكها، وانهزم علاء الدولة من بين يديه لما خاف الطلب إلى إيذَج، وهي للملك أبي كاليجار .

ولما استولى أبو سهل على أصبهان نهب خزائن علاء الدولة وأمواله، وكان أبو علي بن سينا في خدمة علاء الدولة، فأخذت كتبه وحملت إلى غزنة فجُعلت في خزائن كتبها إلى أن أحرقها عساكر الحسين بن الحسين الغوريّ، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى .

ذكر الحرب بين نور الدولة دُبيس وأخيه ثابت

في هذه السنة كانت حرب شديدة بين دبيس بن علي بن مزيد وأخيه أبي قوّام ثابت بن علي بن مزيد .

وسبب ذلك أن ثابتاً كان يعتضد بالبساسيري ويتقرب إليه، فلما كان سنة أربع وعشرين وأربعمائة سار البساسيري معه إلى قتال أخيه دبيس، فدخلوا النيل واستولوا عليه وعلى أعمال نور الدولة، فسيّر نور الدولة إليهم طائفة من أصحابه، فقاتلوهم فانهزموا، فلما رأى دبيس هزيمة أصحابه سار عن بلده، وبقي ثابت فيه إلى الآن، فاجتمع دبيس وأبو المغرا عنّاز ابن المغرا، وبنو أسد وخفاجة،وأعانه أبو كامل منصور بن قراد، وساروا جريدة لإعادة دُبيس إلى بلده وأعماله، وتركوا حللهم بين خُصّا وحَربى .

فلما ساروا لقيهم ثابت عند جَرْجَرايا، وكانت بينهم حرب قتل فيها جماعة من الفريقين، ثم تراسلوا واصطلحوا ليعود دبيس إلى أعماله،(٤٣٧/٩) ويقطع أخاه ثابتاً إقطاعاً، وتحالفوا على ذلك، وسار البساسيريّ نجدة لثابت، فلما وصل إلى النّعمانية سمع بصلحهم، فعاد إلى بغداد .

ذكر ملك الروم قلعة بركوي

هذه قلعة متاخمة للأرمن في يد أبي الهيجاء بن ربيب الدولة، ابن أخت وهسوذان بن مملان، فتنافر هو وخاله، فأرسل خاله إلى الروم فأطمعهم فيها، فسير الملك إليها جمعاً كثيراً فملكوها، فبلغ الخبر إلى الخليفة، فأرسل إلى أبي الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة، فاصطلحا، ولم يتمكّنا من استعادتها واجتمع إليهما خلق كثير من المتطوعة، فلم يقدروا على ذلك لثبات قدم الروم بها .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة استوزر جلال الدولة عميد الدولة أبا سعد بن عبد الرحيم، وهي الوزارة الخامسة، وكان قبله في الوزارة ابن ماكولا، ففارقها وسار إلى عُكْبرا، فردّه جلال الدولة إلى الوزارة، وعزل أبا سعد، فبقي أياما، ثم فارقها إلى أوانا .

وفيها استخلف البساسيري في حماية الجانب الغربي ببغداد لأن العيارين اشتدّ أمرهم وعظم فسادهم، وعجز عنهم نوّاب السلطان، فاستعملوا البساسيري لكفايته ونهضته . (٤٣٨/٩)

وفيها توفي أبو سنان غريب بن محمد بن مَقن في شهر ربيع الآخر، في كرخ سامرّا، وكان يلقّب سيف الدولة، وكان قد ضرب دراهم سمّاها السيفيّة، وقام بالأمر بعده ابنه أبو الرّيان، وخلّف خمسمائة ألف دينار، وأمر فنودي : قد أحللت كل من لي عنده شيء فحللوني كذلك ؛ فحلّلوه، وكان عمره سبعين سنة .

وفيها توفي بدران بن المقلد، وقصد ولده عمّه قرواشاً، فأقر عليه حاله وماله وولاية نصيبين، وكان بنو نُمير قد طمعوا فيها وحصروها، فسار إليهم ابن بدران فدفعهم عنها.

وفيها توفي أرمانوس ملك الروم، وملك بعده رجل صيرفي ليس من بيت الملك، وإنما بنت قُسطنطين اختارته .

وفيها كثرت الزلازل بمصر والشام، وكان أكثرها بالرملة، فإن

أهلها فارقوا منازلهم عدة أيام، وانهدم منها نحو ثلثها، وهلك تحت الهدم خلق كثير .

وفيها كان بإفريقية مجاعة شديدة وغلاء .

وفيها قبض قرواش على البُرجمي العيار وغرّقه، وكان سبب ذلك أن قرواشاً قبض على ابن القَلَعيّ عامل عُكْبرا، فحضر البرجمي العيار عند قرواش مخاطباً في أمره لمودة بينهما، فأخذ قرواش وقبض عليه، فبذل مالاً كثيراً ليطلقه، فلم يفعل وغرّقه، وكان هذا البرجمي قد عظم شأنه وزاد شره، وكبس عدة مخازن بالجانب الشرقيّ، وكبس دار المرتضى، ودار ابن عُدَيسة، وهي مجاورة دار الوزير، وثار العامة بالخطيب يوم الجمعة، وقالوا : (٤٣٩/٩) إما أن تخطب للبرجميّ، وإلا فلا تخطب لسلطان ولا غيره ؛ وأهلك الناس ببغداد، وحكاياته كثيرة، وكان مع هذا فيه فتوّة، ومروءة، لم يعرض إلى امرأة، ولا إلى من يستسلم إليه .

وفيها هبّت ريح سوداء بنصيبين فقلعت من بساتينها كثيراً من الأشجار، وكان في بعض البساتين قصر مبني بجصّ وآجر وكلس، فقلعته من أصله .

وفيها كثر الموت بالخوانيق في كثير من بلاد العراق، والشام، والموصل، وخوزستان، وغيرها حتى كانت الدار يُسدّ بابها لموت أهلها .

وفيها، في ذي القعدة، انقض كوكب هال منظره الناس، وبعده بليلتين انقض شهاب آخر أعظم منه كأنه البرق ملاصق الأرض، وغلب على ضوء المشاعل، ومكث طويلا حتى غاب أثره .

وفيها توفي أبو العباس الأبيوردي، الفقيه الشافعي، قاضي البصرة، وأبو بكر محمد بن أحمد بن غالب البرقاني، المحدث، الإمام المشهور، وكانت وفاته في رجب ؛ والحسين بن عبد اللّه بن يحيى أبو علي البندنيجي، الفقيه الشافعي، وهو من أصحاب أبي حامد الأسفراييني ؛ وعبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد أبو الفرج التميمي الفقيه الحنبليّ .(٤٤٠/٩)

سنة سِت وعشرين وأربعمائة

ذكر حال الخلافة والسلطنة ببغداد

في هذه السنة انحل أمر الخلافة والسلطنة ببغداد، حتى إن بعض الجند خرجوا إلى قرية يحيى، فلقيهم أكراد، فأخذوا دوابهم، فعادوا إلى قراح الخليفة القائم بأمر اللّه، فنهبوا شيئاً من ثمرته، وقالوا للعمّالين فيه : أنتم عرفتم حال الأكراد ولم تعلمونا .

فسمع الخليفة الحال، فعظم عليه، ولم يقدر جلال الدولة على أخذ أولئك الأكراد لعجزه ووهنه، واجتهد في تسليم الجند إلى نائب الخليفة، فلم يمكنه ذلك، فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه، وإلى الشهود بترك الشهادة، وإلى الفقهاء بترك الفتوى .

فلما رأى جلال الدولة ذلك سأل أولئك الأجناد ليجيبوه إلى أن يحملهم إلى ديوان الخلافة، ففعلوا، فلما وصلوا إلى دار الخلافة أُطلقوا، وعظم أمر العيارين، وصاروا يأخذون الأموال ليلاً ونهاراً، ولا مانع لهم لأن الجند يحمونهم على السلطان ونوابه، والسلطان عاجز عن قهرهم، وانتشر العرب في (٤٤١/٩) البلاد فنهبوا النواحي، وقطعوا الطريق، وبلغوا إلى أطراف بغداد، حتى وصلوا إلى جامع المنصور، وأخذوا ثياب النساء في المقابر .

ذكر إظهار أحمد ينالتكين العصيان وقتله

في سنة خمس وعشرين [وأربعمائة] عاد مسعود بن محمود من الهند لقتال الغز، فعاد أحمد ينالتكين إلى إظهار العصيان ببلاد الهند، وجمع الجموع، وقصد البلاد بالأذى، فسير إليه مسعود جيشاً كثيفاً، وكانت ملوك الهند تمنعه من الدخول إلى بلادهم، وسد منافذ هربه .

ولما وصل الجيش المنفذ إليه قاتلهم، فانهزم ومضى هاربا إلى المُلتان، وقصد بعض ملوك الهند بمدينة بَهَاطِية ومعه جمع كثير من عساكره الذين سلموا، فلم يكن لذلك الملك قدرة على منعه، وطلب منه سفناً ليعبر نهر السند، فأحضر له السفن .

وكان في وسط النهر جزيرة ظنّها أحمد ومَن معه متصلة بالبر من الجانب الآخر، ولم يعلموا أن الماء محيط بها، فتقدّم ملك الهند إلى أصحاب السفن بإنزالهم في الجزيرة والعود عنهم، ففعلوا ذلك، وبقي أحمد ومَن معه فيها وليس معهم طعام إلا ما معهم، فبقوا بها تسعة أيام، ففني زادهم، وأكلوا دوابّهم، وضعفت قواهم، فأرادوا خوض الماء فلم يتمكّنوا منه لعمقه (٤٤٢/٩) وشدة الوحل فيه، فعبّر الهند إليهم عسكرهم في السفن، وهم على تلك الحال، فأوقعوا بهم وقتلوا أكثرهم، وأخذوا ولداً لأحمد أسيراً، فلما رآه أحمد على تلك الحال قتل نفسه، واستوعب أصحابه القتل والأسر والغرق .

ذكر ملك مسعود جُرجان وطبرستان

كان الملك مسعود قد أقر دارا بن منوجهر بن قابوس على جرجان وطبرستان وتزوج أيضا بابنة أبي كاليجار القوهي، مقدم جيش دارا، والقيم بتدبير أمره استمالةً . فلما سار إلى الهند منعوا ما كان استقر عليهم من المال، وراسلوا علاء الدولة بن كاكويه وفرهاذ بالاجتماع على العصيان والمخالفة، وقوّى عزمهم على

ذلك ما بلغهم من خروج الغز بخراسان .

فلما عاد مسعود من الهند وأجلى الغزّ وهزمهم سار إلى جرجان فاستولى عليها وملكها، وسار إلى آمل طَبَرستان، وقد فارقها أصحابها، واجتمعوا بالغياض والأشجار الملتفة، الضيقة المدخل، الوعرة المسلك، فسار إليهم واقتحمها عليهم فهزمهم وأسر منهم وقتل، ثم راسله دارا وأبو كاليجار وطلبوا منه العفو وتقرير البلاد عليهم، فأجابهم إلى ذلك، وحملوا من الأموال ما كان عليهم، وعاد إلى خراسان . (٩/٤٤٣)

ذكر مسير ابن وثّاب والروم إلى بلد ابن مروان

فيها جمع ابن وثاب النُّمَيْريّ جمعاً كثيراً من العرب وغيرهم، واستنجد من بالرُّها من الروم، فسار معه منهم جيش كثيف، وقصد بلد نصر الدولة بن مروان، ونهب وأخرب . فجمع ابن مروان جموعه وعساكره واستمد قرواشاً وغيره، وأتته الجنود من كل ناحية، فلما رأى ابن وثّاب ذلك وأنه لا يتم له غرض عاد عن بلاده .

وأرسل ابن مروان إلى ملك الروم يعاتبه على نقْض الهدنة، وفسخ الصلح الذي كان بينهما، وراسل أصحاب الأطراف يستنجدهم للغزاة، فكثر جمعه من الجند والمتطوعة، وعزم على قصد الرها، ومحاصرتها، فوردت رسل ملك الرُّوم يعتذر، ويحلف أنه يعلم بما كان، وأرسل الى عسكره الذين بالرُّها والمقدم عليهم ينكر ذلك، وأهدى إلى نصر الدولة هدية سنيّة، فترك ما كان عازماً عليه من الغزو، وفرّق العساكر المجتمعة عنده.

ذكر عدّة حوادث

فيها خرج أبو سعد، وزير جلال الدولة، إلى أبي الشوك مفارقاً للوزارة، ووزر بعده أبو القاسم، وكثرت مطالبات الجند فهرب، فأُخرج وحُمل إلى دار المملكة مكشوف الرأس في قميص خفيف، وكانت وزارته هذه شهرين وثمانية أيّام، وعاد أبو سعد بن عبد الرحيم إلى الوزارة.(٩/٤٤٤)

وفيها، في ذي الحجّة، وثب الحسن بن أبي البركات بن ثمال الخفاجيّ بعمّه عليّ بن ثمال أمير بني خفاجة، فقتله، وقام بإمارة بني خفاجة.

وفيها جمعت الروم وسارت إلى ولاية حلب، فخرج إليهم صاحبها شبل الدولة بن صالح بن مرداس، فتصافّوا واقتتلوا، فانهزمت الروم، وتبعهم إلى عزاز، وغنم غنائم كثيرة وعاد سالماً.

وفيها قصدت خفاجة الكوفة، ومقدّمهم الحسن بن أبي البركات بن ثمال، فنهبوها، وأرادوا تخريبها، ومنعوا النخل من الماء فهلك أكثره.

وفيها هرب الزكيّ أبو عليّ النهرسابسيّ من محبسه، وكان قرواش قد اعتقله بالموصل، فبقي سنتين إلى الآن، ولم يحجّ هذه السنة من العراق أحد.

وفي هذه السنة توفّي أحمد بن كُليب، الأديب، الشاعر الأندلسيّ، وحديثه مع أسلم بن أحمد بن سعيد مشهور، وكان يهواه، فقال فيه:

أسلمني في هواه | أسلمُ هذا الرّشا
غزالٌ له مُقلة | يُصيبُ بها من يَشا
وَشى بيننا حاسدٌ | سيُسأل عمّا وشى
ولو شاء أنْ يرتشي | على الوصل روحي ارتشى

ومات كمداً من هواه.(٩/٤٤٥)

وتوفّي في جمادى الأولى منها أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن شهيد الأديب الأندلسيّ، ومن شعره:

إنّ الكريم إذا نالته مخمصةٌ | أبدى إلى الناس شبعاً، وهو طيّان
يحني الضلوع على مثل اللّظى حُرقاً | والوجه غمرٌ بماء البِشر ملآن

وله أيضاً:

كتبتُ لها أنّني عاشق | على مهرق اللثم بالناظر
فردّت عليّ جواب الهوى | بأحور عن مائه حائر
منعّمة نطقت بالجفون | فدلّت على دِقّة الخاطر
كأن فؤادي، إذا أعرضت | تعلّق في مخلبي طائر

وفيها توفّي أبو المعالي بن سخطة العلويّ النقيب بالبصرة، وأبو محمّد بن معيّة العلويّ بها أيضاً؛ وأبو عليّ الحسين بن أحمد بن شاذان، المحدّث الأشعريّ مذهباً، وكان مولده ببغداد سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة؛ وحمزة بن يوسف الجرجانيّ، وكان من أهل الحديث.(٩/٤٤٦)

سنة سبع وعشرين وأربعمائة

ذكر وثوب الجند بجلال الدولة

في هذه السنة ثار الجند ببغداد بجلال الدولة، وأرادوا إخراجه منها، فاستنظرهم ثلاثة أيّام، فلم ينظروه، ورموه بالآجرّ، فأصابه بعضهم، واجتمع الغلمان فردّوهم عنه، فخرج من باب لطيف في سُميريّة متنكراً، وصعد راجلاً منها إلى دار المرتضى بالكرخ، وخرج من دار المرتضى، وسار إلى رافع بن الحسين بن مقن بتكريت، وكسر الأتراك أبواب داره ودخلوها ونهبوها، وقلعوا كثيراً من سياجها وأبوابها، فأرسل الخليفة إليه، وقرّر أمر الجند وأعاده إلى بغداد.

ذكر الحرب بين أبي سهل الحمدونيّ وعلاء الدولة

في هذه السنة سار طائفة من العساكر الخراسانيّة التي مع الوزير أبي سهل الحمدونيّ بأصبهان يطلبون الميرة، فوضع عليهم علاء الدولة من أطمعهم في(٤٤٧/٩)الامتيار من النواحي القريبة منه، فساروا إليها، ولا يعلمون قُربه منهم، فلمّا أتاه خبرهم خرج إليهم وأوقع بهم وغنم ما معهم.

وقوي طمعه بذلك، فجمع جمعاً من الديلم وغيرهم وسار إلى أصبهان، وبها أبو سهل في عساكر مسعود بن سبكتكين، فخرجوا إليه وقاتلوه، فغدر الأتراك بعلاء الدولة، فانهزم ونهب سواده، فسار إلى بروجرد، ومنها إلى الطرم، فلم يقبله ابن السلاّر، وقال: لا قدرة لي على مباينة الخراسانيّة؛ فتركه وسار عنه.

ذكر وفاة الظاهر وولاية ابنه المُستنصر

في هذه السنة، في منتصف شعبان، توفّي الظاهر لإعزاز دين اللّه أبو الحسن عليّ بن أبي عليّ المنصور الحاكم، الخليفة العلويّ، بمصر، وكان عمره ثلاثاً وثلاثين سنة، وكانت خلافته خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً، وكان له مصر، والشام، والخطبة له بإفريقية، وكان جميل السيرة، حسن السياسة، منصفاً للرعيّة، إلاّ أنّه مشتغل بلذّاته مُحبّ للدّعة والرّاحة، قد فوّض الأمور إلى وزيره أبي القاسم عليّ بن أحمد الجرجرائي لمعرفته بكفايته وأمانته.

ولمّا مات وليَ بعده ابنه أبو تميم معدّ، ولُقّب المستنصر باللّه، ومولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة، وفي أيّامه كانت قصّة الباسيريّ، وخُطب(٤٤٨/٩)له ببغداد سنة خمسين وأربعمائة.

وكان الحاكم في دولته بدر بن عبد اللّه الجمال الملقّب بالأفضل، أمير الجيوش، وكان عادلاً، حسن السيرة.

وفي سنة تسع وسبعين[وأربعمائة] وصل الحسن بن الصبّاح الإسماعيليّ في زيّ تاجر إلى المستنصر باللّه، وخاطبه في إقامته الدعوة له بخراسان وبلاد العجم، فأذن له في ذلك، فعاد ودعا إليه سرّاً، وقال للمستنصر: من إمامي بعدك؟ فقال: ابني نزار. والإسماعيليّة يعتقدون إمامة نزار، وسيرد كيف صُرف الأمر عنه سنة سبع وثمانين[وأربعمائة]إن شاء اللّه تعالى.

ذكر فتح السويداء وربض الرُّها

في رجب من هذه السنة اجتمع ابن وثّاب وابن عُطَير، وتصاهرا، وجمعا، وأمدّهما نصر الدولة بن مروان بعسكر كثيف، فساروا جميعهم إلى السويداء، وكان الروم قد أحدثوا عمارتها في ذلك الوقت، واجتمع إليها أهل القُرَى المجاورة لها، فحصرها المسلمون وفتحوها عنوة، وقتلوا فيها ثلاثة آلاف و خمسمائة رجل، وغنموا ما فيها، وسبوا حلقاً كثيراً، وقصدوا الرُّها فحصروها، وقطعوا الميرة عنها، حتّى بلغ مكوك الحنطة ديناراً، واشتدّ الأمر، فخرج البطريق الذي فيها متخفّياً، ولحق بملك الروم، وعرّفه الحال، فسيّر معه خمسة آلاف فارس، فعاد بهم.

فعرف ابن وثّاب ومقدّم عساكر نصر الدولة الحال، فكمنا لهم، فلمّا(٤٤٩/٩)قاربوهم خرج الكمين عليهم، فقُتل من الروم خلق كثير، وأُسر مثلهم، وأُسر البطريق وحُمل إلى باب الرُّها، وقالوا لمن فيها: إمّا أن تفتحوا البلد لنا، وإمّا قتلنا البطريق والأسرى الذين معه! ففتحوا البلد للعجز عن حفظه، وتحصّن أجناد الروم بالقلعة، ودخل المسلمون المدينة، وغنموا ما فيها، وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي، وأكثروا القتل، وأرسل ابن وثّاب إلى آمد مائة وستّين راحلة عليها رؤوس القتلى وأقام محاصراً للقلعة.

ثم إنّ حسّان بن الجرّاح الطائيّ سار في خمسة آلاف فارس من العرب والروم نجدةً لمن بالرّها، فسمع ابن وثّاب بقُربه، فسار إليه مجدّاً ليلقاه قبل وصوله، فخرج من الرّها من الروم إلى حرّان، فقاتلهم أهلها، وسمع ابن وثّاب الخبر فعاد مسرعاً، فوقع على الروم، فقتل منهم كثيراً، وعاد المنهزمون إلى الرّها.

ذكر غدر السّناسنة وأخذ الحاجّ وإعادة ما أخذوه

في هذه السنة ورد خلق كثير من أذربيجان، وخُراسان، وطبرستان، وغيرها من البلاد يريدون الحجّ، وجعلوا طريقهم على أرمينية وخلاط، فوردوا إلى آني ووسْطان، فثار بهم الأرمن من تلك البلاد، وأعانهم السّناسنة، وهم من الأرمن أيضاً إلاّ أنهم لهم حصون منيعة تجاور خلاط، وهم صُلح مع صاحب خلاط.

ولم تزل هذه الحصون بأيديهم منفردين بها، إلاّ أنّهم متعاهدون إلى سنة ثمانين وخمسمائة، فملكها المسلمون منهم، وأزالوهم عنها، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.(٤٥٠/٩)

فلمّا اتّفقوا مع الأرمن من رعيّة البلاد أخذوا الحاجّ فقتلوا منهم كثيراً، وأسروا، وسبوا، ونهبوا الأموال، وحملوا ذلك أجمع إلى الروم، وطمع الأرمن في تلك البلاد، فسمع نصر الدولة بن مروان الخبر، فجمع العساكر وعزم على غزوهم، فلمّا سمعوا ذلك، ورأوا جدّه فيه، راسله ملك السناسنة، وبذل إعادة جميع ما أخذ أصحابه، وإطلاق الأسرى والسّبي، فأجابهم إلى الصلح، وعاد عنهم لحصانة قلاعهم، وكثرة المضايق في بلادهم، ولأنّهم بالقرب من الروم، فخاف أن يستنجدوهم ويمتنعوا بهم، فصالحهم.

ذكر الحرب بين المعزّ وزناتة

في هذه السنة اجتمعت زناتة بإفريقية، وزحفت في خيلها ورجلها يريدون مدينة المنصورة، فلقيهم جيوش المعزّ بن باديس

صاحبها، بموضع يقال له الجفنة قريب من القيروان، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزمت عساكر المعزّ، ففارقت المعركة، وهم على حامية، ثم عاودوا القتال، وحرّض بعضهم بعضاً، فصبرت صنهاجة، وانهزمت زناتة هزيمة قبيحة، وقُتل منهم عدد كثير، وأُسر خلق عظيم، وتُعرف هذه الوقعة بوقعة الجَفنة، وهي مشهورة عندهم. (٤٥١/٩)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في رجب، انقضّ كوكب عظيم غلب نوره على نور الشمس وشوهد في آخرها مثل التنّين يضرب إلى السواد، وبقي ساعةً وذهب. وفيها كانت ظلمة عظيمة اشتدّت حتّى إنّ إنساناً كان لا يبصر جليسه، وأُخذ بأنفاس الخلق، فلو تأخّر انكشافها لهلك أكثرهم.

وفيها قُبض على الوزير أبي سعد بن عبدالرحيم، وزير جلال الدولة، وهي الوزارة السادسة.

وفيها، في رمضان، توفّي رافع بن الحسين بن مقن، وكان حازماً، شجاعاً، وخلّف بتكريت ما يزيد على خمس مائة ألف دينار، فملكها ابن أخيه خميس بن ثعلب، كان طريداً في أيام عمّه، وحمل إلى جلال الدولة ثمانين ألف دينار فأصلح بها الجند، وكانت يده قد قُطعت [لأنّ] بعض عبيد بني عمّه كان يشرب معه، فجرى بينه وبين آخر خصومة، فجرّدا سيفيهما، فقام رافع ليصلح بينهما، فضرب العبد يده فقطعها غلطاً، ولرافع فيها شعر، ولم تمنعه من قتال [فقد]عمل له كفاً أخرى يمسك بها العنان ويقاتل، وله شعر جيّد، من ذلك قوله:

لها ريقةٌ، أستغفرُ اللّه، إنّها ... ألذُّ وأشهى في النُفوسِ مِنَ الخمرِ

(٤٥٢/٩)

وصارم طَرفٍ لا يزايلُ جَفنَهُ ... ولم أرَ سيفاً قطّ في جَفنه يفري

فقلتُ له، والعيسُ تُحدَجُ بالضّحى: ... أعِدّي لفقدي ما استطعتِ من الصبرِ

سأُنفق ريعانَ الشبيبةِ آنفاً ... على طلَبِ العَلياء أو طلَبِ الأجرِ

أليسَ من الخُسران أنّ ليالياً ... تمرّ بلا نَفعٍ وتُحسبُ من عُمري

وفيها، في صفر، أمر القائم بأمر اللّه بترك التعامل بالدنانير المغربيّة، وأمر الشهود أن لا يشهدوا في كتاب ابتياع ولا غيره يُذكر فيه هذا الصنف من الذهب، فعدل الناس إلى القادريّة، والسابوريّة، والقاسانيّة.(٤٥٣/٩)

سنة ثمان وعشرين وأربعمائة

ذكر الفتنة بين جلال الدولة وبين بارسطُغان

في هذه السنة كانت الفتنة بين جلال الدولة وبين بارسطُغان، وهو من أكابر الأمراء ويلقّب حاجب الحجّاب.

وكان سبب ذلك أنّ جلال الدولة نسبه إلى فساد الأتراك، والأتراك نسبوه إلى أخذ الأموال، فخاف على نفسه، فالتجأ إلى دار الخلافة في رجب من السنة الخالية.

وتردّدت الرسل بين جلال الدولة والقائم بأمر اللّه في أمره، فدافع الخليفة عنه، وبارسطغان يراسل الملك أبا كاليجار، فأرسل أبو كاليجار جيشاً، فوصلوا إلى واسط، وأخرجوا الملك العزيز بن جلال الدولة، فأصعد إلى أبيه، وكشف بارسطغان القناع، فاستتبع أصاغر المماليك وناداوا بشعار أبي كاليجار، وأخرجوا جلال الدولة من بغداد، فسار إلى أوانا ومعه البساسيريّ، وأخرج بارسطغان الوزير أبا الفضل العبّاس بن الحسن بن فسانجس، فنظر في الأمور نيابةً عن الملك أبي كاليجار، وأرسل بارسطغان إلى الخليفة يطلب الخطبة لأبي كاليجار، فاحتجّ بعهود جلال الدولة، فأكره الخطباء على لأبي كاليجار، ففعلوا.(٤٥٤/٩)

وجرى بين الفريقين مناوشات، وسار الأجناد الواسطيّون إلى بارسطغان ببغداد، فكانوا معه، وتنقلب الحال بين جلال الدولة وبارسطغان، فعاد جلال الدولة إلى بغداد، ونزل بالجانب الغربيّ ومعه قرواش بن المقلّد العُقيليّ، ودُبَيْس بن عليّ بن مَزْيد الأسديّ، وخُطب لجلال الدولة به، وبالجانب الشرقيّ لأبي كاليجار .

ثم سار جلال الدولة إلى الأنبار، وسار قرواش إلى الموصل، وقبض بارسطغان على ابن فسانجس، فعاد منصور بن الحسين إلى بلده، وأتى الخبر إلى بارسطغان بعود الملك أبي كاليجار إلى فارس، ففارقه الديلم الذين جاؤوا نجدة له، فضعف أمره، فدفع ماله وحُرمه إلى الخلافة، وانحدر إلى واسط، وعاد جلال الدولة إلى بغداد، وأرسل البساسيريّ والمرشد وبني خفاجة في أثره، فتبعهم جلال الدولة ودُبَيْس بن عليّ بن مَزْيد، فلحقوه بالخيزرانية، فقاتلوه، فسقط عن فرسه، فأُخذ أسيراً وحُمل إلى جلال الدولة، فقتله وحمل رأسه، وكان عمره نحو سبعين سنة.

وسار جلال الدولة إلى واسط فملكها، وأصعد إلى بغداد، فضعف أمر الأتراك،وطمع فيه الأعراب، واستولوا على إقطاعاتهم، فلم يقدروا على كفّ أيديهم عنها،وكانت مدّة بارسطغان من حين كاشف جلال الدولة إلى أن قُتل ستّة أشهر وعشرة أيام.(٤٥٥/٩)

ذكر الصلح بين جلال الدولة وأبي كاليجار والمصاهرة بينهما

في هذه السنة تردّدت الرسل بين جلال الدولة وابن أخيه أبي كاليجار، سلطان الدولة، في الصلح والاتّفاق، وزوال الخلف، وكان الرسل أقضى القضاة أبا الحسن الماروديّ، وأبا عبد اللّه المردوستيّ، وغيرهما، فاتّفقا على الصلح، وحلف كلّ واحد من

الملكَيْن لصاحبه، وأرسل الخليفة القائم بأمر الله إلى أبي كاليجار الخِلع النفيسة، ووقع العقد لأبي منصور بن أبي كاليجار على ابنة جلال الدولة، وكان الصداق خمسين ألف دينار قاسانيّة.

ذكر عدّة حوادث

فيها توفي أبو القاسم عليّ بن الحسين بن مكرَم، صاحب عُمان، وكان جواداً، ممدّحاً، وقام ابنه مقامه.

وفيها توفّي الأمير أبو عبد الله الحسين بن سلامة، أمير تهامة باليمن، ووليَ ابنه بعده، فعصى عليه خادم كان لوالده، وأراد أن يملك، فجرى بينهما حروب كثيرة تمادت أيامها، ففارق أهل تهامة أوطانهم إلى غير مملكة ولد الحسين هرباً من الشرّ وتفاقم الأمر.(٤٥٦/٩)

وفيها توفّي مهيار الشاعر، وكان مجوسيّاً، فأسلم سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، وصحب الشريف الرضيّ، وقال له أبو القاسم بن بُرهان: يا مهيار قد انتقلت بإسلامك في النار من زاوية إلى زاوية! قال: وكيف؟ قال: لأنّك كنت مجوسيّاً، فصرت تسبّ أصحاب النبيّ ﷺ في شعرك.

وفيها توفّي أبو الحسين القدوريّ الفقيه الحنفيّ، والحاجب أبو الحسن هبة الله بن الحسين، المعروف بابن أخت الفاضل، وكان من أهل الأدب وله شعر جيّد، وأبو عليّ بن أبي الريّان بمطيراباذ، ومولده سنة أربعمائة وخمسين وثلاثمائة، وقد مدحه الرضيّ وابن نُباتة وغيرهما.

وفيها عاود العزّ بن باديس حرب زناتة بإفريقية، فهزمهم وأكثر القتل فيهم، وخرّب مساكنهم وقصورهم.

وفي شعبان توفّي أبو عليّ بن سينا الحكيم، الفيلسوف المشهور، صاحب التصانيف السائرة على مذاهب الفلاسفة، وكان موته بأصبهان، وكان يخدم علاء الدولة أبا جعفر بن كاكَوَيْه، ولا شكّ أنّ أبا جعفر كان فاسد الاعتقاد، فلهذا اقدم ابن سينا على تصانيفه في الإلحاد، والردّ على الشرائع في بلده.(٤٥٧/٩)

سنة تسع وعشرين وأربعمائة

ذكر محاصرة الأبخاز تَفليس وعودهم عنها

في هذه السنة حصر ملك الأبخاز مدينة تفليس، وامتنع أهلها عليه، فأقام عليهم محاصراً مضيّقاً، فنفدت الأقوات، وانقطعت الميرة، فأنفذ أهلها إلى أذربيجان يستنفرون المسلمين، ويسألونهم إعانتهم، فلما وصل الغزّ إلى أذربيجان، وسمع الأبخاز بقربهم، وبما فعلوا بالأرمن، رحلوا عن تفليس مُجفلين خوفاً. ولما رأى وهسوذان صاحب أذربيجان قوة الغز، وأنه لا طاقة له بهم، لاطفهم وصاهرهم واستعان بهم، وقد تقدّم ذكر ذلك .

ذكر ما فعله طغرلبك بخراسان

في هذه السنة دخل ركن الدين أبو طالب طغرلبك محمد بن ميكائيل بن سلجوق مدينة نيسابور مالكاً لها .

وكان سبب ذلك أن الغزّ السلجقية لما ظهروا بخراسان أفسدوا، ونهبوا، وخرّبوا البلاد، وسبوا، على ما ذكرناه، وسمع الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين الخبر، فسيّر إليهم حاجبه سباشي في ثلاثين ألف مقاتل، فسار إليهم (٤٥٨/٩) من غزنة، فلما بلغ خراسان ثقّل على ما سلم من البلاد بالإقامات، فخرّب السالم من تخريب الغزّ، فأقام مدة سنة على المدافعة والمطاولة، لكنه كان يتبع أثرهم إذا بعدوا، ويرجع عنهم إذا أقبلوا استعمالاً للمحاجزة، وإشفاقاً من المحاربة، حتى إذا كان في هذه السنة، وهو بقرية بظاهر سَرْخَس، والغزّ بظاهر مَرو مع طغرلبك، وقد بلغهم خبره، أسروا إليه وقاتلوه يوم وصلوا، فلما جنّهم الليل أخذ سباشي ما خفّ من مال وهرب في خواصّه، وترك خيمه ونيرانه على حالها، قيل فعل ذلك مواطأة للغز على الهزيمة، فلما أسفر الصبح عرف الباقون من عسكره خبره، فانهزموا، واستولى الغز على ما وجدوه في معسكرهم من سوادهم، وقتلوا من الهنود الذين تخلّفوا مقتلة عظيمة .

وأسرى داود أخو طغرلبك، وهو والد السلطان ألب أرسلان، إلى نَيسابور، وسمع أبو سهل الحمدوني ومن معه بها، ففارقوها، ووصل داود ومن معه إليها، فدخلوها بغير قتال، ولم يغيّروا شيئا من أمورها، ووصل بعدهم طغرلبك ثم وصلت إليهم رسل الخليفة في ذلك الوقت، وكان قد أرسل إليهم وإلى الذين بالرّيّ وهَمَذان وبلد الجبل ينهاهم عن النهب والقتل والإخراب، ويعظهم، فأكرموا الرسل، وعظّموهم، وخدموهم .

وخاطب داود طغرلبك في نهب البلد، فمنعه فامتنع واحتجّ بشهر رمضان، فلما انسلخ رمضان صمّم داود على نهبه، فمنعه طغرلبك، واحتجّ عليه برسل الخليفة وكتابه، فلم يلتفت داود إليه، وقوي عزمه على النهب، فأخرج طغرلبك سكّيناً وقال له : واللّه لئن نهبت شيئا لأقتلنّ نفسي ! فكفّ عن ذلك، وعدل إلى التقسيط، فقسّط على أهل نَيسابور نحو ثلاثين ألف دينار، وفرّقها في أصحابه. (٤٥٩/٩)

وأقام طغرلبك بدار الإمارة، وجلس على سرير الملك مسعود، وصار يقعد للمظالم يومَيْن في الأسبوع على قاعدة ولاة خراسان، وسيّر أخاه داود إلى سرخس فملكها، ثم استولوا على سائر بلاد خراسان سوى بلخ، وكانوا يخطبون للملك مسعود على سبيل المغالطة . وكانوا ثلاثة إخوة : طغرلبك، وداود، وبيغو، وكان يَنّال،

واسمه إبراهيم، أخا طغرلبك وداود لأمهما، ثم خرج مسعود من غزنة وكان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر مخاطبة جلال الدولة بملك الملوك

في هذه السنة سأل جلال الدولة الخليفة القائم بأمر اللّه ليخاطَب بملك الملوك، فامتنع، ثم أجاب إليه إذا أفتى الفقهاء بجوازه، فكتب فتوى إلى الفقهاء في ذلك، فأفتى القاضي أبو الطيب الطبريّ، والقاضي أبو عبد اللّه الصَّيمريّ، والقاضي ابن البيضاويّ، وأبو القاسم الكرخيّ بجوازه، وامتنع منه قاضي القضاة أبو الحسن الماورديّ، وجرى بينه وبين من أفتى بجوازه مراجعات، وخُطب لجلال الدولة بملك الملوك.

وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة، وكان يتردد إلى دار المملكة كلّ يوم،فلماّ أفتى بهذه الفتْيا انقطع ولزم بيته خائفًا، وأقام منقطعاً من شهر رمضان إلى يوم عيد النحر، فاستدعاه جلال الدولة، فحضر خائفاً، فأدخله وحده وقال له:قد علم كلّ أحد أنّك من أكثر الفقهاء مالاً،وجاهاً، وقرباً منّا، وقد خالفتَهم فيما خالف هواي، ولم تفعل ذلك إلاّ لعدم المحاباة منك، واتّباع الحقّ، وقد بان لي موضعك من الدين، ومكانك من العلم، (٤٦٠/٩) وجعلت جزاء ذلك إكرامك بأن أدخلتك إليّ وحدك، وجعلتُ إذن الحاضرين إليك، ليتحقّقوا عودي إليّ ما تحبّ. فشكره ودعا له، وأذن لكلّ من حضر بالخدمة والانصراف.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قُتل شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس، صاحب حلب، قتله الدزبريُّ وعساكر مصر، وملكوا حلب.

وفيها أنكر العلماء على أبي يعلى الفرّاء الحنبلي ما ضمنه كتابه من صفات اللّه تعالى، سبحانه وتعالى، المُشعرة بأنّه يعتقد التجسُّم،وحضر أبو الحسن القزوينيُّ الزاهد بجامع المنصور، وتكلّم في ذلك، تعالى اللّه عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً.

وفيها صالح بن وثّاب النُّميريُّ، صاحب حرّان، الروم الذين بالرُّها لعجزه عنهم، وسلّم إليهم الرُّها، وكان تسلّمه على ما ذكرناه أولاً، فنزلوا من الحصن الذي للبلد إليه، وكثر الروم بها، وخاف المسلمون على حرّان منهم، وعمّر الروم الرُّها العمارة الحسنة وحصّنها.

وفيها هادن المستنصر باللّه الخليفة العلويُّ، صاحب مصر، ملك الروم، وشرط عليه إطلاق خمسة آلاف أسير، وشرط الروم عليه أن يعمروا بيعة قُمامة، فأرسل الملك إليها من عمرها، وأخرج عليها مالاً جليلاً.

وفي هذه السنة سارت عساكر المعزّ بن باديس بإفريقية إلى بلد الزاب،(٤٦١/٩) ففتحوا مدينة تسمى بورس، وقتلوا من البربر خلقاً كثيراً، وفتح من بلاد زناتة قلعة تسمى كروم.

وفيها توفيّ إسحاق بن إبراهيم بن مخلد أبو الفضل المعروف بابن الباقرحي في ربيع الآخر. (٤٦٢/٩)

سنة ثلاثين وأربعمائة

ذكر وصول الملك مسعود من غزنة إلى خراسان وإجلاء السلجقيّة عنها

في صفر من هذه السنة وصل الملك مسعود إلى بلخ من غزنة، وزوّج ابنه من ابنة بعض ملوك الخانيّة، كان يتّقي جانبه، وأقطع خوارزم لشاه ملك الجنديّ، فسار إليها، وبها خُوارزمشاه إسماعيل بن التونتاش، فتجمع أصحابه، ولقي شاه ملك وقاتله، ودامت الحرب بينهما مدّة شهر، وانهزم إسماعيل، والتجأ إلى طغرلبك وأخيه داود السلجقيّة، وملك شاه ملك خُوارزم.

وكان مسير مسعود من غزنة أوّل سنة ثمان وعشرين[وأربعمائة]؛ وسبب خروجه ما وصل إليه من أخبار الغُزّ، وما فعلوه بالبلاد وأهلها من الإخراب والقتل والسبي والاستيلاء، وأقام ببلخ حتّى أراح واستراح، وفرغ من أمر خُوارزم والخانية، ثمّ أمدّ سباشي الحاجب بعسكر ليتقوّى بهم ويهتمّ بأمر الغُزّ واستئصالهم، فلم يكن عنده من الكفاية ما يقهرهم بل أخلد إلى المطاولة التي هي عادته.

وسار مسعود بن سبكتكين من بلخ بنفسه، وقصد سَرْخَس، فتجنّب(٤٦٣/٩) الغُزّ لقاءه، وعدلوا إلى المراوغة والمخاتلة، وأظهروا العزم على دخول المفازة التي بين مرو وخُوارزم، فبينما عساكر مسعود تتبعهم وتطلبهم إذ لقوا طائفة منهم، فقاتلوهم وظفروا بهم وقتلوا منهم.

ثم إنّه واقعهم بنفسه، في شعبان من هذه السنة، وقعة استظهر [فيها] عليهم، فأبعدوا عنه، ثم عاودوا القرب منه بنواحي مرو، فواقعهم وقعة أخرى قُتل منهم [فيها] نحو ألف وخمسمائة قتيل، وهرب الباقون فدخلوا البرّيّة التي يحتمون بها.

وثار أهل نيسابور بمن عندهم منهم، فقتلوا بعضاً، وانهزم الباقون إلى أصحابهم بالبرّيّة. وعدل مسعود إلى هَراة يتأهّب في العساكر للمسير خلفهم وطلبهم أين كانوا، فعاد طغرلبك إلى الأطراف النائية عن مسعود، فنهبها وأثخن فيها، وكان الناس قد تراجعوا، فملؤوا أيديهم من الغنائم، فحينئذٍ سار مسعود يطلبه، فلمّا قاربه انزاح طغرلبك من بين يديه إلى أُستوا وأقام بها، وكان الزمان شتاء، ظنّاً منه أنّ الثلج والبرد يمنع عنه، فطلبه مسعود إليها، ففارقه

طغرلبك وسلك الطريق على طُوس، واحتمى بجبال منيعة، ومضايق صعبة المسلك، فسيّر مسعود في طلبه وزيرَه أحمد بن محمّد بن عبد الصمد في عساكر كثيرة، فطوى المراحل إليه جريدةً، فلمّا رأى طغرلبك قربه منه فارق مكانه إلى نواحي أبيوَرْد.

وكان مسعود قد سار عن جهة إن أرادها، فلقي طغرلبك مقدّمته، فواقعهم فانتصروا عليه، واستأمن من أصحابه جماعة كثيرة، ورأى الطلب له من كلّ جانب، فعاود دخول المفازة إلى خُوارزم وأوغل فيها.

فلمّا فارق الغُزُّ خُراسان قصد مسعود جبلاً من جبال طُوس منيعاً لا(٤٦٤/٩) يُرام، وكان أهله قد وافقوا الغُزّ وأفسدوا معهم، فلمّا فارق الغُزّ تلك البلاد تحصّن هؤلاء بجبلهم ثقة منهم بحصانته وامتناعه، فسرى مسعود إليهم جريدة، فلم يرعهم إلاّ وقد خالطهم، فتركوا أهلهم وأموالهم وصعدوا إلى قُلّة الجبل واعتصموا بها وامتنعوا، وغنم عسكر مسعود أموالهم وما ادّخروه.

ثم أمر مسعود أصحابه أن يزحفوا إليهم في قُلّة الجبل، وباشر هو القتال بنفسه، فزحف الناس إليهم، وقاتلوهم قتالاً لم يروا مثله، وكان الزمان شتاء، والثلج على الجبل كثيراً، فهلك من العسكر في مخارم الجبل وشعابه كثير، ثم إنّهم ظفروا بأهله وأكثروا فيهم القتل والأسر وفرغوا منهم وأراحوا المسلمين من شرّهم.

وسار مسعود إلى نيسابور في جمادى الأولى سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، ليريح ويستريح، وينتظر الربيع ليسير خلف الغُزّ، ويطلبهم في المفاوز التي احتموا بها. وكانت هذه الوقعة، وإجلاء الغُزّ عن خراسان، سنة إحدى وثلاثين، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر ملك أبي الشّوك مدينة خُولنجان

كان حسام الدولة أبو الشّوك قد فتح قَرميسِين من أعمال الجبل، وقبض على صاحبها، وهو من الأكراد القوهيّة، فسار أخوه إلى قلعة أرنبة، فاعتصم بها من أبي الشوك، وجعل أصحابه في مدينة خُولنجان يحفظونها منه أيضاً.(٤٦٥/٩)

فلمّا كان الآن سيّر أبو الشوك عسكراً إلى خُولنجان فحصروها فلم يظفروا منها بشيء، فأمر العسكر فعاد فأمِن من في البلد بعود العسكر عنه.

ثم جهّز عسكراً آخر جريدة لم يعلم بهم أحد، وسيّرهم ليومهم، وأمرهم بنهب ربض قلعة أرنبة، وقتْل من ظفروا به والإتمام لوقتهم إلى خُولنجان ليسبقوا خبرهم إليها، ففعلوا ذلك، ووصلوا إليها ومن بها غير متأهّبين، فاقتتلوا شيئاً من قتال، ثم استسلم من بالمدينة إليهم فتسلّموها، وتحصّن من كان بها من الأجناد في قلعة في وسط البلد، فحصرها أصحاب أبي الشوك، فملكوها في ذي القعدة من هذه السنة.

ذكر الخطبة العبّاسيّة بحرّان والرَّقّة

في هذه السنة خطب شبيب بن وثّاب النُّميريّ،صاحب حرّان والرَّقّة، للإمام القائم بأمر اللّه، وقطع خطبة المستنصر باللّه العلويّ.

وكان سببها أنّ نصر الدولة بن مروان كان قد بلغه عن الدزبريّ نائب العلويّين بالشام أنّه يتهدّده، ويريد قصد بلاده، فراسل قرواشاً، صاحب الموصل، وطلب منه عسكراً، وراسل شبيباً النميريّ يدعوه إلى الموافقة، ويحذّره من المغاربة، فأجابه إلى ذلك، وقطع الخطبة العلويّة، وأقام الخطبة العبّاسيّة، فأرسل إليه الدزبريّ يتهدّده، ثم أعاد الخطبة العلويّة بحرّان في ذي الحجّة من السنة.(٤٦٦/٩)

ذكر عدّة حوادث

فيها توفّي مؤيّد الملك أبو عليّ الحسين بن الحسن الرُّخَّجيّ، وكان وزيراً لملوك بني بويه، ثم ترك الوزارة، وكان في عطلته يتقدّم على الوزراء.

وفيها أيضاً توفّيَ أبو الفتوح الحسن بن جعفر العلويّ أمير مكّة.

وفيها توفّي الوزير أبو القاسم بن ماكولا محبوساً بهَيت، وكان مقامه في الحبس سنتَيْن وخمسة أشهر، ومولده سنة خمس وستّين وثلاثمائة، وكان وزير جلال الدولة، وهو والد الأمير أبي نصر، مصنّف كتاب الإكمال في المؤتلف والمختلف، وكان جلال الدولة سلّمه إلى قرواش، فحبسه بهيت.

وفيها سقط الثلج ببغداد لستّ بقين من ربيع الأوّل، فارتفع على الأرض شبراً، ورماه الناس عن السطوح إلى الشوارع، وجمد الماء ستة أيّام متوالية، وكان أوّل ذلك الثالث والعشرين من كانون الثاني.

وتوفّي هذه السنة أبو نعيم أحمد بن عبد اللّه بن أحمد بن إسحاق الأصبهانيّ الحافظ وأبو الرضا الفضل بن منصور بن الظريف الفارقيّ، الأمير الشاعر، له ديوان حسن، وشعر جيّد، فمنه:

ومخطف الخصر مطبوع على صلفٍ ... عشقته، ودواعي البين تعشقه
وكيف أطمع منه في مُواصلةٍ ... وكلّ يوم لنا شمل يفرّقه
وقد تسامح قلبي في مواصلتي ... على السُّلوّ ولكن من يُصدّقه
أهابُهُ، وهو طلقُ الوجهِ مُبتسمٌ ... وكيف يُطمعني في السيف رونقه

(٤٦٧/٩)

سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة

في هذه السنة فتح الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين قلعة بخراسان كانت بيد الغُزّ، وقتل فيها جماعة منهم، وكانت بينه وبينهم وقعات أجلت عن فراقهم خراسان إلى البرّية، وقد ذكرناه سنة ثلاثين [وأربعمائة] .

ذكر ملك الملك أبي كاليجار البصرة

في هذه السنة سير الملك أبو كاليجار عساكره مع العادل أبي منصور بن مافنّة إلى البصرة، فملكها في صفر، وكانت بيد الظهير أبي القاسم، وقد ذكرنا أنه وليها بعد بختيار، وأنه عصى على أبي كاليجار، وكان يترك محاقّته، ومعارضته فيما يفعله، ويضمن الظهير أن يحمل إلى أبي كاليجار كل سنة سبعين ألف دينار، وكثرت أمواله، ودامت أيامه، وثبت قدمه، وطار اسمه .

واتفق أنه تعرض إلى أملاك أبي الحسن بن أبي القاسم بن مُكرم، صاحب عُمان، وأمواله، وكاتب أبو الحسن الملك أبا كاليجار، وبذل له زيادة ثلاثين (٤٦٨/٩) ألف دينار في ضمان البصرة كل سنة، وجرى الحديث في قصد البصرة، فصادف قلباً موغراً من الظهير، فحصلت الإجابة، وجهّز الملك العساكر مع العادل أبي منصور، فسار إليها وحصرها.

وسارت العساكر من عُمان أيضاً في البحر وحُصرت البصرة ومُلكت، وأُخذ الظهير وقُبض عليه، وأُخذ جميع ماله، وقُرّر عليه مائة ألف وعشرة آلاف دينار، يحملها في أحد عشر يوماً، بعد تسعين ألف دينار أُخذت منه قبلها، ووصل الملك أبو كاليجار إلى البصرة، فأقام بها، ثم عاد إلى الأهواز، وجعل ولده عز الملوك فيها، ومعه الوزير أبو الفرج بن فسانجس، ولما سار أبو كاليجار عن البصرة أخذ معه الظهير إلى الأهواز .

ذكر ما جرى بعُمان بعد موت أبي القاسم بن مُكرَم

لما توفي أبو القاسم بن مكرم خلّف أربعة بنين : أبو الجيش، والمهذّب، وأبو محمد، وآخر صغير، فوليَ بعده ابنه أبو الجيش، وأقرّ علي بن هطال المنوجانيّ، صاحب جيش أبيه، على قاعدته، وأكرمه،وبالغ في احترامه، فكان إذا جاء إليه قام له، فأنكر هذه الحال عليه أخوه المهذّب، فطعن على ابن هطال، وبلغه ذلك، فأضمر له سوءاً، واستأذن أبا الجيش في أن يحضر أخاه المهذّب لدعوة عملها له، فأذن له في ذلك، فلما حضر المهذّب عنده خدمه، وبالغ في خدمته، فلما أكل وشرب وانتشى، وعمل السُّكر فيه، قال له (٤٦٩/٩)ابن هطال : إن أخاك أبا الجيش فيه ضعف، وعجز عن الأمر، والرأي أننا نقوم معك، وتصير أنت الأمير ؛ وخدعه، فمال إلى هذا الحديث، فأخذ ابن هطال خطّه بما يفوّض إليه، وبما يعطيه من الأعمال إذا عمل معه هذا الأمر . فلما كان الغد حضر ابن هطال عند أبي الجيش، وقال له : إنّ أخاك كان قد أفسد كثيراً من أصحابك، وتحدّث معي، واستمالني فلم أوافقه، فلهذا كان يذمّني، ويقع فيّ، وهذا خطه بما استقر هذه الليلة . فلما رأى خطّ أخيه أمره بالقبض عليه، ففعل ذلك واعتقله، ثم وضع عليه من خنقه وألقى جثّته إلى منخفض من الأرض، وأظهر أنه سقط فمات .

ثم توفي أبو الجيش بعد ذلك بيسير، وأراد ابن هطال أن يأخذ أخاه أبا محمد فيولّيه عُمان ثم يقتله، فلم تخرجه إليه والدته، وقالت له : أنت تتولّى الأمور، وهذا صغير لا يصلح لها . ففعل ذلك، وأساء السيرة، وصادر التجار، وأخذ الأموال .

وبلغ ما كان منه مع بني مُكرَم إلى الملك أبي كاليجار، والعادل أبي منصور بن مافنّة، فأعظما الأمر واستكبراه، وشدّ العادل في الأمر، وكاتب نائباً كان لأبي القاسم بن مكرم بجبال عُمان يقال له المرتضى، وأمره بقصد ابن هطال، وجهز العساكر من البصرة لتسير إلى مساعدة المرتضى، فجمع المرتضى الخلق، وتسارعوا إليه، وخرجوا عن طاعة ابن هطال، وضعف أمره، واستولى المرتضى على أكثر البلاد، ثم وضعوا خادما كان لابن مكرم، وقد التحق بابن هطال، على قتله، وساعده على ذلك فرّاش كان له، فلما سمع العادل بقتله سيّر إلى عُمان من أخرج أبا محمد بن مكرم، ورتّبه في الإمارة، وكان قد استقر أن الأمر لأبي محمد في هذه السنة .(٤٧٠/٩)

ذكر الحرب بين أبي الفتح بن أبي الشوك وبين عمّه مهلهل

في هذه السنة كان بين أبي الفتح بن أبي الشوك وبين عمه مُهلهل حرب شديدة .

وكان سبب ذلك أن أبا الفتح كان نائباً عن والده في الدِّينور، وقد عظم محلّه، وافتتح عدة قلاع، وحمى أعماله من الغز، وقتل فيه، فأُعجب بنفسه، وصار لا يقبل أمر والده.

فلما كان هذه السنة، في شعبان، سار إلى قلعة بُلوار ليفتحها، وكان فيها زوجة صاحبها، وكان من الأكراد، فعلمت أنها تعجز عن حفظها، فراسلت مهلهل بن محمد بن عنّاز، وهو بحلله في نواحي الصامغان، واستدعته لتسلم إليه القلعة، فسأل الرسول عن أبي الفتح : هل هو بنفسه على القلعة أم عسكره ؟ فأخبره أنه عاد إلى القلعة، فقصد موضعاً يوهم أبا الفتح أنه لم يرد هذه القلعة، ثم رجع عائداً، وتبعه أبو الفتح ولحقه وتراءت الفئتان، فعاد مهلهل إليه، فاقتتلوا، فرأى أبو الفتح من أصحابه تغيّراً، فخافهم، فولّى منهزماً، وتبعه أصحابه في الهزيمة، وقتل عسكر مهلهل من كان في عسكر أبي الفتح من الرّجّالة، وساروا في أثر المنهزمين يقتلون

ويأسرون، ووقف فرس أبي الفتح به فأُسر وأحضر عند عمه مهلهل، فضربه عدة مقارع، وقيّده، وحبسه عنده وعاد .(٤٧١/٩)

ثم إن أبا الشوك جمع عساكره وسار إلى شهرزور وحصرها، وقصد بلاد أخيه ليخلص ابنه أبا الفتح، فطال الأمر ولم يخلص ابنه، وحمل مهلهل اللجاج على أن استدعى علاء الدولة بن كاكويه إلى بلد أبي الفتح، فدخل الدّينور وقَرميسين، وأساء إلى أهلها وظلمهم وملكها، وكان ذلك سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة .

ذكر شغب الأتراك على جلال الدولة ببغداد

في هذه السنة شغب الأتراك على الملك جلال الدولة ببغداد، وأخرجوا خيامهم إلى ظاهر البلد، ثم أوقعوا النهب في عدة مواضع، فخافهم جلال الدولة، فعبّر خيامه إلى الجانب الغربي، وترددت الرسل بينهم في الصلح، وأراد الرحيل عن بغداد، فمنعه أصحابه، فراسل دبيس بن مزيد، قرواشاً، صاحب الموصل، وغيرهما، وجمع عنده العساكر فاستقرت القواعد بينهم، وعاد إلى داره، وطمع الأتراك، وآذوا الناس، ونهبوا وقتلوا، وفسدت الأمور بالكلية إلى حد لا يرجى صلاحه .

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، وُلد للخليفة بأمر اللّه ولده أبو العباس، وهو ذخيرة الدين . (٤٧٢/٩)

وفيها توفي شبيب بن وثاب النميري، صاحب الرّقة وسَروج وحرّان .

وفيها توفي أبو نصر بن مُشكان، كاتب الإنشاء لمحمود بن سبكتكين ولولده مسعود، وكان من الكتّاب المفلِقين، رأيتُ له كتابة في غاية الجودة . (٤٧٣/٩)

سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة

ذكر ابتداء الدولة السلجوقية وسياقة أخبارهم متتابعة

في هذه السنة اشتد ملك السلطان طغرلبك محمد وأخيه جغري بك داود ابنَيْ ميكائيل بن سلجوق بن تُقاق، فنذكر أوّلاً حال آبائه، ثم نذكر حاله كيف تنقّلت حتى صار سلطاناً، على أنني قد ذكرتُ أكثر أخبارهم متقدمة على السنين، وإنما أوردناها هاهنا مجموعة لترد سياقاً واحداً، فهي أحسن، فأقول :

فأما تُقاق فمعناه القوس الجديد،وكان شهماً، ذا رأي وتدبير، وكان مقدم الأتراك الغزّ، ومرجعهم إليه، لا يخالفون له قولاً، ولا يتعدّون أمراً . فاتفق يوماً من الأيام أن ملك الترك الذي يقال له بَيْغُو جمع عساكره، وأراد المسير إلى بلاد الإسلام، فنهاه تقاق عن ذلك، وطال الخطاب بينهما فيه، فأغلظ له ملك الترك الكلام، فلطمه تقاق فشجّ رأسه، فأحاط به خدم ملك الترك، وأرادوا أخذه، فمانعهم وقاتلهم، واجتمع معه من أصحابه من منعه، فتفرّقوا عنه، ثم صلح الأمر بينهما، وأقام تقاق عنده، وولد له سلجوق. (٤٧٤/٩)

وأما سلجوق فإنه لما كبر ظهرت عليه أمارات النجابة، ومخايل التقدم،فقربه ملك الترك وقدّمه، ولقّبه سُباشي، ومعناه الجيش، وكانت امرأة الملك تخوّفه من سلجوق لما ترى من تقدمه، وطاعة الناس له، والانقياد إليه، وأغرته بقتله، وبالغت في ذلك .

وسمع سلجوق الخبر، فسار بجماعته كلّهم ومَن يطيعه من دار الحرب إلى ديار الإسلام، وسعد بالإيمان ومجاورة المسلمين، وازداد حاله علوّاً، وإمرة، وطاعة، وأقام بنواحي جَنَد، وأدام غزو كفار الترك،وكان ملكهم يأخذ الخراج من المسلمين في تلك الديار، وطرد سلجوق عمّاله منها وصفت للمسلمين .

ثم إن بعض ملوك السامانيّة كان هارون بن ايلك الخان قد استولى على بعض أطراف بلاده، فأرسل إلى سلجوق يستمدّه، فأمدّه بابنه أرسلان في جمع من أصحابه، فقوي بهم السامانيّ على هارون، واسترد ما أخذه منه، وعاد أرسلان إلى أبيه .

وكان لسلجوق من الأولاد : أرسلان، وميكائيل، وموسى، وتوفي سلجوق بجَند، وكان عمره مائة سنة وسبع سنين، ودُفن هناك، وبقي أولاده، فغزا ميكائيل بعض بلاد الكفار الأتراك، فقاتل، وباشر القتال بنفسه، فاستشهد في سبيل اللّه، وخلّف من الأولاد : بَيْغو، وطغرلبك محمداً، وجَغْري بك داود، فأطاعهم عشائرهم، ووقفوا عند أمرهم ونهيهم، ونزلوا بالقرب من بخارى على عشرين فرسخاً منها، فخافهم أمير بخارى فأساء جوارهم، وأراد إهلاكهم والإيقاع بهم، فالتجؤوا إلى بُغراخان ملك تركستان، وأقاموا في (٤٧٥/٩) بلاده، واحتموا به وامتنعوا، واستقر الأمر بين طغرلبك وأخيه داود أنهما لا يجتمعان عند بغراخان، إنما يحضر عنده أحدهما، ويقيم الآخر في أهله خوفاً من مكر يمكره بهم، فبقوا كذلك.

ثم إن بغراخان اجتهد في اجتماعهما عنده، فلم يفعلا، فقبض على طغرلبك وأسره، فسار داود في عشائره ومن يتبعه، وقصد بغراخان ليخلّص أخاه، فأنفذ إليه بغراخان عسكراً، فاقتتلوا، فانهزم عسكر بغراخان وكثر القتل فيهم، وخلّص أخاه من الأسر، وانصرفوا إلى جَند، وهي قريب بخارى، فأقاموا هناك .

فلما انقرضت دولة السامانية وملك ايلك الخان بخارى عظم محل أرسلان بن سلجوق عم داود وطغرلبك بما وراء النهر، وكان

علي تكين في حبس أرسلان خان، فهرب، وهو أخو ايلك الخان، ولحق ببخارى واستولى عليها، واتفق مع أرسلان بن سلجوق فامتنعا، واستفحل أمرهما، وقصدهما ايلك أخو أرسلان خان، وقاتلهما فهزماه وبقيا ببخارى.

وكان علي تكين يكثر معارضة يمين الدولة محمود بن سبكتكين فيما يجاوره في بلاده، ويقطع الطريق على رسله المترددين إلى ملوك الترك، فلما عبر محمود جَيحون، على ما ذكرناه، هرب علي تكين من بخارى، وأما أرسلان بن سلجوق وجماعته فإنهم دخلوا المفازة والرمل، فاحتموا من محمود، فرأى محمود قوّة السلجوقية، وما لهم من الشوكة وكثرة العدد، فكاتب أرسلان بن سلجوق واستماله ورغّبه، فورد إليه، فقبض يمين الدولة عليه في الحال، ولم يمهله، وسجنه في قلعة، ونهب خركاهاته، واستشار فيما يفعل بأهله وعشيرته، فأشار أرسلان الجاذب، وهو من أكبر خواص محمود، بأن يقطع أباهمهم (٤٧٦/٩) لئلاّ يرموا بالنّشّاب، أو يُغرّقوا في جَيحون، فقال له : ما أنت إلا قاسي القلب ! ثم أمر بهم فعبروا نهر جَيحون، ففرّقهم في نواحي خراسان، ووضع عليهم الخراج، فجار العمّال عليهم، وامتدّت الأيدي إلى أموالهم وأولادهم، فانفصل منهم أكثر من ألفَيْ رجل، وساروا إلى كرمان، ومنها إلى أصبهان، وجرى بينهم وبين صاحبها علاء الدولة بن كاكويه حرب قد ذكرناها، فساروا من أصبهان إلى أذربيجان ؛ هؤلاء جماعة أرسلان .

فأما أولاد إخوته فإن علي تكين صاحب بخارى أعمل الحيل في الظفر بهم، فأرسل إلى يوسف بن موسى بن سلجوق، وهو ابن عم طغرلبك محمد وجغري بك داود، ووعده الإحسان، وبالغ في استمالته، وطلب منه الحضور عنده، ففعل، ففوّض إليه علي تكين التقدّم على جميع الأتراك الذين في ولايته، وأقطعه أقطاعاً كثيرة، ولُقّب بالأمير اينانج بَيْغو .

وكان الباعث له على ما فعله به أن يستعين به وبعشيرته وأصحابه على طغرلبك وداود ابنيْ عمّه، ويفرّق كلمتهم، ويضرب بعضهم ببعض، فعلموا مراده، فلم يُطِعه يوسف إلى شيء مما أراده منه، فلما رأى علي تكين أن مكره لم يعمل في يوسف، ولم يبلغ به غرضاً، أمر بقتله، فقتل يوسف، تولّى قتله أمير من أمراء علي تكين اسمه ألب قرا . فلما قُتل عظم ذلك على طغرلبك وأخيه داود وجميع عشائرهما، ولبسوا ثياب الحِداد، وجمعا من الأتراك من قدرا على جمعه للأخذ بثأره، وجمع علي تكين أيضاً جيوشه، وسيّرها إليهم، فانهزم عسكر علي تكين، وكان قد ولد السلطان ألب أرسلان بن داود أوّل محرّم سنة عشرين وأربعمائة قبل الحرب، فتبرّكوا (٤٧٧/٩) به وتيمّنوا بطلعته، وقيل في مولده غير ذلك .

فلما كان سنة إحدى وعشرين [وأربعمائة] قصد طغرلبك وداود ألب قرا الذي قتل يوسف ابن عمهما، فقتلاه، وأوقعا بطائفة من عسكر علي تكين، فقتلا منها نحو ألف رجل، فجمع علي تكين عسكره وقصدهم هو وأولاده ومَن حمل السلاح من أصحابه، وتبعهم من أهل البلاد خلق كثير، فقصدوهم من كل جانب، وأوقعوا بهم وقعة عظيمة قُتل [فيها] كثير من عساكر السلجوقية، وأُخذت أموالهم وأولادهم، وسبوا كثيراً من نسائهم وذراريهم، فالجأتهم الضرورة إلى العبور إلى خراسان .

فلما عبروا جيحون كتب إليهم، خوارزمشاه هارون بن التونتاش يستدعيهم ليتّفقوا معه، وتكون أيديهم واحدة . فسار طغرلبك وأخوه داود وبيغو إليه،وخيّموا بظاهر خوارزم سنة ست وعشرين [وأربعمائة] ووثقوا به واطمأنوا إليه، فغدر بهم، فوضع عليهم الأمير شاهملك، فكبسهم، ومعه عسكر من هارون، فأكثر القتل فيهم والنهب والسبي، وارتكب من الغدر خطّة شنيعة، فساروا عن خوارزم بجموعهم إلى مفازة نَسَا، وقصدوا مرو في هذه السنة أيضاً، ولم يتعرضوا لأحد بشرّ، وبقي أولادهم وذراريهم في الأسر .

وكان الملك مسعود بن محمود بن سبكتكين هذه السنة بطبرستان قد ملكها، كما ذكرناه، فراسلوه وطلبوا منه الأمان، وضمنوا أنهم يقصدون الطائفة التي تفسد في بلاده، ويدفعونهم عنها، ويقاتلونهم، ويكونون من أعظم أعوانه عليهم وعلى غيرهم . فقبض على الرسل وجهز عسكراً جرّاراً إليهم مع ايلتُغْدي حاجبه، وغيرهم من الأمراء الأكابر، فساروا إليهم، والتقوا عند نَسَا في شعبان من السنة، واقتتلوا، وعظم الأمر، وانهزم السلجوقية، وغُنمت (٤٧٨/٩) أموالهم، فجرى بين عسكر مسعود منازعة في الغنيمة أدّت إلى القتال .

واتفق في تلك الحال أن السلجوقية لما انهزموا قال لهم داود : إن العسكر الآن قد نزلوا، واطمأنوا، وأمنوا الطلب، والرأي أن نقصدهم لعلنا نبلغ منهم غرضاً. فعادوا فوصلوا إليهم وهم على تلك الحال من الاختلاف، فتال بعضهم بعضاً، فأوقعوا بهم، وقتلوا منهم وأسروا، واستردوا ما أخذوا من أموالهم ورجالهم، وعاد المنهزمون من العسكر إلى الملك مسعود، وهو بنيسابور، فندم على ردّه طاعتهم، وعلم أن هيبتهم قد تمكنت من قلوب عساكره،وأنهم قد طمعوا بهذه الهزيمة، وتجرّؤوا على قتال العساكر السلطانية بعد الخوف الشديد، وخاف من أخوات هذه الحادثة، فأرسل إليهم يتهددهم ويتوعّدهم، فقال طغرلبك لإمام صلاته: اكتب إلى السلطان ﴿قُلِ اللهمّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ، بِيَدِكَ الخَيْرُ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾؛ ولا تزد على هذا .

فكتب ما قال، فلما ورد الكتاب على مسعود أمر فكُتب إليهم كتاب مملوء من المواعيد الجميلة، وسيّر معه الخِلع النفيسة، وأمرهم بالرحيل إلى آمل الشطّ، وهي مدينة على جيحون، ونهاهم عن الشر والفساد، وأقطع دِهِستان لداود، ونَسَا لطغرلبك، وفراوة لبَيْغو، ولقّب كل واحد منهم بالدهقان، فاستخفوا بالرسول والخلع، وقالوا للرسول : لو علمنا أن السلطان يبقي علينا، إذا قدر، لأطعناه، ولكنا نعلم أنه متى ظفر بنا أهلكنا لما عملناه وأسلفناه، فنحن لا نطيعه، ولا نثق به . وأفسدوا، ثم كفّوا، وتركوا ذلك، فقالوا : إن كان لنا قدرة على الانتصاف من السلطان وإلاّ فلا حاجة بنا إلى إهلاك العالم، ونهب أموالهم؛ وأرسلوا إلى مسعود يخادعونه بإظهار الطاعة له، والكفّ عن (٤٧٩/٩) الشر، ويسألونه أن يطلق عمهم أرسلان بن سلجوق من الحبس، فأجابهم إلى ذلك، فأحضره عنده ببلخ، وأمره بمراسلة بني أخيه بَيْغو، وطغرلبك، وداود يأمرهم بالاستقامة، والكف عن الشر، فأرسل إليهم رسولاً يأمرهم بذلك، وأرسل معه إشفى، وأمره بتسليمه إليهم، فلما وصل الرسول وأدّى الرسالة وسلّم إليهم الإشفى نفروا واستوحشوا،وعادوا إلى أمرهم الأول في الغارة والشر، فأعاده مسعود إلى محبسه، وسار إلى غزنة، فقصد السلجوقية بلخ ونيسابور وطوس وجوزّجان، على ما ذكرناه.

وأقام داود بمدينة مرو، وانهزمت عساكر السلطان مسعود منهم مرة بعد مرة،واستولى الرعب على أصحابه، لاسيّما مع بعده إلى غزنة، فتوالت كتب نوابه وعماله إليه يستغيثون به، ويشكون إليه، ويذكرون ما يفعل السلجوقية في البلاد، وهو لا يجيبهم، ولا يتوجّه إليهم، وأعرض عن خراسان والسلجوقية، واشتغل بأمور بلاد الهند.

فلمّا اشتدّ أمرهم بخراسان وعظمت حالهم اجتمع وزراء مسعود وأرباب الرأي في دولته،وقالوا له: إن قلّة المبالاة بخراسان من أعظم سعادة السلجوقية، وبها يملكون البلاد، ويستقيم لهم الملك، ونحن نعلم وكل عاقل، أنهم إذا تُركوا على هذه الحال استولوا على خراسان سريعاً، ثمّ ساروا منها إلى غزنة، وحينئذٍ لا ينفعنا حركاتنا، ولا نتمكن من البطالة والاشتغال باللعب واللّهو والطرب . فاستيقظ من رقدته، وأبصر رُشده بعد غفلته، وجهّز العساكر الكثيرة مع أكبر أمير عنده يُعرف بسباشي، وكان حاجبه، وقد سيّره قبلُ إلى الغزّ العراقية، وقد تقدم ذكر ذلك، وسيّر معه أميراً كبيراً اسمه مرداويج بن بشو .(٤٨٠/٩)

وكان سباشي جباناً، فأقام بهراة ونيسابور، ثمّ أغار بغتةً على مرو، وبها داود، فسار مجدًّا، فوصل إليها في ثلاثة أيام، فأصاب جيوشه ودوابّه التعب والكلال، فانهزم داود بين يديه، ولحقه العسكر، فحمل عليه صاحب جوزّقان، فقاتله داود، فقُتل صاحب جوزجان، وانهزمت عساكره، فعظم قتله على سباشي وكل من معه، ووقعت عليهم الذلّة، وقويت نفوس السلجوقية، وزاد طمعهم.

وعاد داود إلى مرو، فأحسن السيرة في أهلها، وخُطب له فيها أول جمعة في رجب سنة ثمان وعشرين وأربعمائة، ولُقّب في الخطبة بملك الملوك، وسباشي يمادي الأيام، ويرحل من منزل إلى منزل، والسلجوقية يراوغونه مراوغة الثعلب، فقيل إنه كان يفعل ذلك جُبناً وخوراً، وقيل بل راسله السلجوقية واستمالوه ورغّبوه، فنفّس عنهم، وتراخى في تتبّعهم،واللّه أعلم.

ولمّا طال مقام سباشي وعساكره والسلجوقيّة بخراسان، والبلاد منهوبة، والدماء مسفوكة، قلّت الميرة والأقوات على العساكر خاصّة، فأمّا السلجوقية فلا يبالون بذلك لأنهم يقنعون بالقليل، فاضطرّ سباشي إلى مباشرة الحرب وترك المحاجزة، فسار إلى داود، وتقدم داود إليه، فالتقوا في شعبان سنة ثمان وعشرين[وأربعمائة] على باب سرخس . ولداود منجّم يقال له الصومعيّ، فأشار على داود بالقتال، وضمن له الظفر، وأشهد على نفسه أنّه إن أخطأ فدمه مباح له، فاقتتل العسكران، فلم يثبت عسكر سباشي، وانهزموا أقبح هزيمة، وساروا أخزى مسير إلى هراة، فتبعهم داود وعسكره إلى طوس يأخذونهم باليد، وكفوا عن القتل، وغنموا أموالهم، فكانت هذه الوقعة هي التي ملك(٤٨١/٩) السلجوقيّة بعدها خُراسان، ودخلوا قصبات البلاد، فدخل طغرلبك نَيسابور، وسكن الشاذياخ، وخُطب له فيها في شعبان بالسلطان المعظّم، وفرقوا النوّاب في النواحي.

وسار إلى هراة، ففارقها سباشي ومضى إلى غزنة، فعاتبه مسعود وحجبه،وقال له: ضيّعت العساكر، وطاولت الأيّام، حتى قوي أمر العدو وصفا لهم مشربهم، وتمكنوا من البلاد ما أرادوا . فاعتذر بأن القوم تفرّقوا ثلاث فرق كلّما تبعت فرقة سارت بين يديّ، وخلفي الفريقان في البلاد يفعلون ما أرادوا، فاضطر مسعود إلى المسير إلى خُراسان، فجمع العساكر وفرّق فيهم الأموال العظيمة، وسار عن غزنة في جيوش يضيق بها الفضاء، ومعه من الفيلة عدد كثير، فوصل بلخ، وقصده داود إليها أيضاً، ونزل قريباً منها، فدخلها يوماً جريدة في طائفة يسيرة على حين غفلة من العساكر، فأخذ الفيل الكبير الذي على باب دار الملك مسعود، وأخذ معه عدّة جنائب، فعظم قدره في النفوس، وازداد العسكر هيبة له.

ثم سار مسعود من بلخ أول شهر رمضان سنة تسع وعشرين وأربعمائة، ومعه مائة ألف فارس سوى الأتباع، وسار على جوزّجان، فأخذ واليها الذي كان بها للسلجوقية، فصلبه وسار منها

فوصل إلى مرو الشاهجان، وسار داود إلى سرخس، واجتمع هو وأخواه طغرلبك وبَيْغو،فأرسل مسعود إليهم رسلاً في الصلح، فسار في الجواب بَيْغو، فأكرمه مسعود وخلع عليه، وكان مضمون رسالته: إنّا لا نثق بمصالحتك، بعد ما فعلنا هذه الأفعال التي سخطتَها كل فعل منها موبق مُهلك؛ وآيسوه من الصلح . فسار مسعود من مرو إلى هراة، وقصد داود مرو، فامتنع أهلها عليه، فحصرها سبعة أشهر، ضيّق (٤٨٢/٩) عليهم، وألحّ في قتالهم فملكها .

فلمّا سمع مسعود هذا الخبر سُقط في يده، وسار من هراة إلى نَيسابور، ثمّ منها إلى سرخس، وكلما تبع السلجوقية إلى مكان ساروا منه إلى غيره، ولم يزل كذلك، فأدركهم الشتاء، فأقاموا بنَيسابور ينتظرون الربيع، فلمّا جاء الربيع كان الملك مسعود مشغولاً بلهوه وشربه، فتقضّى الربيع والأمر كذلك، فلما جاء الصيف عاتبه وزراؤه وخصّه على إهماله أمر عدوّه، فسار من نَيسابور إلى مرو يطلب السلجوقية، فدخلوا البريّة، فدخلها وراءهم مرحلتين والعسكر الذي له قد ضجروا من طول سفرهم وبيكارهم، وسئموا الشدّ والترحل، فإنهم كان لهم في السفر نحو ثلاث سنين، بعضها مع سباشي، وبعضها مع الملك مسعود، فلمّا دخل البريّة نزل منزلاً قليل الماء، والحرّ شديد، فلم يكفِ الماء للسلطان وحواشيه .

وكان داود في معظم السلجوقية بإزائه، وغيره من عشيرته مقابل ساقة عساكره، يتخطّفون من تخلّف منهم .فاتفق لما يريده اللّه تعالى أن حواشي مسعود اختصموا هم وجمع من العسكر على الماء وازدحموا، وجرى بينهم فتنة، حتّى صار بعضهم يقاتل بعضاً، وبعضهم نهب بعضاً، فاستوحش لذلك أمر العسكر، ومشى بعضهم إلى بعض في التخلي عن مسعود، فعلم داود ما هم فيه من الاختلاف، فتقدم إليهم وحمل عليهم، وهم في ذلك التنازع، والقتال، والنهب، فولّوا منهزمين لا يلوي أول على آخر، وكثر القتل فيهم، والسلطان مسعود ووزيره يناديانهم، ويأمرانهم بالعود، فلا يرجعون، وتمّت الهزيمة على العسكر، وثبت مسعود، فقيل له: ما تنتظر؟ قد فارقك أصحابك، وأنت في بريّة مُهلكة، وبين يديك عدو، وخلفك عدو، ولا وجه للمقام . فمضى(٤٨٣/٩)منهزماً ومعه نحو مائة فارس، فتبعه فارس من السلجوقية، فعطف عليه مسعود فقتله، وصار لا يقف على شيء، حتى أتى غَرْشستان .

وأمّا السلجوقية فإنهم غنموا من العسكر المسعوديّ ما لا يدخل تحت الإحصاء، وقسمه داود على أصحابه، وآثرهم على نفسه، ونزل في سُرداق مسعود، وقعد على كرسيّه، ولم ينزل عسكره ثلاثة أيام عن ظهور دوابّهم لا يفارقونها إلاّ لما لا بدّ لهم منه من مأكول ومشروب وغير ذلك، خوفاً من عود العسكر، وأطلق الأسرى، وأطلق خراج سنة كاملة.وسار طغرلبك إلى نيسابور، فملكها ودخل إليها آخر سنة إحدى وثلاثين [وأربعمائة] وأوّل سنة اثنتين وثلاثين، ونهب أصحابه الناس، فقيل عنه إنه رأى لَوْزينجاً فأكله وقال : هذا قطماج طيّب،إلا أنه لا ثوم فيه ؛ ورأى الغز الكافور فظنّوه ملحاً، وقالوا : هذا ملح مرّ ؛ ونقل عنهم أشياء من هذا كثير .

وكان العيارون قد عظم ضررهم، واشتد أمرهم، وزادت البلية بهم على أهل نيسابور، فهم ينهبون الأموال، ويقتلون النفوس، ويرتكبون الفروج الحرام، ويفعلون كل ما يريدونه لا يردعهم عن ذلك رادع، ولا يزجرهم زاجر، فلما دخل طغرلبك البلد خافه العيارون، وكفوا عما كانوا يفعلون، وسكن الناس واطمأنوا .

واستولى السلجوقية حينئذ على جميع البلاد، فسار بيغو إلى هراة فدخلها، وسار داود إلى بلخ، وبها التونتاق الحاجب واليا عليها لمسعود، فأرسل إليه داود يطلب منه تسليم البلد إليه، ويعرّفه عجز صاحبه عن نصرته، فسجن (٤٨٤/٩) التونتاق الرسل، فنازله داود، وحصر المدينة، فأرسل التونتاق إلى مسعود، وهو بغزنة، يعرّفه الحال وما هو فيه من ضيق الحصار، فجهّز مسعود العساكر الكثيرة وسيّرها، فجاءت طائفة منهم إلى الرُّخّج، وبها جمع من السلجوقية، فقاتلوهم، فانهزم السلجوقية وقتل منهم ثمانمائة رجل، وأسر كثير، وخلا ذلك الصقع منهم .

وسار طائفة منهم إلى هراة، وبها بيغو،فقاتلوه ودفعوه عنها، ثم إن مسعوداً سيّر ولده مودوداً في عسكر كثير مدداً لهذه العساكر،فقتل مسعود،وهو بخراسان، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى، فساروا عن غزنة سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، فلما قاربوا بلخ سير داود طائفة من عسكره، فأوقعوا بطلائع مودود، فانهزمت الطلائع، وتبعهم عسكر داود، فلما أحس بهم عسكر مودود رجعوا إلى ورائهم، وأقاموا، فلما سمع التونتاق صاحب بلخ الخبر أطاع داود، وسلّم إليه البلد، ووطئ بساطه .

ذكر قبض السلطان مسعود وقتله ومُلك أخيه محمد

قد ذكرنا عود مسعود بن محمود بن سبكتكين إلى غزنة من خراسان، فوصلها في شوال سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، قبض على سباشي وغيره من الأمراء، كما ذكرناه، وأثبت غيرهم، وسيّر ولده مودوداً إلى خراسان في جيش (٤٨٥/٩) كثيف ليمنع السلجوقية عنها، فسار مودود إلى بلخ ليرد عنها داود أخا طغرلبك، وجعل أبوه مسعود معه وزيره أبا نصر أحمد بن محمد بن عبد الصمد يدبّر الأمور، وكان مسيرهم من غزنة في ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين .

وسار مسعود بعدهم بسبعة أيام يريد بلاد الهند ليشتو بها، على

عادة والده، فلما سار أخذ معه أخاه محمداً مسمولاً، واستصحب الخزائن، وكان عازما على الاستنجاد بالهند على قتال السلجوقية ثقة بعهودهم . فلما عبر سَيحون، وهو نهر كبير، نحو دجلة، وعبّر بعض الخزائن اجتمع أنوشتكين البلخيّ وجمع من الغلمان الدارية ونهبوا ما تخلّف من الخزانة، وأقاموا أخاه محمدا ثالث عشر ربيع الآخر، وسلّموا عليه بالإمارة، فامتنع من قبول ذلك، فتهدّدوه وأكرهوه، فأجاب وبقي مسعود فيمن معه من العسكر وحفظ نفسه، فالتقى الجمعان منتصف ربيع الآخر، فاقتتلوا، وعظم الخطب على الطائفتين، ثم انهزم عسكر مسعود، وتحصّن هو في رباط ماريكلة، فحصره أخوه، فامتنع عليه، فقالت له أمه: إنّ مكانك لا يعصمك، ولإن تخرج إليهم بعهد خير من أن يأخذوك قهراً. فخرج إليهم، فقبضوا عليه، فقال له أخوه محمد: و اللّه لا قابلتك على فعلك بي، ولا عاملتك إلاّ بالجميل، فانظر أين تريد أن تقيم حتى أحملك إليه ومعك أولادك وحُرَمك.فاختار قلعة كيكي، فأنفذه إليها محظوظاً، وأمر بإكرامه وصيانته.

وأرسل مسعود إلى أخيه محمّد يطلب منه مالاً ينفقه، فانفذ له خمسمائة درهم، فبكى مسعود وقال: كان بالأمس حكمي على ثلاثة آلاف حمل من(٤٨٦/٩) الخزائن،و اليوم لا أملك الدرهم الفرد. فأعطاه الرسول ألف دينار فقبلها، وكانت سبب سعادة الرسول، لأنه لماّ ملك مودود بن مسعود بالغ في الإحسان إليه.

ثمّ إنّ محمّداً فوّض أمر دولته إلى ولده أحمد، وكان فيه خبط وهوج،فاتّفق هو وابن عمّه يوسف بن سبكتكين وابن عليّ خويشاوند على قتل مسعود ليصفو الملك له ولولده، فدخل إلى أبيه، فطلب خاتمه ليختم به بعض الخزائن،فأعطاه،فسار به إلى القلعة، وأعطوا الخاتم لمستحفظها، وقالوا له معنا رسالة إلى مسعود؛فادخلهم إليه فقتلوه،فلمّا علم محمّد بذلك ساءه، وشقّ عليه، وأنكره.

وقيل إنّ مسعود لمّا حُبس دخل عليه ولدا أخيه محمّد، واسم أحدهما عبد الرحمن، والآخر عبد الرحيم، فمدّ عبد الرحمن يده فأخذ القلنسوة من رأس عمه مسعود، فمدّ عبد الرحيم يده وأخذ القلنسوة من أخيه، وأنكر عليه ذلك، وسبّه، وقبّلها، وتركها على رأس عمّه، فنجا بذلك عبد الرحيم من القتل والأسر لمّا ملك مودود بن مسعود،على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ثمّ إنّ محمّداً أغراه ولده أحمد بقتل عمّه مسعود، فأمر بذلك، وأرسل إليه مَن قتله وألقاه في بئر وسدّ رأسها،وقيل بل أُلقي في بئر حياً وسُدّ رأسها فمات، واللّه أعلم.

فلمّا مات كتب محمّد إلى أخيه مودود، وهو بخراسان، يقول: إنّ والدك قُتل قصاصاً، قتله أولاد أحمد ينالتكين بلا رضاً منيّ. فأجاب مودود يقول: أطال اللّه بقاء الأمير العمّ،ورزق ولده المعتوه أحمد عقلاً يعيش (٤٨٧/٩) به، فقد ركب أمراً عظيماً، وأقدم على إراقة دم ملك مثل والدي الذي لقّبه أمير المؤمنين سيّد الملوك و السلاطين، وستعلمون في أيّ حتف تورّطتم، وأيّ شرّ تأبّطتم ﴿وسيعلم الّذين ظلموا أيَّ منقلبٍ ينقلبون﴾.

نفلّقُ هاماً من رجالٍ أعزّةٍ ... علينا، وهم كانوا أعقّ وأظلما

و طمع جند محمّد فيه، وزالت عنهم هيبته، فمدّوا أيديهم إلى أموال الرعايا فنهبوها، فخُربت البلاد، وخلا أهلها، لاسيما مدينة برشاوور فإنّها هلك أهلها، ونُهبت أموالهم، وكان المملوك بها يُباع بدينار، وتباع الخمر كلّ مَنّا بدينار، ثمّ رحل محمّد عنها لليلتيْن بقيتا من رجب،وكان ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

وكان السلطان مسعود شجاعاً كريماً، له فضائل كثيرة، محبّاً للعلماء، كثير الإحسان إليهم، والتقرّب لهم، صنّفوا له التصانيف الكثيرة في فنون العلوم، وكان كثير الصدقة والإحسان إلى أهل الحاجة، تصدّق مرّة في شهر رمضان بألف ألف درهم، وأكثر الإدرارات و الصلات، وعمر كثيراً من المساجد في ممالكه، وكانت صنائعه ظاهرة مشهورة، تسير بها الركبان مع عفّة عن أموال رعاياه، وأجاز الشعراء بجوائز عظيمة، أعطى شاعراً على قصيدة ألف دينار،وأعطى آخر بكلّ بيت ألف درهم، وكان يكتب خطاً حسناً، وكان ملكه عظيماً، فسيحاً، ملك أصبهان والريّ وهمذان وما يليها من البلاد، وملك طَبَرستان وجُرجان وخُوارزم وبلاد الراون وكرمان وسجستان والسِّند والرُّخّج وغزنة، وبلاد الغور والهند، وملك كثيراً منها وأطاعه (٤٨٨/٩) أهل البرّ والبحر، ومناقبه كثيرة، وقد صُنّفت فيها التصانيف المشهورة، فلا حاجة إلى الإطالة بذكرها.

ذكر ملك مودود بن مسعود وقتله عمّه محمّداً

لمّا قتل الملك مسعود وصل الخبر إلى ابنه مودود، وهو بخراسان، فعاد مجدّاً بعساكره إلى غزنة فتصافّ هو وعمّه محمّد في الثالث شعبان، فانهزم محمّد وعسكره وقُبض عليه وعلى ولده أحمد، وأنوشتكين الخصيّ البلخيّ، وابن عليّ خويشاوند، فقتلهم، وقتل أولاد عمّه جميعهم، إلاّ عبد الرحيم لإنكاره على أخيه عبد الرحمن ما فعله بعمّه مسعود، وبنى موضع الوقعة قرية ورباطاً، وسمّاها فتح آباد، وقتل كلّ من له في القبض على والده صنع، وعاد إلى غزنة فدخلها في ثالث وعشرين شعبان سنة اثنتين وثلاثين[وأربعمائة]، واستوزر أبا نصر وزير أبيه، وأظهر العدل وحسن السيرة، وسلك سيرة جدّه محمود.

وكان داود أخو طغرلبك قد ملك مدينة بلخ،واستباحها، كما ذكرناه، ومودود مقابله،فتجدّد قتل مسعود، فعاد ليقضي اللّه أمراً

كان مفعولاً، فلمّا تجدد هذا الظفر لمودود ثار أهل هَراة بمن عنده من الغُزّ السلجوقية، فأخرجوهم وحفظوها لمودود، واستقرّ الأمر لمودود بغزنة، ولم يبقى له همّ إلاّ أمر أخيه مجدود، فإنّ أباه قد سيّره إلى الهند سنة ستّ وعشرين [وأربعمائة]، فخاف أن يخالف عليه، فأتاه خبره أنه قصد لَهاوور، وملتان، فملكها،وأخذ(٤٨٩/٩)الأموال، وجمع بها العساكر،وأظهر الخلاف على أخيه، فندب إليه مودود جيشاً ليمنعوه ويقاتلوه، وعرض مجدود عسكره للميسر، وحضر عيد الأضحى، فبقي بعده ثلاثة أيام، وأصبح ميّتاً بلهاوور لايدري كيف كان موته، وأطاعت البلاد بأسرها مودوداً، ورست قدمه، وثبت ملكه؛ ولمّا سمعت الغُزُّ السلجوقية ذلك خافوه، واستشعروا منه، وراسله ملك الترك بما وراء النهر بالانقياد و المتابعة.

ذكر الخلاف بين جلال الدولة وقرواش صاحب الموصل

في هذه السنة اختلف جلال الدولة، ملك العراق، وقرواش بن المقلّد العُقيليُّ، صاحب الموصل.

وكان سبب ذلك أنّ قرواشاً كان قد أنفذ عسكراً سنة إحدى و ثلاثين [وأربعمائة] فحصروا خميس بن ثعلب بتكريت، وجرى بين الطائفتين حرب شديدة في ذي القعدة منها، فأرسل خميس ولده إلى الملك جلال الدولة، وبذل بذولاً كثيرة ليكفّ عنه قرواشاً، فأجابه إلى ذلك، وأرسل إلى قرواش يأمره بالكف عنه، فغالط ولم يفعل، وسار بنفسه ونزل عليه يحاصره، فتأثر جلال الدولة منه .

ثم إنه أرسل كتباً إلى الأتراك ببغداد يفسدهم، وأشار عليهم بالشغب على الملك وإثارة الفتنة معه، فوصل خبرها إلى جلال الدولة، وأشياء أُخر كانت هذه هي الأصل، فأرسل جلال الدولة أبا الحارث أرسلان البساسيريّ في صفر (٤٩٠/٩) من سنة اثنتين وثلاثين ليقبض على نائب قرواش بالسنديّة، فسار ومعه جماعة من الأتراك، وتبعه جمع من العرب، فرأى في طريقه جمالاً لبني عيسى، فتسرّع إليها الأتراك والعرب فأخذوا منها قطعة، وأوغل الأتراك في الطلب .

وبلغ طائفة من بني عيسى، فكمنوا بين صَرْصَر وبغداد ليفسدوا في السواد، فاتفق أن وصل بعض أكابر القواد الأتراك، فخرجوا عليه فقتلوه وجماعة من أصحابه، وحُملوا إلى بغداد، فارتجّ البلد، واستحكمت الوحشة مع معتمد الدولة قرواش، فجمع جلال الدولة العساكر وسار إلى الأنبار، وهي لقرواش، على عزم أخذها منه، وغيرها من أقطاعه بالعراق، فلما وصلوا إلى الأنبار أُغلقت، وقاتلهم أصحاب قرواش، وسار قرواش من تكريت إلى خُصّة على عزم القتال، فلما نزل الملك جلال الدولة على الأنبار قلّت عليهم العلوفة، فسار جماعة من العسكر والعرب إلى الحديثة ليمتاروا منها، فخرج عليهم عندها جمع كثير من العرب، فأوقعوا بهم، فانهزم بعضهم وعادوا إلى العسكر، ونهبت العرب ما معهم من الدواب التي تحمل الميرة، وبقي المرشد أبو الوفاء وهو المقدّم على العسكر الذين ساروا لإحضار الميرة وثبت معه جماعة.

ووصل الخبر إلى جلال الدولة أن المرشد أبا الوفاء يقاتل، وأخبر سلامته وصبره للعرب، وأنهم يقاتلونه وهو يطلب النجدة، فسار الملك إليه بعسكر، فوصلوا، وقد عجز العرب عن الوصول إليه، وعادوا عنه بعد أن حملوا عليه (٤٩١/٩) وعلى من معه عدّة حملات صبر لها في قلة من معه . ثم اختلفت على قرواش، فراسل جلال الدولة، وطلب رضاه، وبذل له بذلاً أصلحه به، وعاد إلى طاعته، فتحالفا، وعاد كل إلى مكانه .

ذكر ملك أبي الشوك دقوقا

كانت دقوقا لأبي الماجد المهلهل بن محمد بن عنّاز، فسير إليها أخوه حسام الدولة أبو الشوك ولده سعدي، فحصرها، فقاتله من بها .

ثم سار أبو الشوك إليها، فجدّ في حصارها ونقب سورها ودخلها عنوة، ونهب أصحابه بعض البلد، وأخذوا سلاح الأكراد وثيابهم، وأقام حسام الدولة بالبلد ليلة، وعاد خوفا على البَنْدنيجَيْن وحلوان، فإن أخاه سُرخاب ابن محمد بن عناز كان قد أغار على عدّة مواضع من ولايته، وحالف أبا الفتح بن ورّام والجاوانية عليه، فأشفق من ذلك، وأرسل إلى جلال الدولة يطلب منه نجدة، فسير إليه عسكراً امتنع بهم .

ذكر الحرب بين عسكر مصر والروم

في هذه السنة كانت الوقعة بين عسكر المصريين سيّره الدزبريّ وبين الروم، فظفر المسلمون .

وكان سبب ذلك أن ملك الروم قد هادنه المستنصر باللّه العلويّ، صاحب (٤٩٢/٩) مصر، على ما ذكرناه . فلما كان الآن شرع يراسل ابن صالح بن مرداس ويستميله، وراسله قبله صالح ليتقوّى به على الدزبريّ، خوفاً أن يأخذ منه الرَّقّة، فبلغ ذلك الدزبريّ فتهدّد ابن صالح فاعتذر وجحد .

ثم إن جمعاً من بني جعفر بن كلاب دخلوا ولاية أفامية، فعاثوا فيها، ونهبوا عدّة قرى، فخرج عليهم جمع من الروم فقاتلوهم وأوقعوا بهم، ونكوا فيهم، وأزالوهم عن بلادهم .

وبلغ ذلك الناظر بحلب، فأخرج من بها من تجار الفرنج، وأرسل إلى المتولي بأنطاكية يأمره بإخراج من عندهم من تجار المسلمين، فأغلظ للرسول، وأراد قتله، ثم تركه، فأرسل الناظر بحلب إلى الدزبريّ يعرّفه الحال، وأن القوم على التجهز لقصد

البلاد، فجهّز الدزبريّ جيشاً وسيره على مقدمه، فاتفق أنهم لقوا جيشاً للروم وقد خرجوا لمثل ما خرج إليه هؤلاء، والتقى الفريقان بين مدينة حماة وأفامية واشتد القتال بينهم، ثم إن اللّه نصر المسلمين، وأذل الكافرين، فانهزموا وقتل منهم عدة كثيرة، وأُسر ابن عمّ للملك، بذلوا في فدائه مالاً جزيلاً، وعدّة وافرة من أسراء المسلمين، وانكفّ الروم عن الأذى بعدها .

ذكر الخلف بين المعزّ وبني حمّاد

في هذه السنة خالف أولاد حمّاد على المعزّ بن باديس، صاحب إفريقية، وعادوا إلى ما كانوا عليه من العصيان والخلاف عليه، فسار إليهم المعزّ، وجمع(٤٩٢/٩) العساكر وحشدها، وحصر قلعتهم المعروفة بقلعة حمّاد، وضيّق عليهم، وأقام عليهم نحو سنتين .

ذكر صلح أبي الشوك وعلاء الدولة

وفيها سار مهلهل أخو أبي الشّوك إلى علاء الدولة بن كاكوَيه، واستصرخه، واستعان به على أخيه أبي الشوك، فسار معه، فلمّا بلغ قَرميسين رجع أبو الشوك إلى حُلوان، فعرف علاء الدولة رجوعه، فسار يتبعه، حتىّ بلغ المرج، وقرب من أبي الشوك، فعزم أبو الشوك على قصد قلعة السّيروان والتحصّن بها، ثم تجلّد، وأرسل إلى علاء الدولة: إنني لم أنصرف من بين يديك إلاّ مراقبةً لك، وإعظاماً لقدرك، واستعطافاً لك، فإذا اضطررتني إلى ما لا أجد بدّاً منه كان العذر قائماً لي فيه، فإن ظفرت بك طمع فيك الأعداء، وإن ظفرتَ بي سلّمت قلاعي وبلادي إلى الملك جلال الدولة . فأجابه علاء الدولة إلى الصلح على أن يكون له الدِّينور، وعاد فلحقه المرض في طريقه وتوفّي، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.(٤٩٤/٩)

ذكر عدة حوادث

في هذه السنة كان بإفريقية غلاء شديد، وسببه عدم الأمطار، فسُمّيت سنة الغبار، ودام ذلك إلى سنة أربع وثلاثين[وأربعمائة]، فخرج الناس فاستسقوا .

وفيها توفّي قزل أمير الغزّ العراقيّة بالري، ودُفن بناحية من أعمالها .

وفيها توفّي صاعد بن محمّد أبو العلاء النّيسابوري ثمّ الاستوائي، قاضي نَيسابور، وكان عالماً فقيهاً، حنفيّاً، انتهت إليه رئاسة الحنفيّة بخراسان.(٤٩٥/٩)

سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة

ذكر وفاة علاء الدولة بن كاكَوَيه

في هذه السنة، في المحرّم، توفّي علاء الدولة أبو جعفر بن دشمنزيار، المعروف بابن كاكويه، بعد عوده من بلد أبي الشوك، وإنّما قيل له لأنّه ابن خال مجد الدولة بن بويه، والخال بلغتهم كاكويه، وقام بأصبهان ابنه ظهير الدين أبو منصور فرامرز مقامه، وهو أكبر أولاده، وأطاعه الجند بها، فسار ولده أبو كاليجار كرشاسف إلى نهاوند، فأقام بها وحفظها، وضبط أعمال الجبل، وأخذها لنفسه، فأمسك عنه أخوه أبو منصور فرامرز.

ثم إنّ مستحفظاً لعلاء الدولة بقلعة نطنز أرسل أبو منصور إليه يطلب شيئاً مما عنده من الأموال والذخائر، فامتنع وأظهر العصيان، فسار إليه أبو منصور، وأخوه الأصغر أبو حرب، ليأخذا القلعة منه كيف أمكن، فصعد أبو حرب إليها، ووافق المستحفظ على العصيان، فعاد أبو منصور إلى أصبهان، وأرسل أبو حرب إلى الغُزّ السلجوقيّة بالرّيّ يستنجدهم، فسار طائفة منهم إلى قاجان، فدخلوها ونهبوها وسلّموها إلى أبي حرب وعادوا إلى الرّيّ، فسيّر إليها أبو منصور عسكراً ليستنقذها من أخيه، فجمع أبو حرب الأكراد وغيرهم، وجعل عليهم صاحباً له وسيّرهم إلى أصبهان ليملكوها بزعمه، (٤٩٦/٩)فسيّر إليهم أخوه أبو منصور عسكراً، فالتقوا، وانهزم عسكر أبي حرب وأُسر جماعة منهم.

وتقدّم أصحاب أبي منصور فحصروا أبا حرب، فلما رأى الحال، وخاف، نزل منها متخفيّاً، وسار إلى شيراز إلى الملك أبي كاليجار، صاحب فارس والعراق، فحسّن له قصد أصبهان وأخذها من أخيه، فسار الملك إليها وحصرها، وبها الأمير أبو منصور، فامتنع عليه، وجرى بين الفريقين عدّة وقائع، وكان آخر الأمر الصلح على أن يبقى أبو منصور بأصبهان، وتقرّر عليه مال، وعاد أبو حرب إلى قلعة نطنز واشتدّ الحصار عليه، فأرسل إلى أخيه يطلب المصالحة فاصطلحا على أن يعطي أخاه بعض ما في القلعة، ويبقى بها على حاله.

ثم إنّ إبراهيم ينّال خرج إلى الرّيّ، على ما نذكره، وأرسل إلى أبي منصور فرامرز يطلب منه الموادعة، فلم يجبه، وسار فرامرز إلى همذان وبروجرد فملكهما، ثم اصطلح هو وأخوه كرشاسف، وأقطعه همذان، وخطب لأبي منصور على منابر بلاد كرشاسف، واتّفقت كلمتهما، وكان المدبّر لأمرهما الكيا أبو الفتح الحسن بن عبد اللّه، وهو الذي سعى في جمع كلمتهما.

ذكر ملك طغرلبك جرجان وطبرستان

في هذه السنة ملك طغرلبك جرجان وطبرستان ؛ وسبب ذلك

أنّ أنوشروان بن منوجهر بن قابوس بن وشمكير صاحبها قبض على أبي كاليجار بن ويهان(٤٩٧/٩)القوهيّ، صاحب جيشه، وزوّج أمّه بمساعدة أمّه عليه، فعلم حينئذ طغرلبك أنّ البلاد لا مانع له عنها، فسار إليها وقصد جرجان ومعه مرداويج بن بسّو، فلمّا نازلها فتح له المقيم بها، فدخلها وقرّر على أهلها مائة ألف دينار صلحاً، وسلّمها إلى مرداويج بن بسّو، وقرّر عليه خمسين ألف دينار كلّ سنة عن جميع الأعمال، وعاد إلى نيسابور.

وقصد مرداويج أنوشران بسارية، وكان بها، فاصطلحا على أن ضمن أنوشروان له ثلاثين ألف دينار، وأُقيمت الخطبة لطغرلبك في البلاد كلّها، وتزوّج مرداويش بوالدة أنوشران، وبقي أنوشران يتصرّف بأمر مرداويج لا يخالفه في شيء البتّة.

ذكر أحوال ملوك الروم

نذكر ها هنا أحوال الروم من عهد بَسيل إلى الآن، فنقول: من عادة ملوك الروم أن يركبوا أيّام الأعياد إلى البيعة المخصوصة بذلك العيد، فإذا اجتاز الملك بالأسواق شاهده الناس وبأيديهم المداخن يبخّرون فيها، فركب والد بَسيل وقسطنطين في بعض الأعياد، وكان لبعض أكابر الروم بنت جميلة، فخرجت تشاهد الملك، فلمّا مرّ بها استحسنها، فأمر من يسأل عنها، فلمّا عرفها خطبها وتزوّجها وأحبّها، وولدت منه بَسيل وقسطنطين، وتوفّي وهما صغيران، فتزوّجت بعده بمدّة طويلة نقفور، فكره كل واحد منهما صاحبه، فعملت على قتله، فراسلت الشمشقيق في ذلك، فقصد قسطنطينية متخفّياً، فأدخلته إلى دار الملك، واتّفقا وقتلاه ليلاً، وأحضرت البطارقة متفرّقين، وأعطتهم(٤٩٨/٩)الأموال ودعتهم إلى تمليك الشمشقيق، ففعلوا، ولم يصبح، وقد فرغت مما تريد ولم يجر خلف.

وتزوّجت الشمشقيق وأقامت معه سنة، فخافها، واحتال عليها وأخرجها إلى دير بعيد، وحمل ولديها معها، فأقامت فيه سنة، ثم أحضرت راهباً ووهبته مالاً، وأمرته بقصد قسطنطينية، والمقام بكنيسة الملك، والاقتصار على قدر القوت، فإذا وثق به الملك وأراد القربان من يده ليلة العيد، سقاه سمّاً، ففعل الراهب ذلك، فلمّا كان ليلة العيد سارت ومعها ولداها، ووصلت قسطنطينية في اليوم الذي توفّي فيه الشمشقيق، فملك ولدها بسيل، ودبّرت هي الأمر لصغره، فلمّا كبر بسيل قصد بلد البلغار، وتوفّيت، وهو هناك، فبلغه وفاتها، فأمر خادماً له أن يدبّر الأمور في غيبته.

ودام قتاله لبلغار أربعين سنة، فظفروا به، فعاد مهزوماً، وأقام بالقسطنطينية يتجهّز للعود، فعاد إليهم، فظفر بهم، وقتل ملكهم، وسبى أهله وأولاده، وملك بلاده، ونقل أهلها إلى الروم، وأسكن البلاد طائفة من الروم، وهؤلاء البلغار غير الطائفة المسلمة، فإنّ هؤلاء أقرب إلى بلد الروم من المسلمين بنحو شهرين، وكلاهما يسمّى بُلْغار.

وكان بسيل عادلاً، حسن السيرة، ودام ملكه نيّفاً وسبعين سنة، وتوفّي ولم يخلّف ولداً، فملك أخوه قسطنطين، وبقي إلى أن توفّي، ولم يخلّف غير ثلاث بنات، فملكت الكبرى، وتزوّجت أرمانوس، وهو من أقارب الملك، وملّكته، فبقي مدّة، وهو الذي ملك الرُّها من المسلمين.(٤٩٩/٩)

وكان لأرمانوس صاحب له يخدمه، قبل ملكه من أولاد بعض الصيارف، اسمه ميخائيل، فلمّا ملك حكّمه في داره، فمالت زوجة قسطنطين إليه، وعملا الحيلة في قتل أرمانوس، فمرض أرمانوس فأدخلاه إلى الحمّام كارهاً وخنقاه، وأظهرا أنّه مات في الحمّام، وملّكت زوجته ميخائيل، وتزوّجته على كره من الروم.

وعرض لميخائيل صرع لازمه وشوّه صورته، فعهد بالملك بعده إلى ابن أخت له اسمه ميخائيل أيضاً. فلمّا توفّي ملك ابن أخته وأحسن السيرة، وقبض على أهل خاله وإخوته، وهم أخواله، وضرب الدنانير في هذه السنة، وهي[سنة]ثلاث وثلاثين، ثم أحضر زوجته بنت الملك وطلب منها أن تترهّب وتنزع نفسها عن الملك، فأبت، فضربها وسيّرها إلى جزيرة في البحر، ثم عزم على القبض على البطرك، والاستراحة من تحكّمه عليه، فإنّه كان لا يقدر على مخالفته، فطلب إليه أن يعمل له طعاماً في دير ذكره بظاهر القسطنطينية ليحضر عنده، فأجابه إلى ذلك، وخرج إلى الدير ليعمل ما قال الملك، فأرسل الملك جماعة من الروس والبلغار، ووافقهم على قتله سرّاً، فقصدوه ليلاً وحصروه في الدير، فبذل لهم مالاً كثيراً، وخرج متخفّياً، وقصد البيعة التي يسكنها، وضرب الناقوس، فاجتمع الروم عليه، ودعاهم إلى عزل الملك، فأجابوه إلى ذلك، وحصروا الملك في دار، فأرسل الملك إلى زوجته وأحضرها من الجزيرة التي نفاها إليها، ورغب في أن تردّ عنه، فلم تفعل،وأخرجته إلى بيعة يترهّب فيها.

ثم إنّ البطرك والروم نزعوا زوجته من الملك، وملّكوا أختاً لها صغيرة واسمها تَذُورة، وجعلوا معها خدم أبيها يدبّرون الملك، وكحلوا ميخائيل،(٥٠٠/٩)ووقعت الحرب بالقسطنطينية بين من يتعصّب له وبين من يتعصّب لتذورة والبطرك، فظفر أصحاب تذورة بهم، ونهبوا أموالهم.

ثم إنّ الروم افتقروا إلى ملكٍ يدبّرهم، فكتبوا أسماء جماعة يصلحون للملك في رقاع، وضعوها في بنادق طين، وأمروا من يخرج منها بندقة، وهو لا يعرف باسم من فيها، فخرج اسم قسطنطين، فملّكوه وتزوّجته الملكة الكبيرة، واستنزلت أختها الصغيرة تذورة عن الملك بمالٍ بذلته لها، واستقرّ بالملك سنة أربع

وثلاثين[وأربعمائة]، فخرج عليه فيها خارجيّ من الروم اسمه أرميناس، ودعا إلى نفسه فكثر جمعه حتّى زادوا على عشرين ألفاً، فأهمّ قسطنطين أمره، وسيّر إليه جيشاً كثيفاً، فظفروا بالخارجيّ وقتلوه، وحملوا رأسه إلى القسطنطينية، وأُسر من أعيان أصحابه مائة رجل، فشهروا في البلد ثم أُطلقوا وأُعطوا نفقة، وأُمروا بالانصراف إلى أيّ جهة أرادوا.

ذكر فساد حال الدزبريّ بالشام وما صار الأمر إليه بالبلاد

في هذه السنة فسد أمر أنوشتكين الدزبريّ، نائب المستنصر باللّه، صاحب مصر، بالشام، وقد كان كبيراً على مخدومه بما يراه من تعظيم الملوك له، وهيبة الروم منه.

وكان الوزير أبو القاسم الجرجرائيّ يقصده ويحسده، إلاّ أنّه لا يجد طريقاً إلى الوقيعة فيه؛ ثم اتّفق أنّه سُعي بكاتب للدزبريّ اسمه أبو سعد، وقيل عنه إنّه يستميل صاحبه إلى غير جهة المصريين، فكوتب الدزبريّ بإبعاده، فلم(٥٠١/٩)يفعل، واستوحشوا منه، ووضع الجرجرائيّ حاجب الدزبريّ على مخالفته.

ثم إنّه جماعة من الأجناد قصدوا مصر، وشكوا إلى الجرجرائيّ منه، فعرّفهم سوء رأيه فيه، وأعادهم إلى دمشق، وأمرهم بإفساد الجند عليه ففعلوا ذلك.

وأحسّ الدزبريّ بما يجري، فأظهر ما في نفسه، وأحضر نائب الجرجرائي عنده، وأمر بإهانته وضربه، ثم إنّه أطلق لطائفة من العسكر يلزمون خدمته أرزاقهم، ومنع الباقين، فحرّك ما في نفوسهم، وقوّى طمعهم فيه، بما كوتبوا به من مصر، فأظهروا الشغب عليه، وقصدوا قصره، وهو بظاهر البلد، وتبعهم من العامّة من يريد النهب، فاقتتلوا، فعلم الدزبريّ ضعفه وعجزه عنهم، ففارق مكانه، واستصحب أربعين غلاماً له، وما أمكنه من الدوابّ والأثاث والأموال، ونُهب الباقي، وسار إلى بعلبك، فمنعه مستحفظها، وأخذ ما أمكنه أخذه من مال الدزبريّ، و تبعه طائفة من الجند يقفون أثره، وينهبون ما يقدرون عليه.

وسار إلى مدينة حماة، فمُنع عنها، وقوتل، وكاتب المقلّد بن منقذ الكنانيّ الكفرطابيّ، واستدعاه، فأجابه، وحضر عنده نحو ألفيْ رجل من كفر طاب وغيرها، فاحتمى به، وسار إلى حلب، ودخلها، وأقام بها مدّة، وتوفّي في منتصف جمادى الأولى من هذه السنة.

فلمّا توفّي فسد أمر بلاد الشام، وانتشرت الأمور بها، وزال النظام، وطمعت العرب، وخرجوا في نواحيه، فخرج حسّان بن المفرّج الطائيّ بفلسطين؛ وخرج معزّ الدولة بن صالح الكلابيّ بحلب، وقصدها وحصرها، وملك المدينة، وامتنع أصحاب الدزبريّ بالقلعة، وكتبوا إلى مصر يطلبون النجدة، فلم يفعلوا، واشتغل عساكر دمشق ومقدّمهم الحسين بن أحمد الذي ولي أمر(٥٠٢/٩)دمشق، بعد الدزبريّ، بحرب حسّان، ووقع الموت في الذين في القلعة، فسلّموها إلى مُعزّ الدولة بالأمان.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة سيّر الملك أبو كاليجار من فارس عسكراً في البحر إلى عُمان، وكان قد عصى مَن بها، فوصل العسكر إلى صُحار مدينة عُمان فملكوها، واستعادوا الخرجين عن الطاعة، واستقرت الأمور بها، وعادت العساكر إلى فارس.

وفيها قصد أبو نصر بن الهيثم الصليق من البطائح، فملكها ونهبها، ثم استقرّ أمرها على مال يؤدّيه إلى جلال الدولة.

وفيها توفيّ أبو منصور بهَرام بن مافنّة، وهو الملقّب بالعادل، وزير الملك أبي كاليجار، ومولده سنة ستّ وستّين وثلاثمائة، وكان حسن السيرة، وبنى دار الكتب بفيروزاباذ، وجعل فيها سبعة آلاف مجلّد، فلمّا مات وزر بعده مهذّب الدولة أبو منصور هبة اللّه بن أحمد الفسويّ.

وفيها وصل جماعة من البلغار إلى بغداد يريدون الحجّ، فأقيم لهم من الديوان الإقامات الوافرة، فسُئل بعضهم: من أيّ الأمم هم البلغار؟ فقال: هم قومٌ تولّدوا بين الترك والصقالبة، وبلدهم في أقصى الترك، وكانوا كفّاراً، فأسلموا عن قريب، وهم على مذهب أبي حنيفة، رضي اللّه عنه.

وفيها توفّي ميخائيل ملك الروم، وملك بعده ابن أخيه ميخائيل أيضاً.(٥٠٣/٩)

وفيها، في جمادى الآخرة، توفّي أبو الحسن محمّد بن جعفر الجهرميّ الشاعر، وهو القائل:

يا وَيْحَ قلبي من تَقَلُّبِه ... أبداً يحِنُّ إلى مُعَذّبِهِ
قالوا: كتمتَ هواه عن جَلَدٍ ... لو أنَّ لي رَمَقاً لَبُحْتُ بِهِ
بأبي حبيباً غيرَ مكترثٍ ... عنّي، ويُكثِر من تعتُّبِهِ
حَسْبي رِضاه مِنَ الحَياة، وما ... قلقي وموتي من تغضُّبِهِ

وكان بينه وبين المطرّز مهاجاة.(٥٠٤/٩)

سنة أربع وثلاثين وأربعمائة

ذكر ملك طغرلبك مدينة خُوارزم

قد تقدّم أنّ خوارزم من جملة مملكة محمود بن سبكتكين، فلمّا توفّي وملك بعده ابنه مسعود كانت له، وكان فيها التونتاش، حاجب أبيه محمود، وهو من أكابر أمرائه، يتولاّها لمحمود، ومسعود بعده، ولمّا كان مسعود مشغولاً بقصد أخيه محمّد لأخذ

الملك قصد الأمير عليّ تكين، صاحب ما وراء النهر، أطراف بلاده وشعّثها، فلمّا فرغ مسعود من أمر أخيه واستقرّ الملك له كاتب التونتاش في سنة أربع وعشرين [وأربعمائة] بقصد أعمال عليّ تكين، وأخذ بخارى وسمرقند، وأمدّه بجيش كثيف، فعبر جيحون، وفتح من بلاد عليّ تكين ما أراد، وانحاز عليّ تكين من بين يديه.

وأقام التونتاش بالبلاد التي فتحها، فرأى دخلها لا يفي بما تحتاج عساكره لأنّه كان يريد [أن] يكون في جمع كثير يمتنع بهم على الترك، فكاتب مسعوداً في ذلك واستأذنه في العود إلى خوارزم، فأذن له، فلمّا عاد لحقه عليّ تكين على غرّة، وكبسه، فانهزم عليّ تكين، وصعد إلى قلعة دُبُوسيّة، فحصره التونتاش، وكاد يأخذه، فراسله علي تكين واستعطفه وضرع إليه،فرحل عنه وعاد إلى خوارزم.

وأصاب التونتاش في هذه الوقعة جراحة، فلمّا عاد إلى خوارزم مرض منها وتوفّي، وخلّف من الأولاد ثلاثة بنين: هارون، ورشيد، وإسماعيل،(٥٠٥/٩)فلمّ توفّي ضبط البلد وزيره أبو نصر أحمد بن محمّد بن عبد الصمد، وحفظ الخزائن وغيرها، وأعلم مسعوداً الخبر، فولّى ابنه الأكبر هارون خوارزم، وسيّره إليها وكان عنده.

واتّفق أنّ المَيْمَنديّ، وزير مسعود، توفّي، فاستحضر أبا نصر بن محمّد بن عبد الصمد واستوزره، فاستناب أبو نصر عند هارون منافرة أسرّها هارون في نفسه، وحسّن له أصحابه القبض على عبد الجبّار، والعصيان على مسعود، فأظهر العصيان في شهر رمضان سنة خمس وعشرين[وأربعمائة]، وأراد قتل عبد الجبّار، فاختفى منه، فقال أعداء أبيه للملك مسعود: إنّ أبا نصر قد واطأ هارون على العصيان، وإنّما اختفى ابنه حيلةً ومكراً؛ فاستوحش منه إلاّ أنّه لم يُظهر ذلك له.

وعزم مسعود على الخروج من غزنة إلى خوارزم، فسار عن غزنة، والزمان شتاء، فلم يمكنه قصد خوارزم، فسار إلى جرجان طالباً أنوشروان بن منوجهر ليقابله على ما ظهر منه عند اشتغال مسعود بقتال أحمد ينالتكين ببلاد الهند. فلما كان ببلاد جرجان أتاه كتاب عبد الجبار بن أبي نصر بقتل هارون، وإعادة البلد إلى طاعته، وكان عبد الجبّار في بدء استتاره يعمل على قتل هارون، ووضع جماعة على الفتك به، فقتلوه عند خروجه إلى الصيد، وقام عبد الجبّار بحفظ البلد.

فلمّا وقف مسعود على كتاب عبد الجبّار علم أنّ الذي قيل عن أبيه كان باطلاً، فعاد إلى الثقة به، وبقي عبد الجبّار أيّام يسيرة، فوثب به غلمان هارون فقتلوه، وولّوا البلد إسماعيل بن التونتاش، وقام بأمره شكر خادم أبيه، وعصوا على مسعود. فكتب مسعود إلى شاهملك بن عليّ أحد أصحاب الأطراف بنواحي خُوارزم، بقصد خوارزم وأخذها، فسار إليها، فقاتله(٥٠٦/٩)شكر وإسماعيل، ومنعاه عن البلد، فهزمهما وملك البلد، فسارا إلى طغرلبك وداود السلجقيين والتجآ إليهما، وطلبا المعونة منهما، فسار داود معهما إلى خوارزم، فلقيهم شاهملك وقاتلهم فهزمهم ؛ ولمّا جرى على مسعود من القتل ما جرى وملك مودود دخل شاهملك في طاعته وصافاه، وتمسّك كلّ واحد منهما بصاحبه.

ثم إنّ طغرلبك سار إلى خوارزم فحصرها وملكها واستولى عليها، وانهزم شاهملك بين يديه، واستصحب أمواله وذخائره، ومضى في المفازة إلى دهستان، ثم انتقل عنها إلى طبس، ثم إلى أطراف كرمان، ثم إلى أعمال التيز ومكران، فلمّا وصل إلى هناك علم خلاصه ببعده وأمن في نفسه، فعرف خبره أرتاش، أخو إبراهيم ينّال، وهو ابن عمّ طغرلبك، فقصده في أربعة آلاف فارس، فأوقع به وأسره وأخذ ما معه، ثم عاد به فسلّمه إلى داود، وحصل هو بما غنم من أمواله، وعاد بعد ذلك إلى باذغيس المقاربة لهراة، وأقام على محاصرة هراة، لأنّهم إلى هذه الغاية كانوا مقيمين على الامتناع والاعتصام ببلدهم والثبات على طاعة مودود بن مسعود، فقاتلهم أهل هراة، وحفظوا بلدهم مع خراب سوادهم، وإنّما حملهم على ذلك، الحرب خوفاً من الغُزّ.

ذكر قصد إبراهيم ينّال وما كان منه

قد ذكرنا خروج إبراهيم ينّال من خراسان إلى الرّيّ، واستيلائه عليها. فلمّا استقرّ أمرها سار عنها، وملك البلاد المجاورة لها، ثم انتقل إلى بروجرد(٥٠٧/٩)فملكها، ثم قصد همذان، وكان بها أبو كاليجار كرشاسف بن علاء الدولة صاحبها، ففارقها إلى سابور خواست، ونزل إبراهيم ينّال على همذان، وأراد دخولها، فقال له أهلها إن كنت تريد الطاعة، وما يطلبه السلطان من الرّعيّة، فنحن باذلوه وداخلون تحته، فاطلب أوّلاً هذا المخالف عليك الذي كان عندنا، يعنون كرشاسف، فإنّا لا نأمن عوده إلينا، فإذا ملكته أو دفعته كنّا لك.

فكفّ عنهم وسار إلى كرشاسف، بعد أن أخذ من أهل البلد مالاً، فلمّا قارب سابور خواست صعد كرشاسف إلى القلعة، فتحصّن بها، وحصر إبراهيم البلد، فقاتله أهله خوفاً من الغزّ، فلم يكن لهم طاقة على دفعهم، فملك البلد قهراً، ونهب الغُزّ أهله، وفعلوا الأفاعيل القبيحة بهم، ثم عادوا بما غنموه إلى الرّيّ، فرأوا طغرلبك قد وردها، ولمّا فارق إبراهيم والغزّ همذان نزل كرشاسف إليها، فأقام بها إلى أن وصل طغرلبك إلى الرّيّ فسار إليه إبراهيم، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر خروج طغرلبك إلى الرّيّ وملك بلد الجبل

في هذه السنة خرج طغرلبك من خراسان إلى الرّيّ، بعد فراغه

من خوارزم، وجرجان، وطبرستان، فلمّا سمع أخوه إبراهيم ينّال بقدومه سار إليه فلقيه، وتسلّم طغرلبك الرّيّ منه، وتسلّم غيرها من بلد الجبل وسار إبراهيم إلى سِجستان، وأخذ طغرلبك أيضاً قلعة طبرك من مجد الدولة بن بويه، وأقام عنده مكرّماً، وأمر طغرلبك بعمارة الرّيّ وكانت قد خربت، فوجد في دار(٥٠٨/٩)الإمارة مراكب ذهب مجوهرة وبَرْنيَتَيْ صينيّ مملوءتين جوهراً، ومالاً كثيراً، وغير ذلك.

وكان كامرو يهادي طغرلبك، وهو بخراسان، ويخدمه، وخدم أخاه إبراهيم لمّا كان بالرّيّ، فلمّا حضر عنده أهدى له هدايا كثيرة من أنواع شتّى، وهو يظنّ أنّ طغرلبك يزيد في إقطاعه، ويرعى له ما تقدّم من خدمته له، فخاب ظنّه وقرّر على ما بيده كلّ سنة سبعة وعشرين ألف دينار.

ثم سار إلى قزوين، فامتنع عليه أهلها، فزحف إليهم ورماهم بالسهام والحجارة، فلم يقدروا أن يقفوا على السور، وقتل من أهل البلد برشق، وأخذ ثلاثمائة وخمسين رجلاً، فلمّا رأى كامرو ومرداويج بن بسّو ذلك خافوا أن يملك البلد عنوة وينهب، فمنع الناس من القتال، وأصلحوا الحال على ثمانين ألف دينار، وصار صاحبها في طاعته.

ثم إنّه أرسل إلى كوكتاش وبوقا وغيرهما من أمراء الغزّ، الذين تقدّم خروجهم، يمنّيهم ويدعوهم إلى الحضور في خدمته، فلمّا وصل رسولهم إليهم ساروا حتّى نزلوا على نهر بنواحي زنجان، ثم أعادوا رسوله، وقالوا له: قل له قد علمنا أن غرضك أن تجمعنا لتقبض علينا، والخوف منك أبعدنا عنك، وقد نزلنا ها هنا، فإن أردتنا قصدنا خراسان، أو الروم، ولا نجتمع بك أبداً .

وأرسل طغرلبك إلى ملك الديلم يدعوه إلى الطاعة، ويطلب منه مالاً، ففعل(٥٠٩/٩) ذلك، وحمل إليه مالاً وعروضاً، وأرسل أيضاً إلى سلار الطّرم يدعوه إلى خدمته، ويطالبه بحمل مائتي ألف دينار، فاستقر الحال بينهما على الطاعة وشيء من المال . وأرسل سريةً إلى أصبهان، وبها أبو منصور فرامرز بن علاء الدولة، فأغارت على أعمالها وعادت سالمة.

وخرج طغرلبك من الري، وأظهر قصد أصبهان، فراسله فرامرز، وصانعه بمال، فعاد عنه وسار إلى همذان فملكها من صاحبها كرشاسف بن علاء الدولة، وكان قد نزل إليه، وهو بالريّ، بعد أن راسله طغرلبك غير مرة، وسار معه من الريّ إلى أبهر وزنجان، فأخذ منه همذان، وتفرق أصحابه عنه، وطلب منه طغرلبك تسليم قلعة كِنْكَوَر، فأرسل إلى من بها بالتسليم، فلم يفعلوا، وقالوا لرسل طغرلبك : قل لصاحبك والله لو قطّعتَهُ قطعاً ما سلمناها إليك . فقال له طغرلبك : ما امتنعوا إلاّ بأمرك ورأيك، فاصعد إليهم، وأقم معهم، ولا تفارق موضعك حتى آذن لك .

ثم عاد إلى الريّ، واستناب بهمذان ناصراً العلويّ، وكان كرشاسف قد قبض عليه، فأخرجه طغرلبك وولاّه الريّ، وأمره بمساعدة من يجعله في البلد، وكان معه مرداويج بن بسّو نائبه، في جُرجان طَبَرستان، فمات، وقام ولده جسْتان مقامه، فسار طغرلبك إلى جُرجان، فعزل جستان عنها، واستعمل على جرجان أسفار، وهو من خواصّ منوجهر بن قابوس، فلمّا فرغ أمر جُرجان وطبرستان سار إلى دهستان فحصرها، وبها صاحبها كامیار، معتصماً بها لحصانتها.(٥١٠/٩)

ذكر مسير عساكر طغرلبك إلى كرمان

وسيّر طغرلبك طائفة من أصحابه إلى كرمان مع أخيه إبراهيم ينّال، بعد أن دخل الريّ، وقيل إنّ إبراهيم لم يقصد كرمان، وإنّما قصد سجستان، وكان مقدّم العساكر التي سارت إلى كرمان غيره، فلمّا وصلوا إلى أطراف كرمان نهبوا، ولم يقدموا على التوغّل فيها، فلم يروا من العساكر من يكفّهم، فتوسّطوها وملكوا عدّة مواضع منها ونهبوها.

فبلغ الخبر إلى الملك أبي كاليجار، صاحبها، فسيّر وزيره مهذّب الدولة في العساكر الكثيرة، وأمره بالجدّ في المسير ليدركهم قبل أن يملكوا جيرَفْتَ، وكانوا يحاصرونها، فطوى المراحل حتّى قاربهم، فرحلوا عن جيرَفْت ونزلوا على ستّة فراسخ منها.

وجاء مهذّب الدولة فنزلها وأرسل ليحمل الميرة إلى العسكر، فخرجت الغُزّ إلى الجمال والبغال والميرة ليأخذوها، وسمع مهذّب الدولة ذلك، فسيّر طائفة من العسكر لمنعهم، فتواقعوا واقتتلوا، وتكاثر الغُزّ، فسمع مهذّب الدولة الخبر، فسار في العساكر إلى المعركة، وهم يقتتلون، وقد ثبتت كلّ طائفة لصاحبتها واشتدّ القتال إلى حدّ أنّ بعض الغُزّ رمى فرس بعض أصحاب أبي كاليجار بسهم، فوقع فيه، وطعنه صاحب الفرس برمح، فأصاب فرس الغُزّيّ، وحمل الزيّ على صاحب الفرس، فضربه ضربة قطعت يده، وحمل عليه صاحب الفرس وهو على هذه الحالة، فضربه بسيفه فقطعه قطعتَيْن،(٥١١/٩)وسقطا إلى الأرض قتيلين، والفرسان قتيلان، وهذه حالة لم يدوّن عن مقدّمي الشجعان أحسن منها.

فلمّا وصل مهذّب الدولة إلى المعركة انهزم الغُزّ وتركوا ما كانوا ينهبونه، ودخلوا المفازة، وتبعهم الديلم إلى رأس الحدّ، وعادوا إلى كرمان فأصلحوا ما فسد منها.

ذكر الوحشة بين القائم بأمر الله أمير المؤمنين وجلال الدولة

في هذه السنة افتتحت الجوالي في المحرّم ببغداد، فأنفذ

الملك جلال الدولة فأخذ ما تحصّل منها، وكانت العادة أن يُحمل ما يحصّل منها إلى الخلفاء لا تعارضهم فيها الملوك، فلمّا فعل جلال الدولة ذلك عظم الأمر فيه على القائم بأمر اللّه واشتدّ عليه، وأرسل مع أقضى القضاة أبي الحسن الماورديّ في ذلك، وتكرّرت الرسائل، فلم يصغ جلال الدولة لذلك، وأخذ الجوالي، فجمع الخليفة الهاشميين بالدار والرَّجّالة، وتقدّم بإصلاح الطيّار والزبازب، وأرسل إلى أصحاب الأطراف والقضاة بما عزم عليه، وأظهر العزم على مفارقة بغداد، فلم يتمّ ذلك، وحدث وحشة بين الجهتَيْن، فاقتضت الحال أنّ الملك يترك معارضة النوّاب الإماميّة فيها في السنة الآتية.(٥١٢/٩)

ذكر محاصرة شهرزور وغيرها

في هذه السنة سار أبو الشوك إلى شهرزور، فحصرها ونهبها وأحرقها وخرّب قُراها وسوادها، وحصر قلعة تِبرانْشاه،فدفعه أبو القاسم بن عياض عنها، ووعده أن يخلّص ولده أبا الفتح من أخيه مُهلهل، وأن يصلح بينهما .

وكان مهلهل قد سار من شهرزور لمّا بلغه أنّ أخاه أبا الشوك يريد قصدها، وقصد نواحي سَنْدة وغيرها من ولايات أبي الشوك، فنهبها وأحرقها وهلكت الرعيّة في الجهتَيْن.

ثمّ إنّ أبا الشوك راسل أبا القاسم بن عياض يستنجزه ما وعده به من تخليص ولده والشروط التي تقرّرت بينهما، فأجابه بأن مهلهلاً غير مجيب إليه. فعند ذلك سار أبو الشوك من حُلوان إلى الصامغان ونهبها، ونهب الولاية التي لمهلهل جميعها، فانزاح مهلهل من بين يديه، وتردّدت الرسل بينهما، فاصطلحا على دغَل ودَخَل، وعاد أبو الشوك.(٥١٣/٩)

ذكر خروج سكين بمصر

في هذه السنة، في رجب، خرج بمصر إنسان اسمه سكين، كان يشبه الحاكم صاحب مصر، فادّعى أنّه الحاكم، وقد رجع بعد موته، فاتّبعه جمع ممّن يعتقد رجعة الحاكم، فاغتنموا خلوّ دار الخليفة بمصر من الجند وقصدوها مع سكين نصف النهار، فدخلوا الدهليز، فوثب مَنْ هناك من الجند، فقال لهم أصحابه: إنّه الحاكم، فارتاعوا لذلك، ثمّ ارتابوا به، فقبضوا على سكين، ووقع الصوت، واقتتلوا، فتراجع الجند إلى القصر، والحرب قائمة، فقُتل من أصحابه جماعة، وأُسر الباقون وصُلبوا أحياء، ورماهم الجند بالنشّاب حتّى ماتوا.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة كانت زلزلة عظيمة بمدينة تبريز، هدمت قلعتها وسورها ودورها وأسواقها وأكثر دار الإمارة، وسلم الأمير لأنّه كان في بعض البساتين، فأُحصي مَنْ هلك من أهل البلد، وكانوا قريباً من خمسين ألفاً، ولبس الأمير السواد والمسوح لعظم المصيبة، وعزم على الصعود إلى بعض قلاعه، خوفاً من توجّه الغُزّ السلجوقيّة إليه، وأخبر بذلك أبو جعفر بن الرّقّيّ العلويّ النقيب بالموصل.(٥١٤/٩)

وفيها قتل قرواش كاتبَه أبا الفتح بن المفرج صبراً.

وفيها توفّي عبد اللّه بن أحمد أبو ذرّ الهرويّ الحافظ، أقام بمكّة، وتزوّج من العرب، وأقام بالسّروات، وكان يحجّ كلّ سنة يحدّث في الموسم، ويعود إلى أهله، وصحب القاضي أبا بكر الباقلاني.

وفيها توفّي عمر بن إبراهيم بن سعيد الزهريّ من ولد سعد بن أبي وقّاص، وكان فقيهاً شافعيّاً.(٥١٥/٩)

سنة خمس وثلاثين وأربعمائة

ذكر إخراج المسلمين والنصارى الغرباء من القسطنطينية

في هذه السنة أخرج ملك الروم الغرباء من المسلمين والنصارى وسائر الأنواع من القسطنطينية.

وسبب ذلك أنّه وقع الخبر بالقسطنطينية أنّ قسطنطين قتل ابنتي الملك المتقدّم اللتَيْن قد صار الملك فيهما الآن، فاجتمع أهل البلد وأثاروا الفتنة، وطمعوا في النهب، فأشرف عليهم قسطنطين، وسألهم عن السبب في ذلك، فقالوا: قتلتَ الملكتَيْن، وأفسدتَ الملك؛ فقال: ما قتلتُهما؛ وأخرجهما حتّى رآهما الناس، فسكنوا.

ثم إنّه سأل عن سبب ذلك، فقيل له: إنّه فعْل الغرباء، وأشاروا بإبعادهم، وأمر فنودي أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة، فمن أقام بعد ثلاثة أيّام كُحل، فخرج منها أكثر من مائة ألف إنسان، ولم يبق بها أكثر من اثني عشر نفساً، ضمنهم الروم فتركهم.(٥١٦/٩)

ذكر وفاة جلال الدولة وملك أبي كاليجار

في هذه السنة،في سادس شعبان، توفّي الملك جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه ببغداد، وكان مرضه ورماً في كبده، وبقي عدة أيّام مريضاً وتوفّي، وكان مولده سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة، وملكه ببغداد ستّ عشرة سنة وأحد عشر شهراً، ودُفن بداره، ومن علم سيرته، وضعفه، واستيلاء الجند والنواب عليه، ودوام ملكه إلى هذه الغاية، علم أنّ اللّه على كلّ شيء قدير يؤتي الملك من يشاء وينزعه ممّن يشاء.

وكان يزور الصالحين، ويقرب منهم، وزار مرّة مشهدَيْ عليّ

والحسين، عليهما السلام، وكان حافياً قبل أن يصل إلى كلّ مشهد منهما، نحو فرسخ، يفعل ذلك تديّناً.

ولمّا توفّي انتقل الوزير كمال الملك بن عبد الرحيم وأصحاب الملك الأكابر إلى باب المراتب، وحريم دار الخلافة، خوفاً من نهب الأتراك والعامّة دورهم، فاجتمع قوّاد العسكر تحت دار المملكة، ومنعوا الناس من نهبها.

ولمّا توفّي كان ولده الأكبر الملك العزيز أبو منصور بواسط، على عادته، فكاتبه الأجناد بالطاعة، وشرطوا عليه تعجيل ما جرتْ به العادة من حقّ البيعة، فترددّت المراسلات بينهم في مقداره وتأخيره لفقده.

وبلغ موته إلى الملك أبي كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة، فكاتب القوّاد والأجناد، ورغّبهم في المال وكثرته وتعجيله، فمالوا إليه وعدلوا(٥١٧/٩)عن الملك العزيز.

وأمّا الملك العزيز فإنّه أصعد إلى بغداد لمّا قرب الملك أبو كاليجار منها، على ما نذكره سنة ستّ وثلاثين[وأربعمائة]، عازماً على قصد بغداد ومعه عسكره، فلمّا بلغ النُّعمانيّة غدر به عسكره ورجعوا إلى واسط، وخطبوا لأبي كاليجار، فلمّا رأى ذلك مضى إلى نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيد، لأنّه بلغه ميل جند بغداد إلى أبي كاليجار، وسار من عند دُبَيْس إلى قرواش بن المقلّد، فاجتمع به بقرية خُصّة من أعمال بغداد، وسار معه إلى الموصل، ثم فارقه وقصد أبا الشوك لأنّه حموه، فلمّا وصل إلى أبي الشوك غدر به، وألزمه بطلاق ابنته، ففعل، وسار عنه إلى إبراهيم ينّال أخي طغرلبك، وتنقّلت به الأحوال، حتّى قدم بغداد في نفر يسير عازماً على استمالة العسكر وأخْذ الملك، فثار به أصحاب الملك أبي كاليجار، فقُتل بعض مَنْ عنده، وسار هو متخفّياً، فقصد نصر الدولة بن مروان فتوفّي عنده بميّافارقين، وحُمل إلى بغداد، ودُفن عند أبيه بمقابر قريش، في مشهد باب التبن سنة إحدى وأربعين[وأربعمائة].

وقد ذكر الشيخ أبو الفرج بن الجوزيّ أنّه آخر ملوك بني بويه، وليس كذلك، فإنّه ملك بعده أبو كاليجار، ثم الملك الرحيم بن أبي كاليجار، وهو آخرهم على ما تراه.

وأمّا الملك أبو كاليجار فلم تزل الرسل تتردّد بينه وبين عسكر بغداد، حتّى استقرّ الأمر له، وحلفوا، وخطوا له ببغداد في صفر من سنة ستّ وثلاثين وأربعمائة، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.(٥١٨/٩)

ذكر حال أبي الفتوح مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين

في هذه السنة سيّر الملك أبو الفتح مودود بن مسعود بن سبكتكين عسكراً مع حاجب له إلى نواحي خُراسان، فأرسل إليهم داود أخو طغرلبك، وهو صاحب خُراسان، ولده ألبْ أرسلان في عسكر، فالتقوا واقتتلوا فكان الظفر للملك ألْب أرسلان، وعاد عسكر غزنة منهزماً.

وفيها أيضاً، في صفر سار جمع من الغُزّ إلى نواحي بُست واقتتلوا قتالاً شديداً انهزم الغُزُّ فيه، وظفر عسكر مودود، فأكثروا فيهم القتل والأسر.

ذكر ملك مودود عدّة حصون من بلد الهند

في هذه السنة اجتمع ثلاثة ملوك من ملوك الهند، وقصدوا لَهاوُور وحصروها، فجمع مقدّم العساكر الإسلاميّة بتلك الديار مَن عنده منهم، وأرسل إلى صاحبه مودود يستنجده، فسيّر إليه العساكر.

فاتّفق أنّ بعض أولئك الملوك فارقهم وعاد إلى طاعة مودود، فرحل الملكان الآخران إلى بلادهما، فسارت العساكر الإسلاميّة إلى أحدهما، ويُعرف بدوبال هرباته، فانهزم منهم، وصعد إلى قاعة له منيعة هو وعساكره، فاحتموا(٥١٩/٩)بها، وكانوا خمسة آلاف فارس وسبعين ألف راجل، وحصرهم المسلمون وضيّقوا عليهم، وأكثروا القتل فيهم، فطلب الهنود الأمان على تسليم الحصن، فامتنع المسلمون من إجابتهم إلى ذلك إلاّ بعد أن يضيفوا إليه باقي حصون ذلك الملك الذي لهم، فحملهم الخوف وعدم الأقوات على إجابتهم إلى ما طلبوا وتسلّموا الجميع وغنم المسلمون الأموال، وأطلقوا ما في الحصون من أسرى المسلمين، وكانوا نحو خمسة آلاف نفر.

فلمّا فرغوا من هذه الناحية قصدوا ولاية الملك الثاني، واسمه تابت، بالرَّيّ، فتقدّم إليهم، ولقيهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وانهزمت الهنود، وأجلت المعركة عن قتل ملكهم وخمسة آلاف قتيل، وجُرح وأُسر ضعفاهم، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم ودوابّهم. فلمّا رأى باقي الملوك من الهند ما لقي هؤلاء أذعنوا بالطاعة، وحملوا الأموال، وطلبوا الأمان والإقرار على بلادهم، فأُجيبوا إلى ذلك.

ذكر الخلف بين الملك أبي كاليجار وفرامرز بن علاء الدولة

في هذه السنة نكث الأمير أبو منصور فرامرز بن علاء الدولة بن كاكوَيْه، صاحب أصبهان، العهد الذي بينه وبين الملك أبي كاليجار، وسيّر عسكراً إلى نواحي كرمان، فملكوا منها حصنَيْن وغنموا ما فيهما.(٥٢٠/٩)

فأرسل الملك أبو كاليجار إليه في إعادتهما وإزالة الاعتراض عنهما، فلم يفعل، فجهّز عسكراً وسيّره إلى أبرْقُوه، فحصرها وملكها، فانزعج فرامرز لذلك، وجهّز عسكراً وسيّره إليهم، فسمع

الملك أبو كاليجار بذلك، فسيّر عسكراً ثانياً مدداً لعسكره الأوّل، والتقى العسكران فاقتتلوا وصبروا، ثمّ انهزم عسكر أصبهان، وأُسر مقدّمهم الأمير إسحاق بن ينّال، واستردّ نوّاب أبي كاليجار ما كانوا أخذوه من كرمان.

ذكر أخبار الترك بما وراء النهر

في هذه السنة، في صفر، أسلم من كفّار الترك الذين كانوا يطرقون بلاد الإسلام بنواحي بَلاسَاغون وكاشْغَر، ويغيرون ويعيثون، عشرة آلاف خركاة، وضحّوا يوم عيد الأضحى بعشرين ألف رأس غنم، وكفى اللّه المسلمين شرّهم.

وكانوا يصيفون بنواحي بُلغار، ويَشتون بنواحي بَلاسَاغون، فلمّا سلموا تفرّقوا في البلاد، فكان في كلّ ناحية ألف خركاة، وأقلّ وأكثر لأمنهم، فإنّهم إنّما كانوا يجتمعون ليحمي بعضهم بعضاً من المسلمين، وبقي من الأتراك من لم يسلم تَتَر وخطا، وهم بنواحي الصين.

وكان صاحب بَلاسَاغون، وبلاد الترك، شرف الدولة، وفيه دين، وقد أقنع من إخوته وأقاربه بالطاعة، وقسم البلاد بينهم، فأعطى أخاه أصلان تكين(٥٢١/٩)كثيراً من بلاد الترك، وأعطى أخاه بغراخان طِراز وأسبيجاب، وأعطى عمّه طغاخان فَرغانة بأسرها، وأعطى ابن عليّ تكين بخارى وسَمَرقند وغيرهما وقنع هو بَلاسَاغون وكاشْغَر.

ذكر أخبار الروم والقسطنطينية

في هذه السنة، في صفر أيضاً، ورد إلى القُسطنطينية عدد كثير من الروس في البحر، وراسلوا قُسطنطين ملك الروم بما لم تجرِ به عادتهم، فاجتمعت الروم على حربهم، وكان بعضهم قد فارق المراكب إلى البرّ، وبعضهم فيها، فألقى الروم في مراكبهم النار، فلم يهتدوا إلى إطفائها، فهلك كثير منهم بالحرق والغرق، وأمّا الذين على البرّ فقاتلوا، وأبلَوا، وصبروا، ثم انهزموا، فلم يكن لهم ملجأ، فمن استسلم أوّلاً استرقّ وسلم، ومن امتنع، حتّى أُخذ قهراً، قطع الروم أيمانهم، وطيف بهم في البلد، ولم يسلم منهم إلاّ اليسير مع ابن ملك الروسيّة، وكُفي الروم شرّهم.

ذكر طاعة المعزّ بإفريقية للقائم بأمر اللّه

في هذه السنة أظهر المعزّ ببلاد إفريقية الدعاء للدولة العبّاسيّة، وخطب للإمام القائم بأمر اللّه، أمير المؤمنين، ووردت عليه الخِلَع والتقليد ببلاد إفريقية وجميع ما يفتحه، وفي أوّل الكتاب الذي مع الرسل: من عبد اللّه ووليّه أبي(٥٢٢/٩)جعفر القائم بأمر اللّه أمير المؤمنين إلى الملك الأوحد، ثقة الإسلام، وشرف الإمام، وعمدة الأنام ناصر دين اللّه، قاهر أعداء اللّه، ومُؤيّد سُنّة رسول اللّه ﷺ أبي تميم المعزّ بن باديس بن المنصور وليّ أمير المؤمنين بولاية جميع المغرب، وما افتتحه بسيف أمير المؤمنين؛ وهو طويل.

وأُرسل إليه سيف وفرس وأعلام على طريق القُسطنطينية، فوصل ذلك يوم الجمعة، فدخل به إلى الجامع، والخطيب ابن الفاكاة على المنبر يخطب الخطبة الثانية، فدخلت الأعلام، فقال: هذا لواء الحمد يجمعكم. وهذا معزّ الدين يسمعكم. وأستغفر اللّه لي ولكم. وقُطعت الخطبة للعلويّين من ذلك الوقت، وأُحرقت أعلامهم.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة جرت حرب بين ابن الهيثم، صاحب البطيحة، وبين الأجناد من الغزّ والديلم، فأحرق الجامدة وغيرها، وخطب الجند للملك أبي كاليجار.

وفيها أرسل الخليفة القائم بأمر اللّه أقضى القضاة أبا الحسن عليّ بن محمّد بن حبيب الماورديّ، الفقيه الشافعيّ، إلى السلطان طغرلبك قبل وفاة جلال الدولة، وأمره أن يقرّر الصلح بين طغرلبك والملك جلال الدولة وأبي كاليجار، فسار إليه وهو بجُرجان، فلقيه طغرلبك على أربعة فراسخ إجلالاً لرسالة الخليفة، وعاد الماوردي سنة ستّ وثلاثين[وأربعمائة] وأخبر عن طاعة طغرلبك للخليفة، وتعظيمه لأوامره ووقوفه عنده.(٥٢٣/٩)وفيها توفّي عبد اللّه بن أحمد بن عثمان بن الفرج بن الأزهر أبو القاسم بن أبي الفتح الأزهريّ الصيرفيّ المعروف بابن السواريّ شيخ الخطباء أبي بكر، وكان إماماً في الحديث، ومن تلامذته الخطيب البغداديّ.(٥٢٤/٩)

سنة سِت وثلاثين وأربعمائة

ذكر قتل الإسماعيلية بما وراء النهر

في هذه السنة أوقع بغراخان، صاحب ما وراء النهر، بجمع كثير من الإسماعيليّة.

وكان سبب ذلك أنّ نفراً منهم قصدوا ما وراء النهر، ودعوا إلى طاعة المستنصر باللّه العلويّ، صاحب مصر، فتبعهم جمع كثير وأظهروا مذاهب أنكرها أهل تلك البلاد.

وسمع ملكها بغراخان خبرهم، وأراد الإيقاع بهم، فخاف أن يسلم منه بعض مَن أجابهم من أهل تلك البلاد، فأظهر لبعضهم أنّه يميل إليهم، ويريد الدخول في مذاهبهم، وأعلمهم ذلك، وأحضرهم مجالسه، ولم يزل حتى علم جميع مَن أجابهم إلى مقالتهم، فحينئذ قتل من بحضرته منهم، وكتب إلى سائر البلاد بقتل من فيها، ففعل بهم ما أمر، وسلمت تلك البلاد منهم.

ذكر الخطبة للملك أبي كاليجار وإصعاده إلى بغداد

قد ذكرنا لمّا توفّي الملك جلال الدولة ما كان من مراسلة الجند الملك أبا كاليجار والخطبة له. فلمّا استقرّت القواعد بينه وبينهم أرسل أموالاً فُرّقت(٥٢٥/٩)على الجند ببغداد، وعلى أولادهم، وأرسل عشرة آلاف دينار للخليفة ومعها هدايا كثيرة، فخُطب له ببغداد في صفر، وخطب له أيضاً أبو الشوك في أولاده، ودُبَيْس بن مَزْيد ببلاده، ونصر الدولة بن مروان بديار بكر، ولقّبه الخليفة محيي الدين، وسار إلى بغداد في مائة فارس من أصحابه لئلاّ تخافه الأتراك.

فلمّا وصل إلى النُعمانيّة لقيه دُبيس بن مَزْيد، ومضى إلى زيارة المشهدين بالكوفة وكَرْبلاء، ودخل إلى بغداد في شهر رمضان ومعه وزيره ذو السعادات أبو الفرج محمّد بن جعفر بن محمّد بن فسانجس، ووعده الخليفة القائم بأمر اللّه أن يستقبله، فاستعفى من ذلك، وأخرج عميد الدولة أبا سعد بن عبد الرحيم وأخاه كمال الملك وزيريْ جلال الدولة من بغداد، فمضى أبو سعد إلى تكريت، زُيّنت بغداد لقدومه، وأمر فخلع على أصحاب الجيوش، وهم: البساسيريّ، والنشاورييّ، والهُمام أبو اللقاء، وجرى من وُلاة العرض تقديم لبعض الجند وتأخير، فشغب بعضهم، وقتلوا واحداً من ولاة العرض بمرأى من الملك أبي كاليجار، فنزل في سُميريّة بكُنْكِوَر، وانحدر خوفاً من انخراق الهيبة، وأصعد بقم الصلح.

وفي رمضان منها توفّي أبو القاسم عليّ بن أحمد الجرجانيّ وزير الظاهر والمستنصر الخليفتَيْن، وكان فيه كفاية، وشهامة، وأمانة، وصلّى عليه المستنصر باللّه.(٥٢٦/٩)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة نزل الأمير أبو كاليجار كرشاسف بن علاء الدولة من كُنْكِوَر وقصد همذان فملكها وأزاح عنها نوّاب السلطان طغرلبك، وخطب للملك أبي كاليجار، وصار في طاعته.

وفيها أمر الملك أبو كاليجار ببناء سور مدينة شيراز، فبُني وأُحكم بناؤه، وكان دوره اثنيْ عشر ألف ذراع، وعرضه ثمانية أذرع، وله أحد عشر باباً، وفُرغ منه سنة أربعين وأربعمائة .

وفيها نُقل تابوت جلال الدولة من داره إلى مشهد باب التبن، إلى تربة له هناك.

وفيها استوزر السلطان طغرلبك وزيره أبا القاسم عليّ بن عبد اللّه الجوينيّ، وهو أوّل وزير وزر له، ثم وزر له بعده رئيس الرؤساء أبو عبد اللّه الحسين بن عليّ بن ميكائيل، ثم وزر له بعده نظام الملك أبو محمد الحسن بن محمّد الدهستانيّ، وهو أوّل من لقّب نظام الملك، ثم وزر له بعده عميد الملك الكندريّ، وهو أشهرهم، وإنّما اشتهر لأنّ طغرلبك، في آيامه، عظمت دولته، ووصل إلى العراق، وخُطب له بالسلطنة، وسيرد من أخباره ما فيه كفاية، فلا حاجة إلى ذكرها هاهنا.

وفيها توفّي الشريف المرتضى أبو القاسم عليّ أخو الرضي في آخر ربيع الأوّل، ومولده سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، وولي نقابة العلويّين بعده أبو أحمد عدنان ابن أخيه الرضي.(٥٢٧/٩)

وفيها توفّي القاضي أبو عبد اللّه الحسين بن عليّ بن محمّد الصيمريّ، وهو شيخ أصحاب أبي حنيفة في زمانه، ومن جملة تلامذته القاضي أبو عبد اللّه الدامغانيّ، ومولده سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، وولّي بعده قضاء الكرخ القاضي أبو الطيّب الطبريّ مضافاً إلى ما كان يتولاّه من القضاء بباب الطاق.

وفيها توفّي القاضي أبو الحسن عبد الوهّاب بن منصور بن المشتري قاضي خُوزستان وفارس، وكان شافعيّ المذهب.

وفيها أيضاً توفّي أبو الحسين محمّد بن علي البصريّ، المتكلّم المعتزليّ، صاحب التصانيف المشهورة.(٥٢٨/٩)

سنة سبع وثلاثين وأربعمائة

ذكر وصول إبراهيم ينّال إلى همذان وبلد الجبل

في هذه السنة أمر السلطان طغرلبك أخاه إبراهيم ينّال بالخروج إلى بلد الجبل وملكها، فسار إليها من كرمان، وقصد همذان، وبها كرشاسف بن علاء الدولة، ففارقها خوفاً، ودخلها ينّال فملكها، والتحق كرشاسف بالأكراد الجوزقان.

وكان أبو الشوك حينئذ بالدّينور، فسار عنها إلى قَرميسين خوفاً وإشفاقاً من ينّال، فقوي طمع ينّال حينئذ في البلاد، وسار إلى الدّينور فملكها ورتّب أمورها، وسار منها يطلب قَرميسين.

فلمّا سمع أبو الشوك به سار إلى حُلوان وترك بقرميسين من في عسكره من الديلم، والأكراد الشاذنجان، ليمنعوها ويحفظوها، ووافاهم ينّال جريدة، فقاتلوه، فدفعوه عنها، فانصرف عنهم وعاد بخركاهاته وحلله، فقاتلوه، فضعفوا عنه وعجزوا عن منعه، فملك البلد في رجب عنوةً وقتل من العساكر جماعة كثيرة، وأخذ أموال من سلم من القتل، وسلاحهم، وطردهم، ولحقوا بأبي الشوك، ونهب البلد وقتل وسبى كثيراً من أهله.(٥٢٩/٩)

ولمّا سمع أبو الشوك ذلك سيّر أهله وأمواله وسلاحه من حُلوان إلى قلعة السّيروان، وأقام جريدة في عسكره، ثم إنّ ينّال سار إلى الصّيْمرة في شعبان، فملكها ونهبها، وأوقع بالأكراد المجاورين لها من الجوزقان، فانهزموا، وكان كرشاسف بن علاء الدولة نازلاً عندهم، فسار هو وهم إلى بلد شهاب الدولة أبي

الفوارس منصور بن الحسين.

ثمّ إنّ إبراهيم ينّال سار إلى حُلوان، وقد فارقها أبو الشوك، ولحق بقلعة السّيروان، فوصل إليها إبراهيم آخر شعبان، وقد جلا أهلها عنها، وتفرّقوا في البلاد، فنهبها وأحرقها، وأحرق دار أبي الشوك، وانصرف بعد أن اجتاحها ودرسها.

وتوجّه طائفة من الغزّ إلى خانقين في أثر جماعة من أهل حُلوان كانوا ساروا بأهليهم وأولادهم وأموالهم، فأدركوهم وظفروا بهم وغنموا ما معهم، وانتشر الغُزّ في تلك النواحي، فبلغوا مايَدَشْتَ وما يليها، فنهبوها وأغاروا عليها.

فلمّا سمع الملك أبو كاليجار هذه الأخبار أزعجته وأقلقته، وكان بخُوزستان، فعزم على المسير، ودفْع يَنّال ومَن معه من الغُزّ عن البلاد، فأمر عساكره بالتجهيز للسفر إليهم، فعجزوا عن الحركة لكثرة ما مات من دوابّهم، فلمّا تحقّق ذلك سار نحو بلاد فارس، فحمل العسكر أثقالهم على الحمير.(٥٣٠/٩)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في المحرّم، خُطب للملك أبي كاليجار، وقصد كَرمان، على ما ذكرناه، والتجأ إلى طاعة طغرلبك، لم يبلغ ما كان يؤمّله من طغرلبك، فلمّا عاد طغرلبك إلى خُراسان خاف أبو منصور من الملك أبي كاليجار فراسله في العود إلى طاعته، فأجابه إلى ذلك واصطلحا.

وفيها اصطلح أبو الشوك وأخوه مُهلهل، وكانا متقاطعين من حين أسر مهلهل أبا الفتح بن أبي الشوك، وحلف له أنّ أبا الفتح توفّي حتف أنفه من غير قتْل، وقال: هذا ولدي تقتله عوضه؛ فرضي أبو الشوك، وأحسن إلى أبي الغنائم، وردّه إلى أبيه، واصطلحا واتّفقا.

وفيها، في جمادى الأولى، خلع الخليفة على أبي القاسم عليّ بن الحسن بن المسلمة، واستوزره، ولقّبه رئيس الرؤساء، وهو ابتداء حاله.

وكان السبب في ذلك أن ذا السعادات بن فسانجس، وزير الملك أبي كاليجار، كان يسيء الرأي في عميد الرؤساء، وزير الخليفة، فطلب من الخليفة أن يعزله، فعزله واستوزر رئيس الرؤساء نيابةً، ثمّ خلع عليه وجلس في الدست.

وفيها، في شعبان، سار سُرخاب بن محمّد بن عنّاز أخو أبي الشوك إلى(٥٣١/٩)البَندنيجَين وبها سعْدي بن أبي الشوك، ففارقها سعدي ولحق بأبيه، ونهب سُرخاب بعضها، وكان أبو الشوك قد أخذ بلد سرخاب ما عدا دَزْدِيلُوية وهما متباينان لذلك.

وفيها، في آخر رمضان، توفّي أبو الشوك فارس بن محمّد بن عنّاز بقلعة السّيروان، وكان مرض لمّا سار إلى السيروان من حلوان، ولمّا توفّي غدر الأكراد بابنه سعدي، وصاروا مع عمّه مهلهل، فعند ذلك مضى سعدي إلى إبراهيم ينّال، وأتى بالغزّ، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

وفيها قُتل عيسى بن موسى الهذبانيّ صاحب إربل، وكان خرج إلى الصيد، فقتله ابنا أخٍ له، وسارا إلى قلعة إربل فملكاها؛ وكان سلار بن موسى، أخو المقتول، نازلاً على قرواش بن القلّد، صاحب الموصل، لنفرة كانت بينه وبين أخيه، فلمّا قُتل سار قرواش مع السلار إلى إربل، فملكها وسلّمها إلى السلار، وعاد قرواش إلى الموصل.

وفيها كانت ببغداد فتنة بين أهل الكرخ وباب البصرة، وقتال اشتدّ قُتل فيه الجماعة.

وفيها وقع البلاء والوباء في الخيل، فهلك من عسكر الملك أبي كاليجار اثنا عشر ألف فرس، وعمّ ذلك البلاء.

وفيها توفّي عليّ بن محمّد بن نصر أبو الحسن الكاتب بواسط، صاحب الرسائل المشهورة.(٥٣٢/٩)

سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة

ذكر ملك مهلهل قرميسين والدينور

في هذه السنة ملك مهلهل بن محمّد بن عنّاز مدينة قرميسين والدينور.

وسبب ذلك أنّ إبراهيم ينّال كان قد استعمل عند عوده من حُلوان على قرميسين بدر بن طاهر بن هلال، فلمّا ملك مهلهل، بعد موت أخيه أبي الشوك، سار إلى مايدشتَ، ونزل بها، ثم توجّه نحو قرميسين، فانصرف عنها بدر، فملكها مهلهل، وسيّر ابنه محمّداً إلى الدينور، وبها عساكر ينّال، فاقتتلوا، فقُتل بين الفريقين جماعة، وانهزم أصحاب ينّال، وملك محمّد البلد.

ذكر اتّصال سعدي بن أبي الشوك بإبراهيم ينّال وما كان منه

في هذه السنة، في شهر ربيع الأوّل، فارق سعدي بن أبي الشوك عمّه مُهلهلاً، ولحق بإبراهيم ينّال فصار معه.(٥٣٣/٩)

وسبب ذلك أنّ عمّه تزوّج أمّه وأهمل جانبه واحتقره، وكذلك أيضاً قصّر في مراعاة الأكراد الشاذنجان، فراسل سعدي إبراهيم ينّال في اللحاق به، فأذن له في ذلك، ووعده أن يملكه ما كان لأبيه، فسار إليه في جماعة من الأكراد الشاذنجان، فقوي بهم، فأكرمه ينّال، وضمّ إليه جمعاً من الغزّ وسيّره إلى حُلوان فملكها،

وخطب فيها لإبراهيم ينّال في شهر ربيع الأوّل، وأقام بها أياماً ورجع إلى مايدشت، فسار عمّه مهلهل إلى حُلوان فملكها، وقطع منها خطبة ينّال.

فلمّا سمع سعدي بذلك سار إلى حُلوان، ففارقها عمّه مهلهل إلى ناحية بلّوطة، وملك سعدي حُلوان وسار إلى عمّه سرخاب فكبسه ونهب ما كان معه، وسيّر جمعاً إلى البندنيجين، فاستولوا عليها وقبضوا على نائب سرخاب بها، ونهبوا بعضها، وانهزم سرخاب، فصعد إلى قلعة دزديلوية، ثم عاد سعدي إلى قرميسين، فسيّر عمّه مهلهل ابنه بدراً إلى حُلوان فملكها، فجمع سعدي وأكثر وعاد إلى حُلوان، ففارقها من كان بها من أصحاب عمّه إلاّ من كان بالقلعة، وملكها سعدي، وكان قد صحبه كثير من الغزّ، فسار بهم منها إلى عمّه مهلهل، وترك بها من يحفظها. فلمّا علم عمّه بقربه منه سار بين يديه إلى قلعة تيرانشاه، بقرب شهرزور، فاحتمى بها، وملك الغُزّ كثيراً من النواحي والمواشي، وغنموا كثيراً من الأموال والدواب.

فلمّا رأى سعدي تحصّن عمّه منه خاف على من خلّفه بحُلوان فعاد عازماً على محاصرة القلعة، فمضى وحصرها، وقاتله من بها من أصحاب عمّه، ونهب الغُزّ حُلوان، وفتكوا فيها وافتضّوا الأبكار، وأحرقوا المساكن، وتفرّق الناس، وفعلوا في تلك النواحي جميعها أقبح فعل.(٥٣٤/٩)

ولمّا سمع أصحاب الملك أبي كاليجار ووزيره هذه الأخبار ندبوا العساكر إلى الخروج إلى مهلهل ومساعدته على ابن أخيه، ودفعه عن هذه الأعمال .

ثمّ إنّ سعدي أقطع أبي الفتح بن ورّام البندنيجين، واتّفقا، واجتمع على قصد عمّه سرخاب بن محمّد بن عنّاز، وحصره بقلعة دزديلوية، فسارا فيمن معهما من العساكر، فلمّا قاربوا القلعة دخلوا في مضيق هناك من غير أن يجعلوا لهم طليعة طمعاً فيه وإدلالاً لقوّتهم، وكان سرخاب قد جعل على رأس الجبل، على فم المضيق، جمعاً من الأكراد، فلمّا دخلوا المضيق لقيهم سرخاب، وكان قد نزل من القلعة، فاقتتلوا، وعادوا ليخرجوا من المضيق، فتقطّرت بهم خيلهم، فسقطوا عنها ورماهم الأكراد الذين على الجبل، فوهنوا وأُسر سعدي وأبو الفتح بن ورّام وغيرهما من الرؤوس، وتفرّق الغُزّ والأكراد من تلك النواحي، بعد أن كانوا قد توطّنوا وملكوها.

ذكر حصار طغرلبك اصبهان

في هذه السنة حصر طغرلبك مدينة أصبهان، وبها صاحبها أبو منصور فرامرز بن علاء الدولة، وضيّق عليه، ولم يظفر من البلد بطائل، ثم اصطلحوا على مالٍ يحمله فرامرز بن علاء الدولة لطغرلبك، وخطب له بأصبهان وأعمالها.(٥٣٥/٩)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة خرج من الترك من بلد التبت خلقٌ لا يحصون كثرةً، فراسلوا أرسلان خان، صاحب بلاساغون، يشكرونه على حسن سيرته في رعيّته، ولم يكن منهم تعرّض إلى مملكته، ولكنّهم أقاموا بها، وراسلهم، ودعاهم إلى الإسلام، فلم يجيبوا، ولم ينفروا منه.

وفيها توفّي أبو الحسن الخيشيّ النحويّ في ذي الحجّة، وله نيّف وتسعون سنة .

وفيها انحدر علاء الدين أبو الغنائم ابن الوزير ذي السعادات إلى البطائح وحصرها، وبها صاحبها أبو نصر بن الهيثم، وضيّق عليه، واجتمع مع جمع كثير.

وفيها، في ذي القعدة، توفّي عبد اللّه بن يوسف أبو محمّد الجوينيّ، والد إمام الحرمين أبي المعالي، وكان إماماً في الشافعيّة، تفقّه على أبي الطيّب سهل بن محمّد الصعلوكيّ، وكان عالماً بالأدب وغيره من العلوم، وهو من بني سنبس، بطن من طيء.(٥٣٦/٩)

سنة تسع وثلاثين وأربعمائة

ذكر صلح الملك أبي كاليجار والسلطان طغرلبك

في هذه السنة أرسل الملك أبو كاليجار إلى السلطان ركن الدين طغرلبك في الصلح، فأجابه إليه، واصطلحا، وكتب طغرلبك إلى أخيه ينّال يأمره بالكفّ عمّا وراء ما بيده، واستقرّ الحال بينهما أن يتزوّج طغرلبك بابنة أبي كاليجار، ويتزوّج الأمير أبو منصور بن أبي كاليجار بابنة الملك داود أخي طغرلبك، وجرى العقد في شهر ربيع الآخر من هذه السنة.

ذكر القبض على سُرْخاب أبي الشوك

في هذه السنة قبض الأكراد اللُّريّة وجماعة من عسكر سُرخاب عليه، لأنّه أساء السيرة معهم ووترهم، فقبضوا عليه، وحملوه إلى إبراهيم ينّال، فقلع إحدى عينيه، وطالبه بإطلاق سعْدي بن أبي الشوك فلم يفعل.(٥٣٧/٩)

وكان أبو العسكر بن سُرخاب قد غاضبه لمّا قبض على سعدي، واعتزله كراهيةً لفعله، فلمّا أُسر أبوه سرخاب سار إلى القلعة وأخرج سعدي ابن عمّه، وفكّ قيوده، وأحسن إليه وأطلقه، وأخذ عليه بطرح ما مضى، والسعي في خلاص والد سُرخاب، فسار سعْدي، واجتمع عليه خلق كثير من الأكراد، ووصل إلى

إبراهيم ينّال، فلم يجد عنده الذي أراد، ففارقه وعاد إلى الدّسكرة، وكاتب الخليفة ونوّاب الملك أبي كاليجار بالعود إلى الطاعة وأقام بها.

ذكر ملك إبراهيم ينّال قلعة كِنْكِوَر وغيرها

في هذه السنة سار إبراهيم ينّال إلى قلعة كِنْكِوَر، وبها عُكبر بن فارس، صاحب كرشاسف، بن علاء الدولة يحفظها له، فامتنع عُكبر بها إلى أن فنيت ذخائره، وكانت قليلة، فلمّا نفدت الذخائر عمد إلى بيوت الطعام التي في القلعة وملأها تراباً وحجارة، وسدّ أبوابها، ونثر من داخل الأبواب شيئاً من طعام، وعلى رأس التراب والحجارة كذلك أيضاً، وراسل إبراهيم في تسليم القلعة إليه، على أن يؤمّنه على من بها من الرجال، وما بها من الأموال، فأرسل إليه إبراهيم يمتنع عليه من ترك المال، فأخذ عُكبر رسول إبراهيم فطوّفه على البيوت التي فيها الطعام، وفتح مواضع من المسدود فرآها مملوءة، فظنّها طعاماً، وقال له عُكبر: ما راسلتُ صاحبك خوفاً من المطاولة، ولا إشفاقاً من نفاد الميرة، لكنّني أحببتُ الدخول في طاعته، فإن بذل لي الأمان على ما طلبته لي وللأمير كرشاسف وأمواله، ولمن بالقلعة، سلّمتُ إليه، وكفيتُهُ مؤونة المقام.

فلمّا عاد الرسول إلى إبراهيم وأخبره أجابه إلى ما طلب، ونزل عُكبر،(٥٣٨/٩)وتسلّمها إبراهيم، فلمّا صعد إلى القلعة انكشفت الحيلة، وسار عُكبر بمن معه إلى قلعة سَرْماج، وصعد إليها.

ولمّا ملك ينّال كِنْكِوَر عاد إلى همذان، فسيّر جيشاً لأخذ قلاع سُرخاب، واستعمل عليهم نسيباً له اسمه أحمد، وسلّم إليه سُرخاباً ليفتح به قلاعه، فسار به إلى قلعة كلكان، فامتنعت عليه، فساروا إلى قلعة دَزْديلوية فحصروها، وامتدّت طائفة منهم إلى البَندَنجيّين فنهبوها في جمادى الآخرة، وفعلوا الأفاعيل القبيحة من النهب والقتل وافتراش النساء والعقوبة على تخليص الأموال، فمات منهم جماعة لشدّة الضرب.

وسارت طائفة منهم إلى أبي الفتح بن ورّام، فانصرفت عنهم خوفاً منهم، وترك حلله بحالها، وقصد أن يشتغلوا بنهب حلله، فيعود عليهم، فلم يعرّجوا على النهب وتبعوه، فلشدّة خوفه أن يظفروا به ويأخذوه قاتلهم، فظفر بهم، وقتل وأسر جماعة منهم، وغنم ما معهم، ورجع الباقون، وأرسل إلى بغداد يطلب نجدةً خوفاً من عودهم، فلم ينجدوه لعدم الهيبة وقلّة إمساك الأمر، فعبر بنو ورّام دجلة إلى الجانب الغربيّ.

ثمّ إنّ الغُزّ أسروا إلى سعدي بن أبي الشوك في رجب، وهو نازل على فرسخَيْن من باجِسْرى، وكبسوه، فانهزم هو ومن معه لا يلوي الأخ على أخيه، ولا الوالد على ولده، فقُتل منهم خلق كثير، وغنم الغُزّ أموالهم، ونهبوا تلك الأعمال، وكان سعدي قد أنزل مالاً من قلعة السّيروان، فوصله تلك الليلة، فغنمه الغُزّ إلاّ قليلاً منه سلم معه، ونجا سعدي من الوقعة بجُرَيْعة الذقن، ونهب فغنمه الغزّ الدّسكرة، وباجِسرى، والهارونيّة، وقصر سابور وجميع تلك الأعمال.

ووصل الخبر إلى بغداد بأنّ إبراهيم ينّال عازم على قصد بغداد، فارتاع(٥٣٩/٩)الناس، واجتمع الأمراء والقوّاد إلى الأمير أبي منصور ابن الملك أبي كاليجار ليجتمعوا ويسيروا إليه ويمنعوه، واتّفقوا على ذلك، فلم يخرج غير خيم الأمير أبي منصور والوزير ونفر يسير، وتخلّف الباقون، وهلك من أهل تلك النواحي المنهوبة خلق كثير، فمنهم مَن قُتل، ومنهم من غرق، ومنهم من قتله البرد.

ووصل سعْدي إلى دَيالى، ثم سار منها إلى أبي الأغرّ دُبيس بن مَزْيد فأقام عنده، ثمّ إنّ إبراهيم ينّال سار إلى السّيروان، فحصر القلعة، وضيّق على من بها، وأرسل سريّة نهبت البلاد، وانتهت إلى مكان بينه وبين تكريت عشرة فراسخ، ودخل بغداد من أهل طريق خُراسان خلق كثير، وذكروا من حالهم ما أبكى العيون، ثمّ سلّمها إليه مستحفظها، بعد أن أمّنه على نفسه وماله، وأخذ منها ينّال من بقايا ما خلّفه سعْدي شيئاً كثيراً، ولمّا فتحها استخلف فيها مقدّماً كبيراً من أصحابه يقال له سَخت كمان، وانصرف إلى حُلوان، وعاد منها إلى همذان ومعه بدر ومالك ابنا مهلهل فأكرمهما.

ثمّ إنّ صاحب قلعة سَرْماجَ توفّي، وهو من ولد بدر بن حسنويه، وسُلّمت القلعة بعده إلى إبراهيم ينّال، وسيّر إبراهيم ينّال وزيره إلى شهرزور فأخذها وملكها، فهرب منه مهلهل، فأبعد في الهرب. ثمّ نزل أحمد على قلعة تيرانشاه وحاصرها، ونقب عليها عدّة نقوب؛ ثمّ إنّ مهلهلاً راسل أهل شهرزور يعدهم بالمسير إليهم في جمع كثير، ويأمرهم بالوثوب بمن عندهم من الغُزّ، ففعلوا وقتلوا منهم، وسمع أحمد بن طاهر، فعاد إليهم وأوقع بهم ونهبهم، وقتل كثيراً منهم.

ثمّ إنّ الغُزّ المقيمين بالبَندَنجيّين ومن معهم ساروا إلى براز الروز،(٥٤٠/٩)وتقدّموا إلى نهر السّليل، فاقتتلوا هم وأبو دُلَف القاسم بن محمّد الجوانيّ قتالاً شديداً ظفر فيه أبو دُلَف، وانهزم الغُزّ وأُخذ ما معهم.

وسار، في ذي الحجّة، جمع من الغزّ إلى بلد عليّ بن القاسم الكرديّ، فأغاروا وعاثوا، فأخذ عليهم المضيق وأوقع بهم وقتل كثير منهم، وارتجع ما غنموه من بلده.

ذكر استيلاء أبي كاليجار على البطيحة

في هذه السنة اشتدّ الحصار من عسكر الملك أبي كاليجار على أبي نصر بن الهيثم، صاحب البطيحة، فجنح إلى الصّلح،

فاشتطّ عليه أبو الغنائم ابن الوزير ذي السعادات، ثم استأمن نفرٌ من أصحاب أبي نصر وملاّحيه إلى أبي الغنائم، وأخبروه بضَعْف أبي نصر، وعزمه على الانتقال من مكانه، فحفظ الطُّرُق عليه، فلمّا كان خامس صفر جرت وقعة كبيرة بين الفريقين، واشتدّ القتال، فظفر أبو الغنائم، فقُتل من البطائحيّين جماعة كثيرة وغرق منهم سفن كثيرة، وتفرّقوا في الآجام، ومضى ابن الهيثم ناجياً بنفسه في زبزب، ومُلكت داره ونُهب ما فيها.

ذكر ظهور الأصفَر وأسره

في هذه السنة ظهر الأصفر التغلبيّ برأس عين، وادّعى أنّه من المذكورين في الكتب، واستغوى قوماً بمخاريق وضعها، وجمع جمعاً وغزا نواحي الروم، (٥٤١/٩) فظفر وغنم وعاد، وظهر حديثه، وقوي ناموسه، وعاودوا الغزْو في عدد أكثر من العدد الأوّل، ودخل نواحي الروم وأوغل، وغنم أضعاف ما غنمه أوّلاً، حتّى بيعت الجارية الجميلة بالثمن البخس.

وتسامع الناس به فقصدوه، وكثر جمعه، واشتدّت شوكته، وثَقُلت على الروم وطأته. فأرسل ملك الروم إلى نصر الدولة بن مروان يقول له: إنّك عالمٌ بما بيننا من الموادعة، وقد فعل هذا الرجل هذه الأفاعيل، فإن كنتَ قد رجعتَ عن المهادنة فعرّفنا لنتدبّر أمرنا بحبسه.

واتّفق، في ذلك الوقت، أن وصل رسولاً من الأصفر إلى نصر الدولة أيضاً، يُنكر عليه ترك الغزو والميل إلى الدّعة، فساءه ذلك أيضاً، واستدعى قوماً من بني نُمير وقال لهم: إنّ هذا الرجل قد أثار الروم علينا، ولا قدرة لنا عليهم؛ وبذل لهم بذلاً على الفتك به، فساروا إليه، فقرّبهم، ولازموه، فركب يوماً غير متحرّز، فأبعد وهم معه، فعطفوا عليه وأخذوه وحملوه إلى نصر الدولة بن مروان، فاعتقله، وتلافى أمر الروم.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة تجدّدت الهدنة بين صاحب مصر وبين الروم، وحمل كلّ واحد منهما لصاحبه هديّة عظيمة.

وفيها كان ببغداد والموصل، وسائر البلاد العراقيّة والجزريّة، غلاء عظيم، حتى أكل الناس الميتة، وتبعه وباء شديد مات في كثير من الناس،(٥٤٢/٩)حتّى خلت الأسواق، وزادت أثمان ما يحتاج إليه المرضى، حتّى بيع المنّ من الشراب بنصف دينار، ومنّ اللوز بخمسة عشر قيراطاً، والرمّانة بقيراطين، والخيارة بقيراط، وأشباه ذلك.

وفيها جمع الأمير أبو كاليجار فنّاخسرو بن مجد الدولة بن بويه جمعاً، وسار إلى آمد، فدخلها، وساعده أهلها، وأوقع بمن كان فيها من أصحاب طغرلبك، فقتل وأسر، وعرف طغرلبك ذلك، فسار عن الرَّيّ قاصداً إليه، ومتوجّهاً إلى قتاله. وفيها توفّي عميد الدولة أبو سَعْد محمّد بن الحسين بن عبدالرحيم بجزيرة ابن عمر في ذي القعدة، وله شعر حسن، ووزر لجلال الدولة عدّة دفعات.

وفيها سيّر المعزّ بن باديس صاحب إفريقية أسطولاً إلى جزائر القُسطنطينيّة، فظفر وغنم وعاد.

وفيها اقتتلت طوائف من تلكاتة، قاتل بعضهم بعضاً، وكان بينهم حرب صبروا فيها، فقُتل منهم خلق كثير.

وفيها قبض الملك أبو كاليجار على وزيره محمّد بن جعفر بن أبي الفرج الملقّب بذي السعادات بن فسانجس، وسجنه، وهرب ولده أبو الغنائم، وبقي الوزير مسجوناً إلى أن مات في شهر رمضان سنة أربعين[وأربعمائة]، وقيل أرسل إليه أبو كاليجار من قتله، وعمره إحدى وخمسون سنة، وللوزير ذي السعادات مكاتبات حسنة، وشعر جيّد منه:

أودّعكم، وإنّي ذو اكتئاب ... وأرحل عنكُمُ، والقلبُ آبي
(٥٤٣/٩)

وإنّ فراقَكُمْ في كلّ حال ... لأوْجَعُ من مفارَقةِ الشّبابِ
أسيرُ، وما ذممتُ لكم جواراً ... ولا ملّت مَنازلكم ركابي
وأشكرُ كلّما أوطنتُ داراً ... لياليَنا القِصار بلا اجتنابِ
وأذكرُكم، إذا هبّت جَنوب ... فتُذكرُني غَرارات النّصابي
لكم منّي المودّةُ في اغترابٍ ... وأنتُم إلْفُ نفسي في اقترابي

وهو أطول من هذا.

ولمّا قُبض ذو السعادات استوزر أبو كاليجار كمالَ الملك أبا المعالي بن عبد الرحيم.

وفيها توفّي أبو القاسم عبد الواحد بن محمّد بن يحيى بن أيّوب المعروف بالمطرّز الشاعر، وله شعر جيّد، فمن قوله في الزّهد:

يا عبدُ كم لكَ مِنْ ذَنْبٍ ومعصيةٍ ... إن كنت ناسيها، فاللّه أحصاها
لا بدّ يا عبدُ مِن يومٍ تُقوم بهِ ... وَوَقفةٍ لك يُدمي القلبَ ذِكراها
إذا عرضتُ على قلبي تذكّرَها ... وساء ظنّي فقلتُ استغفرُ اللاها

وفيها مات أبو الخطّاب الجيليّ الشاعر، ومضى إلى الشام، ولقي المعرّيّ، وعاد ضريراً، وله شعر منه قوله:

ما حكم الحبّ فهو ممتثلُ ... وما جناه الحبيب مُحتمل
تهوى، وتشكو الضّنى، وكلّ هوىً ... لا يُنحل الجسم، فهو متحل

وفيها توفّي أبو محمّد الحسن بن محمّد بن الحسن الخلاّل، الحافظ، ومولده(٥٤٤/٩)سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، سمع أبا بكر القطيعيّ وغيره، ومن أصحابه الخطيب أبو بكر الحافظ.

وفيها قُتل الفقيه أحمد الوَلوالجيّ، وهو من أعيان الفقهاء الحنفيّة، إلاّ أنّه كان يُكثر الوقيعة في الأئمّة والعلماء، وسلك طريق الرياضة، وفسد دماغه، فقُتل بين مرو وسَرْخَس في ذي الحجّة.(٥٤٥/٩)

سنة أربعين وأربعمائة

ذكر رحيل عسكر يَنّال عن تيرانشاه وعود مهلهل إلى شهرزور

قد ذكرنا في السنة المتقدّمة استيلاء أحمد بن طاهر، وزير ينّال، على شهرزور،ومحاصرته قلعة تِيرانشاه، ولم يزل يحاصرها إلى الآن، فوقع في عسكره الوباء وكثر الموت، فأرسل إلى صاحبه ينّال يستمدّه، ويطلب إنجاده، ويعرّفه مهلهل ذلك سيّر أحد أولاده إلى شهرزور، فملكها وانزعج الغُزّ الذين بالسّيروان وخافوا.

ثم سار جمع من عسكر بغداد إلى حُلوان، وحصروا قلعتها، فلم يظفروا بها، فنهبوا تلك الأعمال، وأتوا على ما تخلّف من الغُزّ، فخربت الأعمال بالكليّة، وسار مهلهل ومعه أهله وأمواله إلى بغداد، وبينه وبين بغداد ستّة فراسخ، وسار جمع من عسكر بغداد إلى البَندَنِيجَيْن، وبها جمع من الغُزّ مع عُكبر بن أحمد بن عياض، فتواقعوا، واقتتلوا، فانهزم عسكر بغداد، وقُتل منهم جماعة، وأُسر جماعة قُتلوا أيضاً صبراً.(٥٤٦/٩)

ذكر غزو إبراهيم ينّال الروم

في هذه السنة غزا إبراهيم ينّال الروم، فظفر بهم وغنم.

وكان هذه السنة ذلك أنّ خلقاً كثيراً من الغُزّ بما وراء النهر قدموا عليه، فقال لهم: بلادي تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه، والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم، وتجاهدوا في سبيل اللّه، وتغنموا، وأنا سائرٌ على أثركم، ومساعدٌ لكم على أمركم. ففعلوا.

وساروا بين يديه، وتبعهم، فوصلوا إلى ملازكرد، وأرْزَن الرّوم، وقَالِقَلا، وبلغوا طَرابزُون وتلك النواحي كلّها، ولقيهم عسكر عظيم للروم والأبخاز يبلغون خمسين ألفاً، فاقتتلوا، واشتدّ القتال بينهم، وكانت بينهم عدّة وقائع تارةً يظفر هؤلاء، وتارة هؤلاء، وكان آخر الأمر الظفر للمسلمين، فأكثروا القتل في الروم وهزموهم، وأسروا جماعةً كثيرةً من بطارقتهم، وممّن أُسر قاريط ملك الأبخاز، فبذل في نفسه ثلاثمائة ألف دينار، وهدايا بمائة ألف، فلم يجبه إلى ذلك، ولم يزل يجوس تلك البلاد وينهبها إلى أن بقي بينه وبين القُسطنطينية خمسة عشر يوماً، واستولى المسلمون على تلك النواحي فنهبوها، وغنموا ما فيها، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس، وأخذوا من الدوابّ والبغال والغنائم والأموال ما لا يقع عليه الإحصاء، وقيل إنّ الغنائم حُملت على عشرة آلاف عجلة، وإنّ في جملة الغنيمة تسعة عشر ألف دِرع.

وكان قد دخل بلد الروم جمع من الغُزّ يقدمهم إنسان نسيب طغرلبك، فلم(٥٤٧/٩)يؤثر كبير أثر، وقُتِلَ من أصحابه جماعة، وعاد، ودخل بعده إبراهيم ينّال، ففعل هذا الذي ذكرناه.

ذكر موت الملك أبي كاليجار وملك ابنه الملك الرحيم

في هذه السنة توفّي الملك أبو كاليجار المرزبان بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، رابع جمادى الأولى، بمدينة جَنّاب من كَرمان.

وكان سبب مسيره إليها أنّه كان قد عوّل في ولاية كَرمان حرباً وخراباً على بهرام بن لشكرستان الديلميّ، وقرّر عليه مالاً، فتراخى بهرام في تحرير الأمر، وأحاله إلى المغالطة والمدافعة، فشرع حينئذ أبو كاليجار في إعمال الحيلة عليه، وأخذ قلعة بردسير من يده، وهي معقله الذي يحتمي به ويعوّل عليه، فراسل بعض من بها من الأجناد وأفسدهم، فعلم بهم بهرام فقتلهم، وزاد نفوره واستشعاره، وأظهر ذلك، فسار إليه الملك أبو كاليجار في ربيع الآخر، فبلغ قصر مجاشع، فوجد في حلقه خشونة، فلم يبال بها، وشرب وتصيّد وأكل من كبد غزال مشوي، واشتدّت علّته، ولحقه حمّى، وضعف عن الركوب، ولم يمكنه المقام لعدم الميرة بذلك المنزل، فحُمل في محفّةعلى أعناق الرجال إلى مدينة جناب، وتوفّي بها، وكان عمره أربعين سنة وشهوراً، وكان ملكه بالعراق بعد وفاة جلال الدولة أربع سنين وشهرين ونيّفاً وعشرين يوماً.(٥٤٨/٩)

ولمّا توفّي نهب الأتراك من العسكر الخزائن والسلاح والدوابّ، وانتقل ولده أبو منصور فلاستون إلى مخيّم الوزير أبي منصور، وكان منفرداً عن العسكر، فأقام عنده، فأراد الأتراك نهب الوزير والأمير، فمنعهم الديلم، وعادوا إلى شيراز، فملكها الأمير أبو منصور، واستشعر الوزير، وصعد إلى قلعة خرمة فامتنع بها.

فلمّا وصل خبر وفاته إلى بغداد وبها والده الملك الرحيم أبو نصر خُرّه فيروز، أحضر الجند واستحلفهم، وراسل الخليفة القائم بأمر اللّه في معنى الخطبة له، وتلقيبه بالملك الرحيم، وتردّدت الرسل بينهم في ذلك إلى أن أُجيب إلى ملتمسه سوى الملك الرحيم فإنّ الخليفة امتنع من إجابته وقال: لا يجوز أن يلقّب بأخصّ صفات اللّه تعالى.

واستقرّ ملكه بالعراق، وخُوزستان، والبصرة، وكان بالبصرة أخوه أبو عليّ بن أبي كاليجار، وخلّف أبو كاليجار من الأولاد: الملك الرحيم، والأمير أبا منصور فلاستون، وأبا طالب كامرو، وأبا المظفّر بهرام، وأبا عليّ كيخسرو، وأبا سعد خسروشاه، وثلاثة بنين

أصاغر، فاستولى ابنه أبو منصور على شيراز، وسيّر إليه الملك الرحيم أخاه أبا سعد في عسكر، فملكوا شيراز، وخطبوا للملك الرحيم، وقبضوا على الأمير أبي منصور ووالدته، وكان ذلك في شوّال.(٥٤٩/٩)

ذكر محاصرة العساكر المصريّة مدينة حلب

في جمادى الآخرة وصلت عساكر مصر إلى حلب في جمع كثير فحصروها، وبها معزّ الدولة أبو علوان ثمال بن صالح الكلابيّ، فجمع جمعاً كثيراً بلغوا خمسة آلاف فارس وراجل، فلمّا نزلوا على حلب خرج إليهم ثمال وقاتلهم قتالاً شديداً، وكانوا ظنّوا أنّ أحداً لا يقوم بين أيديهم، رحلوا عن البلد، فاتّفق أنّ تلك الليلة جاء مطر عظيم لم يرَ الناس مثله، فجاءت المدود إلى منزلهم، وبلغ الماء ما يقارب قامتيْن، ولو لم يرحلوا لغرقوا، ثمّ رحلوا إلى الشام الأعلى.

ذكر الخلف بن قرواش والأكراد الحميديّة والهذبانيّة

في هذه السنة اختلف قرواش والأكراد الحميديّة والهذبانيّة، وكان للحميديّة عدّة حصون تجاور الموصل منها العَقْر وما قاربها، وللهذبانيّة قلعة إربل وأعمالها، وكان صاحب العَقْر حينئذ أبا الحسن بن عَيْسَكان الحميديّ، وصاحب إربل أبو الحسن بن موسك الهذبانيّ، وله أخ اسمه أبو عليّ بن موسك فأعانه الحميديّ على أخذ إربل من أخيه أبي الحسن، فملكها منه، وأخذ صاحبها أبا الحسن أسيراً.

وكان قرواش وأخوه زعيم الدولة أبو كامل بالعراق مشغولين، فلمّا عادا(٥٥٠/٩)إلى الموصل وقد سخطا هذه الحالة لم يظهراها، وأرسل قرواش يطلب من الحميديّ والهذبانيّ نجدةً له على نصر الدولة بن مروان. فأمّا أبو عليّ كان صاحب إربل، وأخذ إربل من أخيه أبي عليّ وتسليمها إليه، فإن امتنع أبو عليّ كان عوْناً عليه، فأجاب إلى ذلك، ورهن عليه أهله وأولاده وثلاث قلاع من حصونه إلى أن يتسلّم إربل، وأُطلق من الحبس.

وكان أخ له قد استولى على قلاعه، فخرج إليها وأخذها منه، وعاد إلى قرواش وأخيه زعيم الدولة، فوثقا به، وأطلقا أهله، ثم إنّه راسل أبا عليّ، صاحب إربل، في تسليمها، فأجاب إلى ذلك، وحضر بالموصل ليسلّم إربل إلى أخيه أبي الحسن، فقال الحميديّ لقرواش: إنّني قد وفيتُ بعهدي، فتسلّمان إليّ حصوني؛ فسلمّا إليه قلاعه، وسار هو وأبو الحسن، وأبو عليّ الهذبانيّ إلى إربل ليسلّماها إلى أبي الحسن، فغدرا به في الطريق، وكان قد أحسّ بالشرّ، فتخلّف عنهما، وسيّر معهما أصحابه ليتسلّموا إربل، فقبضا على أصحابه وطلبوه ليقبضوه، فهرب إلى الموصل، وتأكّدت الوحشة حينئذ بين الأكراد وقرواش وأخيه، وتقاطعوا، وأضمر كلّ منهم الشرّ لصاحبه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة سار الملك الرحيم من بغداد إلى خُوزستان، فلقيه مَن بها من الجند وأطاعوه، وفيهم كرشاسف بن علاء الدولة الذي كان صاحب همذان(٥٥١/٩)وكِنْكِور، فإنّه كان انتقل إلى الملك أبي كاليجار، بعد أن استولى ينّال على أعماله، ولمّا مات أبو كاليجار سار الملك العزيز ابن الملك جلال الدولة إلى البصرة طمعاً في ملكها، فلقيه مَن بها من الجند وقاتلوه وهزموه، فعاد عنها، وكان قبل ذلك عند قرواش ثم عند ينّال، ولمّا سمع باستقامة الأمور للملك الرحيم انقطع أمله، ولمّا سار الملك الرحيم عن بغداد كثرت الفتن بها، ودامت بين أهل باب الأزج والأساكفة، وهم السُّنّة، فأحرقوا عقاراً كثيراً.

وفيها سار سعْدي بن أبي الشوك من حلّة دُبيس بن مَزْيد إلى إبراهيم ينّال، بعد أن راسله، وتوثّق منه، وتقرّر بينهما أنّه كلّ ما يملكه سعْدي ممّا ليس بيد ينّال ونوّابه فهو له، فسار سعدي إلى الدّسكرة، وجرى بينه وبين من بها من عسكر بغداد حرب انهزموا[فيها]منه، وملكها وما يليها، فسُيّر إليها عسكرٌ ثان من بغداد، فقتل مقدّمهم وهزمهم، وسار من الدّسكرة وتوسّط تلك الأعمال بالقرب من يعقوبا، ونهب أصحابه البلاد، وخطبوا لإبراهيم ينّال.

وفيها كان ابتداء الوحشة بين معتمد الدولة قرواش بن المقلّد وبين أخيه زعيم الدولة أبي كامل بن المقلّد، فانضاف قريش بن بدران بن المقلّد إلى عمّه قرواش، وجمع جمعاً، وقاتل عمّه أبا كامل، فظفر ونُصر وانهزم أبو كامل، ولم يزل قريش يُغري قرواشاً بأخيه حتّى تأكّدت الوحشة، وتفاقم الشرّ بينهما.(٥٥٢/٩)

وفيها خُطب للأمير أبي العبّاس محمّد بن القائم بأمر اللّه بولاية العهد، ولُقّب ذخيرة الدين، ووليّ عهد المسلمين.

وفيها، في رمضان، قُتل الأمير أقْسُنقُر بهمذان، قتله الباطنيّة لأنّه كان كثير الغزو إليهم، والقتل فيهم، والنهب لأموالهم، والتخريب لبلادهم، فلمّا كان الآن قصد إنساناً من الزهاد ليزوره، فوثب عليه جماعة من الإسماعيليّة فقتلوه.

وفيها توفّي أبو الحسن محمّد بن الحسن بن عيسى بن المقتدر باللّه، وكان من الصالحين ورواة الحديث، وأوصى أن يُدفن بجوار أحمد بن حنبل، ومولده سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة، وأبو طالب محمّد بن محمّد بن غيلان البزّاز، ومولده سنة سبع وأربعين وثلاثمائة، روى عن أبي بكر الشافعيّ وغيره، وتوفّي في شوّال، وهو راوي الأحاديث المعروفة بالغيلانيّات التي خرّجها الدارقطنيّ له، وهي من أعلى الحديث وأحسنه؛ وعبيد اللّه بن عمر ابن أحمد

بن عثمان أبو القاسم الواعظ المعروف بابن شاهين، ومولده سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة.

وفيها كان الغلاء والوباء عامّاً في البلاد جميعها، بمكّة، والعراق، والموصل، والجزيرة، والشام، ومصر وغيرهما من البلاد.

وفيها قُبض بمصر على الوزير فخر الملك صدقة بن يوسف وقُتل، وكان أوّل أمره يهوديّاً فأسلم، واتّصل بالدّزبريّ، وخدمه بالشام، ثم خافه فعاد إلى مصر، وخدم الجرجرائيّ الوزير، وأنفق عليه، فلمّا توفّي الجرجرائيّ استوزره المستنصر إلى الآن، ثم قتله واستوزر القاضي أبا محمّد الحسن بن عبد الرحمن اليازوريّ في ذي القعدة.(٥٥٣/٩)

سنة إحدى وأربعين وأربعمائة

ذكر ظهور الخلف بين قرواش وأخيه أبي كامل وصلحهما

في هذه السنة ظهر الخلف بين معتمد الدولة قرواش وبين أخيه زعيم الدولة أبي كامل ظهوراً آل إلى المحاربة، وقد تقدّم سبب ذلك. فلمّا اشتدّ الأمر، وفسد الحال فساداً لا يمكن إصلاحه، جمع كلّ منهما جمعاً لمحاربة صاحبه، وسار قرواش في المحرّم، وعبر دجلة بنواحي بَلَد، وجاءه سليمان بن نصر الدولة بن مروان، وأبو الحسن بن عَيْسَكان الحُميديّ، وغيرهما من الأكراد، وساروا إلى مَعْلَثَايا فأخربوا المدينة ونهبوها ونزلوا بالمُغِيثية، وجاء أبو كامل فيمن معه من العرب وآل المسيّب، فنزلوا بمرج بابنيثا، وبين الطائفتين نحو فرسخ، واقتتلوا يوم السبت ثاني عشر المحرّم، وافترقوا من غير ظفر، ثم اقتتلوا يوم الأحد كذلك، ولم يلابس الحرب سليمان بن مروان بل كان ناحيةً، ووافقه أبو الحسن الحُميديّ، وساروا عن قرواش، وفارقه جمع من العرب، وقصدوا أخاه، فضعف أمر قرواش، وبقي في حلّته وليس معه إلاّ نفر يسير، فركبت العرب من أصحاب أبي كامل لقصده، فمنعهم، وأسفر الصّبح يوم الاثنين وقد تسرّع بعضهم ونهب بعضاً من عرب قرواش، وجاء أبو كامل إلى قرواش واجتمع به ونقله إلى حلّته، وأحسن عشرته،(٥٥٤/٩)ثم أنفذه إلى الموصل محجوراً عليه وجعل معه بعض زوجاته في دار.

وكان ممّا فتّ في عضد قرواش وأضعف نفسه أنّه كان قد قبض على قوم من الصيّادين بالأنبار لسوء طريقهم وفسادهم، فهرب الباقون منهم، وبقي بعضهم بالسِّنديّة، فلمّا كان الآن سار جماعة منهم إلى الأنبار، وتسلّقوا السور ليلة خامس المحرّم من هذه السنة، وقتلوا حراساً، وفتحوا الباب، ونادوا بشعار أبي كامل، فانضاف إليهم أهلوهم وأصدقاؤهم ومن له هوىً في أبي كامل، فكثروا، وثار بهم أصحاب قرواش، فاقتتلوا فظفروا وقتلوا من أصحاب معتمد الدولة قرواش جماعة، وهرب الباقون، فبلغه خبر استيلاء أخيه، ولم يبلغه عود أصحابه.

ثمّ إنّ المسيّب وأمراء العرب كلّفوا أبا كامل ما يعجز عنه، واشتطّوا عليه، فخاف أن يؤول الأمر بهم إلى طاعة قرواش وإعادته إلى مملكته، فبادرهم إليه، وقبّل يده وقال له: إنّني وإن كنتُ أخاك فإنّني عبدك، وما جرى هذا إلاّ بسبب من أفسد رأيك فيّ، وأشعرك الوحشة منّي، والآن فأنت الأمير وأنا الطائع لأمرك والتابع لك؛ فقال له قرواش: بل أنت الأخ، والأمر لك مسلّم، وأنت أقوم به منّي. وصلح الحال بينهما، وعاد قرواش إلى التصرّف على حكم اختياره.

وكان أبو كامل قد أقطع بلال بن غريب بن مقن حَرَبَى، وأوَانا، فلمّا اصطلح أبو كامل وقرواش أرسلا إلى حَرَبَى من منع بلالاً عنها، فتظاهر بلال بالخلاف عليهما، وجمع إلى نفسه جمعاً وقاتل أصحاب قرواش، وأخذ حَرَبَى وأوَانا بغير اختيارهما، فانحدر قرواش من الموصل إليهما وحصرهما وأخذهما.(٥٥٥/٩)

ذكر مسير الملك الرحيم إلى شيراز وعوده عنها

في هذه السنة، في المحرّم، سار الملك الرحيم من الأهواز إلى بلاد فارس، فوصلها، وخرج عسكر شيراز إلى خدمته، ونزل بالقرب من شيراز ليدخل البلد.

ثمّ إنّ الأتراك الشيرازيّين والبغداديّين اختلفوا، وجَرى بينهم مناوشة استظهر فيها البغداديّون، وعادوا إلى العراق، فاضطرّ الملك الرّحيم إلى المسير معهم، لأنّه لم يكن يثق بالأتراك الشيرازيّة.

وكان ديلم بلاد فارس قد مالوا إلى أخيه فولاستون، وهو بقلعة إصْطَخْر، فهو أيضاً منحرف عنهم، فاضطرّ إلى صحبة البغداديّين فعاد في ربيع الأوّل من هذه السنة إلى الأهواز وأقام بها، واستخلف بأرّجان أخوَيْه أبا سعد، وأبا طالب، ووقع الخلف بفارس، فإنّ الأمير أبا منصور، فولاستون، كان قد خلص وصار بقلعة إصْطَخْر، واجتمع معه جماعة من أعيان العسكر الفارسيّ، فلمّا عاد الملك الرحيم إلى الأهواز انبسط في البلاد، وقصده كثير من العساكر، واستولى على بلاد فارس، ثم سار إلى أرّجان عازماً على قصْد الأهواز وأخْذها.

ذكر الحرب بين البساسيريّ وعُقيل

في هذه السنة سار جمع من بني عُقيل إلى بلد العجم من أعمال العراق وبَادُوريا فنهبوهما، وأخذوا من الأموال الكثير، وكانا في إقطاع البساسيريّ، (٥٥٦/٩) فسار من بغداد بعد عوده من فارس إليهم، فالتقوا هم وزعيم الدولة أبوكامل بن المقلّد، واقتتلوا قتالاً شديداً أبلى الفريقان فيه بلاء حسناً، وصبرا صبراً جميلاً، وقُتل جماعة من الفريقَيْن.

ذكر الوحشة بين طغرلبك وأخيه إبراهيم ينّال

في هذه السنة استوحش إبراهيم ينّال من أخيه السلطان طغرلبك.

وكان سبب ذلك أنّ طغرلبك طلب من إبراهيم ينّال أن يسلّم إليه مدينة هَمَذان والقلاع التي بيده من بلد الجبل، فامتنع من ذلك، واتّهم وزيره أبا عليّ بالسعي بينهما في الفساد، فقبض عليه، وأمر به فضُرب بين يديه، وسَمَلَ إحدى عينَيْه، وقطع شَفَتَيْه، وسار عن طغرلبك، وجمع جمعاً من عسكره، والتقيا، وكان بين العسكرَيْن قتال شديد انهزم[فيه] ينّال وعاد منهزماً، فسار طغرلبك في أثره، فملك قلاعه وبلاده جميعها.

وتحصّن إبراهيم ينّال بقلعة سَرماج، وامتنع على أخيه، فحصره طغرلبك فيها، وكانت عساكره قد بلغت مائة ألف من أنواع العسكر، وقاتله، فملكها في أربعة أيام، وهي من أحصن القلاع وأمنعها، واستنزل ينّال منها مقهوراً، وأرسل إلى نصر الدولة بن مروان يطلب منه إقامة الخطبة له في بلاده، فأطاعه وخطب له في سائر ديار بكر، وراسل ملك الروم طغرلبك، وأرسل إليه هديّة عظيمة، وطلب منه المعاهدة، فأجابه إلى ذلك.

وأرسل ملك الروم إلى ابن مروان يسأله أن يسعى في فداء ملك الأبخاز(٥٥٧/٩)المقدّم ذكره، فأرسل نصر الدولة شيخ الإسلام أبا عبد اللّه بن مروان في المعنى إلى السلطان طغرلبك، فأطلقه بغير فداء، فعظم ذلك عنده وعند ملك الروم، وأرسل عوضه من الهدايا شيئاً كثيراً، وعمّروا مسجد القُسطنطينيّة، وأقاموا فيه الصّلاة والخطبة لطغرلبك، ودان حينئذ الناس كلّهم له، وعظم شأنه وتمكّن ملكه وثبت.

ولما نزل ينّال إلى طغرلبك أكرمه وأحسن إليه، وردّ عليه كثيراً ممّا أخذ منه، وخيّره بين أن يقطعه بلاداً يسير إليها، وبين أن يقيم معه، فاختار المقام معه.

ذكر الحرب بين دُبَيْس بن مَزْيد وعسكر واسط

في هذه السنة كانت حرب شديدة بين نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيد وبين الأتراك الواسطيّين.

وسبب ذلك أنّ الملك الرحيم أقطع نور الدولة حماية نهر الصُلة، ونهر الفَضل، وهما من إقطاع الواسطيّين فسار إليهما ووليهما، فسمع عسكر واسط ذلك فسخطوه، واجتمعوا وساروا إلى نور الدولة ليقاتلوه ويدفعوه عنهما، وأرسلوا إليه يتهدّدونه، فأعاد الجواب يقول: إنّ الملك أقطعني هذا، فتُرسل إليه أنا وأنتم، فبأيّ شيء أمر رضينا به. فسبّوه، وساروا مجدّين إليه، فأرسل إلى طريقهم طائفة من عسكره، فلقوهم، وكمن لهم، فلمّا التقوا استجرّهم(٥٥٨/٩)العرب إلى أن جاوزوا الكمين، وخرج عليهم الكمين فأوقعوا بهم، وقتلوا منهم جماعة كثيرة، وأسروا كثيراً، وجُرح مثلهم، وتمّت الهزيمة على الواسطيّين، وغنم نور الدولة أموالهم ودوابّهم وساروا إلى واسط فنزلوا بالقرب منها.

وأرسل الواسطيّون إلى بغداد يستنجدون جندها، ويبذلون للبساسيريّ أن يدفع عنهم نور الدولة، ويأخذ نهر الصُلة ونهر الفَضل لنفسه.

ذكر وفاة مودود بن مسعود وملك عمّه عبد الرشيد

في هذه السنة، في العشرين من رجب، توفّي أبو الفتح مودود بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، صاحب غزنة، وعمره تسع وعشرون سنة، وملكه تسع سنين وعشرة أشهر، وكان موته بغزنة، وكان قد كاتب أصحاب الأطراف في سائر البلاد، ودعاهم إلى نصرته وإمداده بالعساكر، وبذل لهم الأموال الكثيرة، وتفويض أعمال خُراسان ونواحيها إليهم على قدر مراتبهم، فأجابوا إلى ذلك منهم أبو كاليجار، صاحب أصبهان، فإنّه جمع عساكره وسار في المفازة، فهلك كثير من عسكره، ومرض وعاد.

ومنهم خاقان ملك الترك، فإنّه سار إلى ترمذ، ونهب وخرّب، وصادر أهل تلك الأعمال، وسارت طائفة أخرى ممّا وراء النهر إلى خُوارزم.

وسار مودود من غزنة، فلم يسر غير مرحلة واحدة حتّى عارضه قولنج اشتدّ عليه، فعاد إلى غزنة مريضاً، وسيّر وزيره أبا الفتح عبد الرزّاق بن أحمد الميمَنْديّ إلى سجستان في جيش كثيف لأخذها من الغزّ، واشتدّت العلة(٥٥٩/٩)بمودود فتوفّي، وقام في الملك بعده ولده، فبقي خمسة أيام ثم عدل الناس عنه إلى عمّه عليّ بن مسعود؛ وكان مودود لما ملك قبض على عمّه عبد الرشيد بن محمود وسجنه في قلعة ميدين، بطريق بُست، فلمّا توفّي كان وزيره قد قلوب هذه القلعة، فنزل عبد الرشيد إلى العسكر ودعاهم إلى طاعته، فأجابوه وعادوا معه إلى غزنة، فلمّا قاربها هرب عنها عليّ بن مسعود، وملك عبد الرشيد، واستقرّ الأمر له، ولُقّب شمس دين اللّه سيف الدولة، وقيل جمال الدولة، ودفع اللّه شرّ مودود عن داود، وهذه السعادة التي تقتل الأعداء بغير سلاح ولا أجناد.

ذكر استيلاء البساسيريّ على الأنبار

في هذه السنة أيضاً، في ذي القعدة، ملك البساسيريّ الأنبار، ودخلها أصحابه.

وكان سبب ملكها أن قرواشاً أساء السيرة في أهلها، ومدّ يده إلى أموالهم، فسار جماعة من أهلها غلى البساسيريّ ببغداد، وسألوه أن ينفذ معه عَسْكراً يسلّمون إليه الأنبار، فأجابهم إلى ذلك،

وسيّر معهم جيشاً، فتسلّموا الأنبار، ولحقهم البساسيريّ وأحسن إلى أهلها وعدل فيهم، ولم يمكّن أحداً من أصحابه أن يأخذ رطل الخبز بغير ثمنه، وأقام فيها إلى أن أصلح حالها وقرّر قواعدها وعاد إلى بغداد.(٥٦٠/٩)

ذكر انهزام الملك الرحيم من عسكر فارس

في هذه السنة عاد الملك الرحيم من الأهواز إلى رامهرمز في ذي القعدة، فلمّا وصل إلى وادي الملح لقيه عسكر فارس، واقتتلوا قتالاً شديداً، فغدر بالملك الرحيم بعض عسكره، وانهزم هو وجميع العسكر، ووصل إلى بَصِنّى ومعه أخواه أبو سعد وأبو طالب، وسار منها إلى واسط، وسار عسكر فارس إلى الأهواز، فملكوها وخيّموا بظاهرها.

ذكر عدّة حوادث

وفيها وصل عسكر من مصر إلى حلب، وبها صاحبها ثمال بن صالح بن مرداس، فخافهم لكثرتهم، فانصرف عنها، فملكها المصريّون.

وفيها، في ذي القعدة، ارتفعت سحابة سوداء مظلمة ليلاً، فزادت ظلمتها على ظلمة الليل، وظهر في جوانب السماء كالنار المضطرمة، وهبّت معها ريح شديدة قلعت رواشن دار الخليفة، وشاهد الناس من ذلك ما أزعجهم وخوّفهم، فلزموا الدعاء والتضرّع، فانكشفت في باقي الليل.

وفيها، في شعبان، سار البساسيريّ من بغداد إلى طريق خُراسان وقصد ناحية الدزدار وملكها وغنم ما فيها، وكان سعْدي بن أبي الشوك قد ملكها، وقد عمل لها سوراً وحصّنها، وجعلها معقلاً يتحصّن به، ويدّخر بها كلّ ما يغنمه، فأخذه البساسيريّ جميعه.(٥٦١/٩)

وفيها منع أهل الكرخ من النَّوح، وفعل مل جرت عادتهم بفعله يوم عاشوراء، فلم يقبلوا وفعلوا ذلك، فجرى بينهم وبين السنّة فتنة عظيمة قُتل فيهاوجرح كثير من الناس، ولم ينفصل الشرّ بينهم حتّى عبر الأتراك وضربوا خيامهم عندهم، فكفّوا حينئذ، ثم شرع أهل الكرخ في بناء سور على الكرخ، فلمّا رآهم السُّنّة من القلاّئين ومن يجري مجراهم شرعوا في بناء سور على سوق القلاّئين، وأخرج الطائفتان في العمارة مالاً جليلاً، وجرت بينهما فتن كثيرة، وبطلت الأسواق، وزاد الشرّ، حتّى انتقل كثير من الجانب الغربيّ إلى الجانب الشرقيّ فأقاموا به، وتقدّم الخليفة إلى أبي محمد بن النّسوي بالعبور وإصلاح الحال وكفّ الشرّ، فسمع أهل الجانب الغربيّ ذلك، فاجتمع السُّنّة والشيعة على المنع منه، وأذّنوا في القلاّئين وغيرها بحيّ على خير العمل، وأذّنوا في الكرخ: الصلاة خيرٌ من النوم؛ وأظهروا الترحّم على الصحابة، فبطل عبوره.

وفيها توفّي أبو عبد اللّه محمّد بن عليّ بن عبد اللّه الصُّوريّ الحافظ، كان إماماً صحب عبد الغنيّ بن سعيد، وتخرّج به، ومن تلامذته الخطيب أبو بكر.

وفيها توفّي الملك العزيز أبو بكر منصور بن جلال الدولة، وقد ذكرنا تنقّل الأحوال به فيما تقدّم، وله شعر حسن.

وفيها توفّي أحمد بن محمّد بن أحمد أبو الحسن العتيقيّ، نُسب إلى جدّ له يسمّى عتيقاً، ومولده سنة سبع وستّين وثلاثمائة.

وفيها توفّي أبو القاسم عبد الوهّاب ابن أقضى القضاة أبي الحسن الماروديّ، وكانت شهادته سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وقبلها القاضي في بيت النُّوبة، ولم يفعل ذلك مع غيره، وإنّما فعل معه هذا احتراماً لأبيه.(٥٦٢/٩)

سنة اثنتين وأربعين وأربعمائة

ذكر ملك طغرلبك أصبهان

كان منصور بن علاء الدولة، صاحب أصبهان، غير ثابت على طريقة واحدة مع السلطان طغرلبك، كان يكثر التلوّن معه، تارة يطيعه وينحاز إليه، وتارة ينحرف عنه ويطيع الملك الرحيم، فأضمر له طغرلبك سوءاً، فلمّا عاد هذه الدفعة من خُراسان لأخذ البلاد الجبليّة من أخيه إبراهيم بن ينّال، واستولى عليها، على ما ذكرناه، عدل إلى أصبهان عازماً على أخذها من أبي منصور، فسمع ذلك، فتحصّن ببلده، واحتمى بأسواره، ونازله طغرلبك في المحرّم، وأقام على محاصرته نحو سنة، وكثرت الحروب بينهما، إلاّ أن طغرلبك قد استولى على سواد البلد، وأرسل سريّة من عسكره نحو فارس، فبلغوا إلى البيضاء، فأغاروا على السواد هناك وعادوا غانمين.

ولما طال الحصار على أصبهان، وأخرب أعمالها، ضاق الأمر بصاحبها وأهلها، وأرسلوا إليه يبذلون له الطاعة والمال، فلم يجبهم إلى ذلك، ولم يقنع منهم إلاّ بتسليم البلد، فصبروا حتّى نفدت الأقوات، وامتنع الصبر، وانقطعت الموادّ، واضطرّ الناس حتّى نقضوا الجامع، وأخذوا أخشابه لشدّة الحاجة إلى الحطب، فحيث بلغ بهم الحال إلى هذا الحدّ خضعوا له واستكانوا، وسلّموا البلد إليه فدخله وأخرج أجناده منه وأقطعهم في بلاد الجبل،(٥٦٣/٩)وأحسن إلى الرّعيّة، وأقطع صاحبها أبا منصور ناحيتَيْ يَزْد وأبرقوية، وتمكّن من أصبهان ودخلها في المحرّم من سنة ثلاث وأربعين[وأربعمائة] واستطابها، ونقل ما كان له بالرّيّ من مال وذخائر وسلاح إليها، وجعلها دار مقامه، وخرّب قطعةً من

سورها وقال: وإنما يحتاجُ إلى الأسوار مَن تضعف قوّته، فأما من حِصْنُه عساكره وسيفه فلا حاجة به إليها.

ذكر عود عساكر فارس من الأهواز وعود الرحيم إليها

في هذه السنة، في المحرّم، عادت عساكر فارس التي مع الأمير أبي منصور صاحبها عن الأهواز إلى فارس.

وسبب هذا العود أنّ الأجناد اختلفوا، وشغبوا، واستطالوا وعاد بعضهم إلى فارس بغير أمر صاحبهم، وأقام بعضهم معه، وسار بعضهم إلى الملك الرحيم، وهو بالأهواز، يطلبونه ليعود إليهم، فعاد فيمن عنده من العساكر، وأرسل إلى بغداد يأمر العساكر التي فيها بالحضور عنده ليسير بهم إلى فارس، فلمّا وصل إلى الأهواز لقيه العساكر مقرّين بالطاعة، وأخبروه بطاعة عساكر فارس، وأنّهم ينتظرون قدومه، فدخل الأهواز في شهر ربيع الآخر، فتوقّف بالأهواز ينتظر عساكر بغداد، ثمّ سار عنها إلى عسكر مُكرَم فملكها وأقام بها. (٥٦٤/٩)

ذكر استيلاء زعيم الدولة على مملكة أخيه قرواش

في هذه السنة، في جمادى الأولى، استولى زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلّد على أخيه قرواش، وحجر عليه، ومنعه من التصرّف على اختياره.

وسبب ذلك أنّ قرواشاً كان قد أنف من تحكّم أخيه في البلاد، وأنّه قد صار لا حكم له، فعمل على الانحدار إلى بغداد ومفارقة أخيه، وسار عن الموصل، فشقّ ذلك على بركة وعظم عنده.

ثمّ أرسل إليه نفراً من أعيان أصحابه يشيرون عليه بالعود، واجتماع الكلمة، ويحذّرونه من الفرقة والاختلاف، فلمّا بلّغوه ذلك امتنع عليهم، فقالوا: أنت ممنوع عن فعلك، والرأي لك القبول والعود ما دامت الرغبة إليك؛ فعلم حينئذ أنّه يمنع قهراً، فأجاب إلى العود على شرط أن يسكنوا دار الإمارة بالموصل، وسار معهم. فلمّا قارب حلّة أخيه زعيم الدولة لقيه، وأنزله عنده، فهرب أصحابه وأهله خوفاً، فأمّنهم زعيم الدولة، وحضر عنده وخدمه وأظهر له الخدمة، وجعل عليه من يمنعه من التصرّف على اختياره.

ذكر استيلاء الغُزّ على مدينة فَسا

وفيها، في جمادى الأولى، سار الملك ألب أرسلان بن داود أخي طغرلبك من مدينة مرو بخراسان، وقصد بلاد فارس في المفازة، فلم يعلم به أحد، ولا أعلم عمّه طغرلبك، فوصل إلى مدينة فَسا، وانصرف النائب بها من بين يديه، ودخلها ألب أرسلان فقتل من الديلم بها ألف رجل، وعدداً(٥٦٥/٩)كثيراً من العامّة، ونهبوا ما قدره ألف ألف دينار، وأسروا ثلاثة آلاف إنسان، وكان الأمر عظيماً. فلمّا فرغوا من ذلك عادوا إلى خُراسان ولم يلبثوا خوفاً من طغرلبك أن يرسل إليهم، ويأخذ ما غنموه منهم.

ذكر استيلاء الخوارج على عُمان

في هذه السنة استولى الخوارج المقيمون بجبال عُمان على مدينة تلك الولاية.

وسبب ذلك أن صاحبها الأمير أبا المظفّر ابن الملك أبي كاليجار كان مقيماً بها، ومعه خادم له قد استولى على الأمور، وحكم على البلاد، وأساء السيرة في أهلها، فأخذ أموالهم، فنفروا منه وأبغضوه.

وعرف إنسان من الخوارج يُقال له ابن راشد الحال، فاجتمع من عنده منهم فقصد المدينة، فخرج إليه الأمير أبو المظفّر في عساكره، فالتقوا واقتتلوا، فانهزمت الخوارج وعادوا إلى موضعهم.

وقام ابن راشد مدّة يجمع ويحتشد، ثم سار ثانياً، وقاتله الديلم فأعانه أهل البلد لسوء سيرة الديلم فيها، فانهزم الديلم، وملك ابن راشد البلد وقتل الخادم وكثيراً من الديلم، وقبض على الأمير أبي المظفّر وسيّره إلى جباله مستظهراً عليه، وسجن معه كلّ من خطّ بقلم من الديلم، وأصحاب الأعمال، وأخرب دار الإمارة، وقال: هذه أحقّ دار بالخراب! وأظهر العدل، وأسقط المكوس، واقتصر على رفع عشر ما يَرِد إليهم، وخطب لنفسه، وتلقّب بالراشد باللّه، ولبس الصوف، وبنى موضعاً على شكل مسجد،(٥٦٦/٩)وقد كان هذا الرجل تحرّك أيضاً أيّام أبي القاسم بن مُكرَم وسيّر إليه أبو القاسم من منعه وحصره وأزال طمعه.

ذكر دخول العرب إلى إفريقية

في هذه السنة دخلت العرب إلى إفريقية.

وسبب ذلك أنّ المعزّ بن باديس كان خطب للقائم بأمر اللّه الخليفة العبّاسي وقطع خطبة المستنصر العلويّ، صاحب مصر، سنة أربعين وأربعمائة، فلمّا فعل ذلك كتب إليهم المستنصر العلوي يتهدّده، فأغلظ المعزّ في الجواب.

ثم إنّ المستنصر استوزر الحسن بن عليّ اليازوريّ، ولم يكن من أهل الوزارة، إنّما كان من أهل تبانة والفلاحة، فلم يخاطبه المعزّ كما كان يخاطبه من قبله من الوزراء؛ كان يخاطبهم بعبده فخاطب اليازوريّ بصنيعته، فعظم ذلك عليه فعاتبه فلم يرجع إلى ما يحبّ، فأكثر الوقيعة في المعزّ، وأغرى به المستنصر، وشرعوا في إرسال العرب إلى الغرب، فأصلحوا بني زغبة ورياح، وكان بينهما حروب وحقود، وأعطوهم مالاً،وأمروهم بقصد بلاد القيروان، وملّكوهم كلّ ما يفتحونه ،ووعدوهم بالمدد والعُدد . فدخلت العرب إلى إفريقية، وكتب اليازوريّ إلى المعزّ: أما بعد،

فقد أرسلنا إليكم خيولاً فحولاً. وحملنا عليها رجالاً كهولاً. ليقضي الله أمراً كان مفعولاً...(٥٦٧/٩) فلمّا حلّوا أرض برقة وما ولاها وجدوا بلاداً كثيرة المرعى خالية من الأهل لأنّ زناتة كانوا أهلها، فأبادهم المعزّ، فأقامت العرب بها فاستوطنتها، وعاثوا في أطراف البلاد.

وبلغ ذلك المعزّ فاحتقرهم وكان المعزّ لما رأى تقاعس صنهاجة عن قتال زناتة، اشترى العبيد، وأوسع لهم في العطاء، فاجتمع له ثلاثون ألف مملوك. وكانت عرب زغبة قد ملكت مدينة طرابلس سنة ستّ وأربعين[وأربعمائة]، فتتابعت رياح والأثبج وبني عديّ إلى إفريقية، وقطعوا السبيل وعاثوا في الأرض، وأرادوا الوصول إلى القيروان، فقال مؤنس بن يحيى المرداسيّ: ليس المبادرة عندي برأي ؛ فقالوا: كيف تحب أن تصنع؟ فأخذ بساطاً فبسطه، ثمّ قال لهم: من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشي عليه، قالوا : لا نقدر على ذلك! قال: فهكذا القيروان، خذوها شيئاً فشيئاً حتّى لا يبقى إلاّ القيروان فخذوها حينئذ. فقالوا: إنّك لشيخ العرب وأميرها وأنت المقدّم علينا، ولسنا نقطع أمراً دونك.

ثمّ قدم أمراء العرب إلى المعزّ فأكرمهم وبذل لهم شيئاً كثيراً، فلمّا خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان، بل شنّوا الغارات وقطعوا الطريق، وأفسدوا الزروع، وقطعوا الثمار، وحاصروا المدن، فضاق بالناس الأمر، وساءت أحوالهم، وانقطعت أسفارهم، ونزل بإفريقية بلاء لم ينزل بها مثله قطّ، فحينئذ احتفل المعزّ وجمع عساكره، فكانوا ثلاثين ألف فارس، ومثلها رجّالة، وسار حتّى أتى جندران، وهو جبل بينه وبين القيروان(٥٦٨/٩) ثلاثة أيّام، وكانت عدّة العرب ثلاثة آلاف فارس، فلمّا رأت العرب عساكر صنهاجة والعبيد مع المعزّ هالهم ذلك، وعظم عليهم، فقال لهم مؤنس بن يحيى: ما هذا يوم فرار؛ فقالوا: أين نطعن هؤلاء وقد لبسوا الكزاغندات والمغافر، قال: في أعينهم؛ فسمّي ذلك اليوم يوم العين.

والتحم القتال، واشتدّت الحرب، فاتّفقت صنهاجة على الهزيمة، وترك المعزّ مع العبيد حتّى يرى فعلهم، ويقتل أكثرهم، فعند ذلك يرجعون على العرب، فانهزمت صنهاجة، وثبت العبيد مع المعزّ، فكثر القتل فيهم، فقُتل منهم خلقٌ كثير، وأرادت صنهاجة الرجوع على العرب، فلم يمكنهم ذلك، واستمرّت الهزيمة، وقُتل من صنهاجة أمّة عظيمة، ودخل المعزّ القيروان مهزوماً، على كثرة من معه، وأخذت العرب الخيل والخيام وما فيها من مال وغيره، وفيه يقول بعض الشعراء:

وإنّ ابن باديس لأفضل مالك ... ولكن لعمري ما لديه رجال
ثلاثون ألفاً منهُمُ غلبتْهُمُ ... ثلاثةُ آلفٍ إنّ ذا لَمُحَالُ

ولما كان يوم النحر من هذه السنة جمع المعزّ سبعة وعشرين ألف فارس وسار إلى العرب جريدة، وسبق خبره، وهجم عليهم وهم في صلاة العيد، فركبت العرب خيولهم وحملت، فانهزمت صنهاجة، فقُتل منهم عالم كثير.

ثمّ جمع المعزّ وخرج بنفسه في صنهاجة وزناتة في جمع كثير، فلمّا أشرف على بيوت العرب، وهو قبليّ جبل جندران، انتشب القتال، واشتعلت نيران الحرب وكانت العرب سبعة آلاف فارس، فانهزمت صنهاجة وولّى كلّ رجل منهم إلى منزله، وانهزمت زناتة، وثبت المعزّ(٥٦٩/٩) فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيماً لم يُسمع مثله، ثمّ انهزم وعاد إلى المنصوريّة، وأُحصي من قُتل في صنهاجة ذلك اليوم، فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة.

ثم أقبلت العرب حتّى نزلت بمصلّى القيروان، ووقعت الحرب، فقُتل من المنصوريّة ورقّادة خلق كثير، فلمّا رأى ذلك المعزّ أباحهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء، فلمّا دخلوا استطالت عليهم العامّة، ووقعت بينهم حرب كان سببها فتنة بين إنسان عربيّ وآخر عاميّ وكانت الغلبة للعرب.

وفي سنة أربع وأربعين[وأربعمائة]بني سور زويلة والقيروان، وفي سنة ستّ وأربعين حاصرت العرب القيروان، وملك مؤنس بن يحيى مدينة باجة، وأشار المعزّ على الرعيّة بالانتقال إلى المهديّة لعجزه عن حمايتهم من العرب.

وشرعت العرب في هدم الحصون والقصور، وقطعوا الثمار، وخرّبوا الأنهار، وأقام المعزّ والناس ينتقلون إلى المهديّة إلى سنة تسع وأربعين، فعندها انتقل المعزّ إلى المهديّة في شعبان، فتلقّاه ابنه تميم، ومشى بين يديه، وكان أبوه قد ولاّه المهديّة سنة خمس وأربعين فأقام بها إلى أن قدم أبوه الآن.

وفي رمضان من سنة تسع وأربعين نهبت العرب القيروان.

وفي سنة خمسين خرج بُلكّين ومعه العرب لحرب زناتة، فقاتلهم فانهزمت زناتة وقُتل منها عدد كثير.

وفي سنة ثلاث وخمسين وقعت الحرب بين العرب وهوارة، فانهزمت هوارة وقُتل منها الكثير.

وفي سنة ثلاث وخمسين قتل أهل تقيوس من العرب مائتين وخمسين رجلاً، وسبب ذلك أنّ العرب دخلت المدينة متسوّقة، فقتل رجل من العرب رجلاً متقدّماً من أهل البلد لأنّه سمعه يثني على المعزّ ويدعو له، فلمّا قُتل(٥٧٠/٩) ثار أهل البلد بالعرب فقتلوا منهم العدد المذكور.

وكان ينبغي أن يأتي كلّ شيء من ذلك في السنة التي حدث

فيها، وإنّما أوردناه متتابعاً ليكون أحسن لسياقته، فإنّه إذا انقطع وتخلّلته الحوادث في السنين لم يُفهم.

ذكر عدّة حوادث

فيها سار المهلهل بن محمّد بن عنّاز أخو أبي الشوك إلى السلطان طغرلبك، فأحسن إليه وأقرّه على إقطاعه، ومن جملته السّيروان، ودقوقا، وشهرزور، والصامغان، وشفّعه في أخيه سُرخاب بن محمّد بن عنّاز، وكان محبوساً عند طغرلبك، وسار سُرخاب إلى قلعة الماهكي، وهي له، وأقطع سعدي بن أبي الشوك الراوندين.

وفيها قبض المستنصر بمصر على أبي البركات عمّ أبي القاسم الجرجرائيّ، واستوزر القاضي أبا محمّد الحسن بن عبد الرحمن اليازوريّ، ويزور من أعمال الرملة.

وفيها توفّي محمّد بن أحمد بن محمّد بن عبد اللّه بن عبد الصمد بن المهتدي باللّه أبو الحسين، ومولده سنة أربع وثمانين وثلاثمائة.

وفيها، في شعبان، توفّي أبو الحسن عليّ بن عمر القزوينيّ، الزاهد، وكان من الصالحين، روى الحديث، والحكايات، والأشعار، وروى عن ابن نباتة شيئاً من شعره، فمن ذلك قال ابن نباتة: (٩/٥٧١)

وإذا عجزت عن العدوّ فداره ... وامزُجْ له إنّ المزاجَ وفاقُ
فالنارُ بالماء الذي هو ضدُّها ... تعطي النّضاج وطَبْعُها الإحراقُ

وفيها، في ذي القعدة، توفّي أبو القاسم عمر بن ثابت النحويّ الضرير، المعروف بالثمانينيّ(٩/٥٧٢)

سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة

ذكر نهب سرّق والحرب الكائنة عندها وملك الرحيم رامهرمز

وفيها، في المحرّم، اجتمع جمع كثير من العرب والأكراد، وقصدوا سرّق من خُوزستان، ونهبوها، ونهبوا دورق، ومقدّمهم مطارد بن منصور، ومذكور بن نزار، فأرسل إليهم الملك الرحيم جيشاً، ولقوهم بين سرّق ودورق، فاقتتلوا، فقُتل مطارد وأُسر ولده، وكثر القتل فيهم، واستنقذوا ما نهبوه، ونجا الباقون على أقبح صورة من الجراح والنهب، فلمّا تمّ هذا الفتح للملك الرحيم انتقل من عسكر مكرَم متقدّماً إلى قنطرة أربق، ومعه دُبَيْس بن مَزْيد والبساسيريّ وغيرهما.

ثم إنّ الأمير أبا منصور، صاحب فارس، وهزارسب بن بنكير، ومنصور بن الحسين الأسديّ، ومن معهما من الديلم والأتراك، ساروا من أرّجان يطلبون تستر، فسابقهم الرحيم إليها، وحال بينهم وبينها، والتقت الطلائع، فكان الظفر لعسكر الرحيم.

ثمّ إنّ الإرجاف وقع في عسكر هزارسب وفاة الأمير أبي منصور ابن الملك أبي كاليجار بمدينة شيراز، فسُقط في أيديهم وعادوا، وقصد كثير منهم الملك الرحيم فصاروا معه، فسيّر قطعة من الجيش إلى رامهرمز، وبها(٩/٥٧٣)أصحاب هزارسب، وقد أفسدوا في تلك الأعمال، فلمّا وصل إليها عسكر الرحيم خرج أولئك إلى قتالهم، فاقتتلوا قتالاً شديداً أُكثر فيه القتل والجراح، ثم انهزم أصحاب هزارسب فدخلوا البلد وحُصروا فيه، ثم ملك البلد عنوةً، ونهب وأسر جماعة من العساكر التي فيه، وهرب كثير منهم إلى هزارسب، وهو بإيذج، وملك الملك الرحيم البلد في ربيع الأوّل من هذه السنة.

ذكر ملك الملك الرحيم إصطخر وشيراز

في هذه السنة سيّر الملك الرحيم أخاه الأمير أبا سعد في جيش إلى بلاد فارس.

وكان سبب ذلك أنّ المقيم في قلعة إصطخر، وهو أبو نصر بن خسرو، كان له أخوان قبض عليهما هزارسب بن بنكير بأمر الأمير أبي منصور، فكتب إلى الملك الرحيم يبذل له الطاعة والمساعدة، ويطلب أن يسيّر إليه أخاه ليملّكه بلاد فارس، فسيّر إليه أخاه أبا سعد في جيش، فوصل إلى دولتاباذ، فأتاه كثير من عساكر فارس الديلم، والترك، والعرب، والأكراد، وسار منها إلى قلعة إصطخر، فنزل إليه صاحبها أبو نصر فلقيه وأصعده إلى القلعة، وحمل له وللعساكر التي معه الإقامات والخِلع وغيرها.

ثم ساروا منها إلى قلعة بهندر فحصروها، وأتاه كتب بعض مستحفظي البلاد الفارسيّة بالطّاعة، منها مستحفظ درابجرد وغيرها، ثم سار إلى شيراز فملكها في رمضان، فلمّا سمع أخوه الأمير أبو منصور، وهزارسب، ومنصور بن الحسين الأسديّ ذلك، ساروا في عسكرهم إلى الملك(٩/٥٧٤)الرحيم فهزموه، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى، وفارق الأهواز إلى واسط، ثم عطفوا من الأهواز إلى شيراز لإجلاء الأمير أبي سعد عنها، فلمّا قاربوها لقيهم أبو سعد وقاتلهم فهزمهم، فالتجؤوا إلى جبل قلعة بَهَنْدَر، وتكرّرت الحروب بين الطائفتيْن إلى منتصف شوّال، فتقدّمت طائفة من عسكر أبي سعد فاقتتلوا عامّة النهار ثمّ عادوا، فلمّا كان الغد التقى العسكران جميعاً واقتتلوا، فانهزم عسكر الأمير أبي منصور، وظفر أبو سعد، وقتل منهم خلقاً كثيراً، واستأمن إليه كثيرٌ منهم، وصعد أبو منصور إلى قلعة بهندر واحتمى بها، وأقام إلى أن عاد إلى ملكه، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ولما فارق الأمير أبو منصور الأهواز أُعيدت الخطبة للملك

الرحيم، وأرسل من بها من الجند يستدعونه إليهم.

ذكر انهزام الملك الرحيم بالأهواز

لما انصرف الأمير أبو منصور، وهزارسب، ومن معهما من منزلهم قريب تستر، على ما ذكرناه، مضوا إلى إيذج وأقاموا فيها، وخافوا الملك الرحيم واستضعفوا نفوسهم عن مقاومته، فاتّفق رأيهم على أن راسلوا السلطان طغرلبك، وبذلوا له الطاعة، وطلبوا منه المساعدة، فأرسل إليهم عسكراً كثيراً، وكان قد ملك أصبهان، وفرغ باله منها.

وعرف الملك الرحيم ذلك، وقد فارقه كثير من عسكره، منهم: البساسيريّ ونور الدولة دبَيْس بن مَزْيد، والعرب، والأكراد، وبقي في الديلم الأهوازيّة وطائفة قليلة من الأتراك البغداديّين كانوا قد وصلوا إليه أخيراً، فقرّر رأيه على أن(٥٧٥/٩)عاد من عسكر مكرم إلى الأهواز لأنّها أحصن، وينتظر بالمقام فيها وصول العساكر، ورأى أن يرسل أخاه الأمير أبا سعد إلى فارس، حيث طلب إلى إصطخر، على ما ذكرناه، وسيّر معه جمعاً صالحاً من العساكر ظنّاً منه أنّ أخاه إذا وصل إلى فارس ومُلكت قلعة إصطخر انزعج الأمير أبو منصور، وهزارسب، ومن معهما، واشتغلوا بتلك النواحي عنه، فازداد قلقاً وضعفاً، فلم يلتفت أولئك إلى الأمير أبي سعد بل ساروا مجدّين إلى الأهواز، فوصلوها أواخر ربيع الآخر .

ووقعت الحرب بين الفريقين يومين متتابعين كثر فيهما القتال واشتدّ، فانهزم الملك الرحيم، وسار في نفر قليل إلى واسط، ولقي في طريقه مشقّة وسلم واستقرّ بواسط في من لحق به من المنهزمين، ونهبت الأهواز، وأحرق فيها عدّة محال، وفُقد في الوقعة الوزير كمال الملك أبو المعالي بن عبد الرحيم، وزير الملك الرحيم، فلم يُعرف له خبر.

ذكر الفتنة بين العامّة ببغداد وإحراق المشهد على ساكنيه السلام

في هذه السنة، في صفر، تجدّدت الفتنة ببغداد بين السُّنّة والشيعة وعظمت أضعاف ما كانت قديماً، فكان الاتّفاق الذي ذكرناه في السنة الماضية غير مأمون الانتقاض، لما في الصدور من الإحن.(٥٧٦/٩)

وكان سبب هذه الفتنة أنّ أهل الكرخ شرعوا في عمل باب السمّاكين وأهل القلاّئين في عمل ما بقي من باب مسعود، ففرغ أهل الكرخ، وعملوا أبراجاً كتبوا عليها بالذهب: محمّد وعليّ خير البشر؛ وأنكر السُّنّة ذلك وادّعوا أن المكتوب : محمد وعليّ خير البشر فمن رضي فقد شكر، ومن أبى فقد كفر؛ وأنكر أهل الكرخ الزيادة وقالوا ما تجاوزنا ماجرت به عادتنا في ما نكتبه على مساجدنا. فأرسل الخليفة القائم بأمر اللّه أبا تمام نقيب العبّاسيّين ونقيب العلويّين، وهو عدنان بن الرضيّ، لكشف الحال وإنهائه، فكتبا بتصديق قول الكرخيّين، فأمر حينئذ الخليفة ونوّاب الرحيم بكفّ القتال، فلم يقبلوا؛ وانتدب ابن المذهب القاضي، والزهير، وغيرهما من الحنابلة أصحاب عبد الصمد[أن] يحمل العامّة على الإغراق في الفتنة، فأمسك نوّاب الملك الرحيم عن كفّهم غيظاً من رئيس الرؤساء لميله إلى الحنابلة، ومنع هؤلاء السُّنّة من حمل الماء من دجلة إلى الكرخ، وكان نهر عيسى قد انفتح بثقُهُ، فعظم الأمر عليهم، وانتدب جماعة منهم وقصدوا دجلة وحملوا الماء وجعلوه في الظروف وصبّوا عليه ماء الورد، ونادوا: الماء للسبيل؛ فأغروا بهم السنة.

وتشدّد رئيس الرؤساء على الشيعة، فمحوا: خير البشر، وكتبوا : عليهما السلام، فقالت السُّنّة: لا نرضى إلاّ أن يقلع الآجر الذي عليه محمّد وعليّ وأن لا يُؤذّن:حيّ على خير العمل؛ وامتنع الشيعة من ذلك، ودام القتال إلى ثالث ربيع الأوّل، وقُتل فيه رجل هاشميّ من السُّنّة، فحمله أهله على نعش، وطافوا به في الحربيّة، وباب البصرة، وسائر محالّ السُّنّة، واستنفروا الناس(٥٧٧/٩)للأخذ بثأره، ثم دفنوه عند أحمد بن حنبل، وقد اجتمع معهم خلق كثير أضعاف ما تقدّم.

فلمّا رجعوا من دفنه قصدوا مشهد باب التبن فأُغلق بابه، فنقبوا في سوره وتهدّدوا البوّاب، فخافهم وفتح الباب فدخلوا ونهبوا ما في المشهد من قناديل ومحاريب ذهب وفضّة وستور وغير ذلك، ونهبوا ما في الترب والدور، وأدركهم الليل فعادوا.

فلمّا كان الغد كثر الجمع، فقصدوا المشهد، وأحرقوا جميع الترب والأزاج، واحترق ضريح موسى، وضريح ابن ابنه محمّد بن عليّ، والجوار، والقبّتان السّاج اللتان عليهما، واحترق ما يقابلهما ويجاورهما من قبور ملوك بني بويه، معزّ الدولة، وجلال الدولة، ومن قبور الوزراء والرؤساء، وقبر جعفر بن أبي جعفر المنصور، وقبر الأمير محمّد بن الرشيد، وقبر أمّه زبيدة، وجرى من الأمر الفظيع ما لم يجرِ في الدنيا مثله.

فلمّا كان الغد خامس الشهر عادوا وحفروا قبر موسى بن جعفر ومحمّد بن عليّ لينقلوهما إلى مقبرة أحمد بن حنبل فحال الهدم بينهم وبين معرفة القبر، فجاء الحفر إلى جانبه.

وسمع أبو تمّام نقيب العبّاسيّين وغيره من الهاشميّين السُّنّة الخبر، فجاؤوا ومنعوا عن ذلك، وقصد أهل الكرخ إلى خان الفقهاء الحنفيّين فنهبوه، وقتلوا مدرّس الحنفيّة أبا سعد السرخسيّ، وأحرقوا الخان ودور الفقهاء. وتعدّت الفتنة إلى الجانب الشرقيّ، فاقتتل أهل باب الطاق وسوق بجّ، والأساكفة، وغيرهم.

ولما انتهى خبر إحراق المشهد إلى نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيد

عظم عليه(٥٧٨/٩) واشتدّ وبلغ منه كلّ مبلغ لأنّه وأهل بيته وسائر أعماله من النيل، وتلك الولاية كلّهم شيعة، فقُطعت في أعماله خطبة الإمام القائم بأمر اللّه، فروسل في ذلك وعوتب، فاعتذر بأنّ أهل ولايته شيعة، واتّفقوا على ذلك، فلم يمكنه أن يشقّ عليهم كما أن الخليفة لم يمكنه كفّ السفهاء الذين فعلوا بالمشهد ما فعلوا، وأعاد الخطبة إلى حالها.

ذكر عصيان بني قرّة على المستنصر باللّه بمصر

في هذه السنة، في شعبان، عصى بنو قرّة بمصر على المستنصر باللّه الخليفة العلويّ.

وكان سبب ذلك أنّه أمّر عليهم رجلاً منهم يقال له المقرّب، وقدّمه، فنفروا من ذلك وكرهوه واستعفوا منه، فلم يعزله عنهم، فكاشفوا بالخلاف والعصيان، وقاموا بالجيزة مقابل مصر، وتظاهروا بالفساد، فعبّر إليهم المستنصر باللّه جيشاً يُقاتلُهم ويكفّهم، فقاتلهم بنو قرّة فانهزم الجيش، وكثُر القتل فيهم، فانتقل بنو قرّة إلى طرف البر، فعظم الأمر على المستنصر باللّه، وجمع العرب من طيء، وكلب، وغيرهما من العساكر، وسيّرهم في أثر بني قرّة، فأدركوهم بالجيزة، فواقعوهم في ذي القعدة، واشتدّ القتال، وكثر القتل في بني قرّة، وانهزموا وعاد العسكر إلى مصر، وتركوا في مقابل بني قرّة طائفة منهم لتردّ بني قرّة إن أرادوا التعرّض للبلاد، وكفى اللّه شرّهم.(٥٧٩/٩)

ذكر وفاة زعيم الدولة وإمارة قريش بن بدران

في هذه السنة، في شهر رمضان، توفّي زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلّد بتكريت، وكان انحدر إليها في حلله قاصداً نحو العراق لينازع النوّاب به عن الملك الرحيم، وينهب البلاد، فلمّا بلغها انتقض عليه جرح كان أصابه من الغُزّ لما ملكوا الموصل، فتوفّي، ودفن بمشهد الخضر بتكريت.

واجتمعت العرب من أصحابه على تأمير علم الدين أبي المعالي قريش بن بدران بن المقلّد، فعاد بالحلل والعرب إلى الموصل، وأرسل إلى عمّه قرواش، وهو تحت الاعتقال، يعلمه بوفاة زعيم الدولة، وقيامه بالإمارة، وأنّه يتصرّف على اختياره، ويقوم بالأمر نيابةً عنه. فلمّا وصل قريش إلى الموصل جرى بينه وبين عمّه قرواش منازعة ضعف فيها قرواش، وقوي ابن أخيه، ومالت العرب إليه واستقرّت الإمارة له، وعاد عمّه إلى ما كان عليه من الاعتقال الجميل، والاقتصار به على قليل من الحاشية والنساء والنفقة، ثم نقله إلى قلعة الجراحيّة من أعمال الموصل، فاعتقل بها.

ذكر عدّة حوادث

ظهر ببغداد يوم الأربعاء، سابع صفر وقت العصر، كوكب غلب نوره على نور الشمس، وله ذؤابة نحو ذراعَيْن، وسار سيراً بطيئاً ثمّ انقضّ، والناس يشاهدونه.(٥٨٠/٩)

وفيها، في رمضان، ورد رسل السلطان طغرلبك إلى الخليفة جواباً عن رسالة الخليفة إليه، وشكراً لإنعام الخليفة عليه بالخِلع والألقاب، وأرسل معه طغرلبك إلى الخليفة عشرة آلاف دينار عيناً، وأعلاقاً نفيسة من الجواهر، والثياب، والطيب، وغير ذلك، وأرسل خمسة آلاف دينار للحاشية، وألفيْ دينار لرئيس الرؤساء، وأنزل الخليفة الرسل بباب المراتب، وأمر بإكرامهم، ولما جاء العيد أظهر أجناد بغداد الزينة الرائقة، والخيول النفيسة، والتجافيف الحسنة، وأرادوا إظهار قوّتهم عند الرسل.

وفيها عاد الغُزّ أصحاب الملك داود أخي طغرلبك عن كرمان، وسبب عودهم أن عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين، صاحب غزنة، سار عنها إلى خراسان، فالتقى هو والملك داود، واقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزم داود، فاقتضى الحال عود أصحابه عن كرمان.

وفيها أيضاً عاد السلطان طغرلبك من أصبهان إلى الرَّيّ.

وفيها توفّي أبو كاليجار كرشاسف بن علاء الدولة بن كاكوَيْه بالأهواز، وكان قد استخلفه بها الأمير أبو منصور عند عوده عنها إلى شيراز، فلمّا توفّي خطب للملك الرحيم بالأهواز.

وفيها توفّي أبو عبد اللّه الحسين بن المرتضى الموسويّ.

وفيها، في ربيع الأوّل، توفّي أبو الحسن محمّد بن محمّد البصروي الشاعر، وهو منسوب إلى قرية تسمّى بُصرى قريب عُكبرا، وكان صاحب نادرة، قال له رجل: شربتُ البارحة ماءً كثيراً، فاحتجتُ إلى القيام كلّ ساعة كأنّي جدي؛ فقال له: لِمَ تصغّر نفسك؟ ومن شعره: (٥٨١/٩)

تـرى الدنيـا وزينتهـا فتصبـو ... ومـا يخلـو مـن الشـهوات قلـبُ
فضـولُ العيـش أكثرُهـا همـومٌ ... وأكـثرُ مـا يضـرّك مـا تحـبُّ
فـلا يَغْـرُرْك زخـرف مـا تـراه ... وعيـشٌ لَيّـنُ الأعطـافِ رَطْـبُ
إذا مـا بُلغـةٌ جـاءتكَ عفـواً ... فخذهـا، فـالغنى مَرْعـىً وشُـربُ
إذا اتّفـق القليـلُ وفيـه سِـلمٌ ... فـلا تُـردِ الكثـير وفيـه حـربُ

(٥٨٢/٩)

سنة أربع وأربعين وأربعمائة

ذكر قتل عبد الرشيد صاحب غزنة وملك فرّخ زاد

في هذه السنة قُتل عبد الرشيد بن محمود بن سبكتكين

صاحب غزنة.

وكان سبب ذلك أنّ حاجباً لمودود ابن أخيه مسعود، اسمه طُغرل، وكان مودود قد قدّمه، ونوّه باسمه، وزوّجه أخته، فلمّا توفّي مودود وملك عبد الرشيد أجرى طغرل على عادته في تقدّمه، وجعله حاجب حُجّابه، فأشار عليه طغرل بقصد الغُزّ وإجلائهم من خراسان، فتوقّف استبعاداً لذلك، فألحّ عليه طغرل، فسيّره في ألف فارس، فسار نحو سجستان، وبها أبو الفضل نائباً عن بيغو، فأقام طغرل على حصار قلعة طاق، وأرسل إلى أبي الفضل يدعوه إلى طاعة عبد الرشيد، فقال له: إنّني نائب عن بيغو، وليس من الدين والمروءة خيانته، فاقصده، فإذا فرغت منه سلّمت إليك. فقام على حصار طاق أربعين يوماً فلم يتهيّأ له فتحها؛ وكتب أبو الفضل إلى بيغو يعرّفه حال طغرل، فسار إلى سجستان ليمنع عنها طغرل.

ثمّ إنّ طغرل ضجر من مقامه على حصار طاق فسار نحو مدينة سجستان، فلمّا كان على نحو فرسخ منها كمن بحيث لا يراه أحد لعلّة يجدها، وفرصة ينتهزها، فسمع أصوات دبادب وبوقات، فخرج وسأل بعض من على(٥٨٣/٩)الطريق، فأخبره أن بيغو قد وصل، فعاد إلى أصحابه وأخبرهم وقال لهم: ليس لنا إلاّ أن نلتقي القوم ونموت تحت السيوف أعزّة، فإنّه لا سبيل لنا إلى الهرب لكثرتهم وقلّتنا. فخرجوا من مكمنهم، فلمّا رآهم بيغو سأل أبا الفضل عنهم، فأخبره أنّه طغرل، فاستقلّ من معه، وسيّر طائفة من أصحابه لقتالهم، فلمّا رآهم طغرل لم يعرّج عليهم بل أقحم فرسه نهراً هناك فعبره، وقصد بيغو ومن معه، فقاتلهم، وهزمهم طغرل وغنم ما معهم، ثمّ عطف على الفريق الآخر، فصنع بهم مثل ذلك، وأمّ بيغو وأبو الفضل نحو هراة، وتبعهم طغرل نحو فرسخين، وعاد إلى المدينة فملكها، وكتب إلى عبد الرشيد بما كان منه، ويطلب الإمداد ليسير إلى خراسان، فأمدّه بعدّة كثيرة من الفرسان، فوصلوا إليه، فاشتدّ بهم وأقام مديدة.

ثمّ حدّث نفسه بالعود إلى غزنة والاستيلاء عليها، فأعلم أصحابه ذلك، وأحسن إليهم، واستوثق منهم، ورحل إلى غزنة طاوياً للمراحل كاتماً أمره، فلمّا سار على خمسة فراسخ من غزنة أرسل إلى عبد الرشيد مخادعاً له يُعلمه أن العسكر خالفوا عليه، وطلبوا الزيادة في العطاء، وأنّهم عادوا بقلوب متغيّرة مستوحشة. فلمّا وقف على ذلك جمع أصحابه وأهل ثقته وأعلمهم الخبر، فحذّروه منه، وقالوا له إنّ الأمر قد أعجل عن الاستعداد، وليس غير الصعود إلى القلعة والتحصن بها. فصعد إلى قلعة غزنة وامتنع بها.

ووافى طغرل من الغد إلى البلد، ونزل في دار الإمارة، وراسل المقيمين بالقلعة في تسليم عبد الرشيد، ووعدهم، ورغّبهم إن فعلوا، وتهدّدهم إن(٥٨٤/٩)امتنعوا فسلّموه إليه، فأخذه طغرل فقتله، واستولى على البلد وتزوّج ابنة مسعود كرهاً.

وكان في الأعمال الهنديّة أمير يسمّى خرخيز، ومعه عسكر كثير، فلمّا قتل طغرل عبد الرشيد واستولى على الأمر كتب إليه ودعاه إلى الموافقة والمساعدة من ارتجاع الأعمال من أيدي الغُزّ، ووعده على ذلك، وبذل البذول الكثيرة، فلم يرضَ فعله، وأنكره وامتعض منه، وأغلظ له في الجواب، وكتب إلى ابنة مسعود بن محمود زوجة طغرل، ووجوه القوّاد ينكر ذلك عليهم، ويوبّخهم على إغضائهم وصبرهم على ما فعله طغرل من قتل ملكهم وابن ملكهم ويحثّهم على الأخذ بثأره. فلمّا وقفوا على كتبه عرفوا غلطتهم ودخل جماعة منهم على طغرل، ووقفوا بين يديه، فضربه أحدهم بسيفه وتبعه الباقون فقتله.

وورد خرخيز الحاجب بعد خمسة أيّام، وأظهر الحزن على عبد الرشيد، وذمّ طغرل ومن تابعه على فعله، وجمع وجوه القُوّاد وأعيان أهل البلد وقال لهم: قد عرفتم ماجرى مما خولفت به الديانة والأمانة، وأنا تابع، ولا بدّ للأمر من سائس، فاذكروا ما عندكم من ذلك! فأشاروا بولاية فرّخ زاد بن مسعود بن محمود، وكان محبوساً في بعض القلاع، فأُحضر وأُجلس بدار الإمارة وأقام خرخيز بين يديه يدبّر الأمور، وأخذ من أعان على قتل عبد الرشيد فقتله. فلمّا سمع داود أخو طغرلبك صاحب خُراسان بقتل عبد الرشيد جمع عساكره وسار إلى غزنة، فخرج إليه خرخيز ومنعه وقاتله، فانهزم(٥٨٥/٩)داود وغنم ما كان معه.

ولما استقرّ ملك فرّخزاد وثبت قدمه جهّز جيشاً جرّاراً إلى خُراسان فاستقبلهم الأمير كُلْسَارُغ، وهو من أعظم الأمراء، فقاتلهم، وصبر لهم، فظفروا به، وانهزم أصحابه عنه، وأُخذ أسيراً، وأُسر معه كثير من عسكر خُراسان ووجوههم وأمرائهم. فجمع ألب أرسلان عسكراً كثيراً، وسيّر والده داود في ذلك العسكر إلى الجيش الذي أسر كلسارغ، فقاتلهم وهزمهم، وأسر جماعة من أعيان العسكر، فأطلق فرّخزاد الأسرى وخلع على كلسارغ وأطلقه.

ذكر وصول الغُزّ إلى فارس وانهزامهم عنها

في هذه السنة وصل أصحاب السلطان طغرلبك إلى فارس، وبلغوا إلى شيراز، ونزلوا بالبيضاء، واجتمع معهم العادل أبو منصور الذي كان وزير الأمير أبي منصور الملك أبي كاليجار، ودبّر أمرهم، فقبضوا عليه وأخذوا منه ثلاث قلاع، وهي: قلعة كبزة، وقلة جويم، وقلعة بهندر، فأقاموا بها، وسار من الغُزّ نحو مائتي رجل إلى الأمير أبي سعد، أخي الملك الرحيم وصاروا معه، وراسل أبو سعد الذين بالقلاع المذكورة، فاستمالهم، فأطاعوه وسلّموا القلاع إليه وصاروا في خدمته.

واجتمع العسكر الشيرازيّ، وعليهم الظهير أبو نصر، وأوقعوا بالغزّ بباب شيراز، فانهزم الغزّ، وأُسر تاج الدين نصر بن هبة الله بن أحمد، وكان من المقدّمين عند الغزّ، فلمّا انهزم الغزّ سار العسكر الشيرازي إلى فَسا، وقد كان(٥٨٦/٩)تغلّب عليها بعض السفل، وقوي أمره لاشتغال العساكر بالغزّ، فأزالوا المتغلّب عليها واستعادوها.

ذكر الحرب بين قريش وأخيه المقلّد

في هذه السنة جرى خلف بين علم الدين قريش بن بدران وبين أخيه المقلّد، وكان قريش قد نقل عمّه قرواشاً إلى قلعة الجراحيّة من أعمال الموصل وسجنه بها وارتحل يطلب العراق، فجرى بينه وبي أخيه المقلّد منازعة أدّت إلى الاختلاف. فسار المقلّد إلى نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيد ملتجئاً إليه، فحمل أخاه الغيظ منه على أن نهب حلّته وعاد إلى الموصل، واختلّت أحواله، واختلفت العرب عليه، وأخرج نوّاب الملك الرحيم ببغداد إلى ما كان بيد قريش من العراق بالجانب الشرقيّ من عُكبرا، والعلث، وغيرهما من قبض غلّته، وسلّم الجانب الغربيّ من أوانا ونهر بيطر إلى أبي الهنديّ بلال بن غريب.

ثمّ إنّ قريشاً استمال العرب وأصلحهم، فأذعنوا له بعد وفاة عمّه قرواش، فإنّه توفّي هذه الأيّام، وانحدر إلى العراق ليستعيد ما أخذ منه، فوصل إلى الصالحيّة، وسيّر بعض أصحابه إلى ناحية الحظيرة وما والاها، فنهبوا ما هناك وعادوا، فلقوا كامل بن محمد بن المسيّب، صاحب الحظيرة، فأوقعوا بهم وقاتلهم، فأرسلوا إلى قريش يعرّفونه الحال، فسار إليهم في عدّة كثيرة من العرب والأكراد، فانهزم كامل، وتبعه قريش فلم يلحقه، فقصد حلل بلال بن غريب، وهي خالية من الرّجال، فنهبها، وقاتله بلال وأبلى بلاء حسناً فجُرح ثم انهزم، وراسل قريش نوّاب الملك الرحيم يبذل الطاعة،(٥٨٧/٩)ويطلب تقرير ما كان عليه، فأجابوه إلى ذلك على كرهٍ لقوّته وضعفهم، واشتغال الملك الرحيم بخوزستان عنهم، فاستقرّ أمره وقوي شأنه.

ذكر وفاة قرواش

في هذه السنة، مستهلّ رجب، توفّي معتمد الدولة أبو المنيع قرواش بن المقلّد العُقيليّ، الذي كان صاحب الموصل، محبوساً بقلعة الجراحيّة، من أعمال الموصل، على ما ذكرناه قبلُ، وحُمل ميّتاً إلى الموصل، ودُفن بتل توبة من مدينة نِينَوى، شرقيّ الموصل.

وكان من رجال العرب، وذوي العقل منهم، وله شعر حسن، فمن ذلك ما ذكره أبو الحسن عليّ بن الحسن الباخرزيّ في دُمْية القصر من شعره:

لله دَرّ النائبات، فإنّها ... صَدأ النفوس وصَيْقل الأحرار

ما كنت إلاّ زُبرةً، فطبعتني ... سيفاً، وأُطلق شفرتي وغراري

وذُكر له أيضاً:

من كان يحمدُ، أو يذمّ مورّثاً ... للمال من آبائه وجدوده

(٥٨٨/٩)

إنّي امرؤ لله شكرٌ وحده ... شكراً كثيراً، جالباً لمزيده

لي أشقرٌ سمح العنان مغاور ... يعطيك ما يرضيك من مجهوده

ومهنّدٌ عضبٌ، إذا جرّدته ... خلْتَ البروق تموجُ في تجريده

ومثقّفٌ لدنُ السّنان كأنّما ... أمّ المنايا ركّبتْ في عوده

وبذا حَويتُ المالَ، إلاّ أنّني ... سلّطت جُودَ يدي على تبديده

قيل إنّه جمع بين أُختين في نكاحه، فقيل له: إنّ الشريعة تحرّم هذا؛ فقال: وأيّ شيء عندنا تجيزه الشريعة؟ وقال مرّة: ما في رقبتي غير خمسة أو ستّة من البادية قتلتهم، وأمّا الحاضرة فلا يعبأ الله بهم.

ذكر استيلاء الملك الرحيم على البصرة

في هذه السنة، في شعبان، سيّر الملك الرحيم جيشاً مع الوزير والبساسيريّ إلى البصرة، وبها أخوه أبو عليّ بن أبي كاليجار، فحصروه بها، فأخرج عسكره في السفن لقتالهم، فاقتتلوا عدّة أيّام، ثمّ انهزم البصريّون في الماء إلى البصرة، واستولى عسكر الرحيم على دجلة والأنهر جميعاً، وسارت العساكر على البرّ من المنزلة بمطارا إلى البصرة، فلمّا قاربوها لقيهم رسل مُضر وربيعة يطلبون الأمان، فأجابوهم إلى ذلك، وكذلك بذلوا الأمان لسائر أهلها، ودخلها الملك الرحيم فسُرّ به أهلها، وبذل لهم الإحسان.

فلمّا دخل البصرة وردت إليه رسل الديلم بخوزستان يبذلون الطاعة، (٥٨٩/٩) ويذكرون أنّهم ما زالوا عليها. فشكرهم على ذلك، وأقام بالبصرة ليصلح أمرها.

وأمّا أخوه أبو عليّ، صاحب البصرة، فإنّه مضى إلى شطّ عثمان فتحصّن به، وحفر الخندق، فمضى الملك الرحيم إليه وقاتلهم، فملك الموضع ومضى أبو عليّ ووالدته إلى عبّادان، وركبوا البحر إلى مهروبان، وخرجوا من البحر واكتروا دوابّ وساروا إلى أرّجان عازمين على قصد السلطان طغرلبك، وأخرج الملك الرحيم كل من بالبصرة من الديلم أجناد أخيه وأقام غيرهم.

ثم إنّ الأمير أبا عليّ وصل إلى السلطان طغرلبك، وهو بأصبهان، فأكرمه وأحسن إليه، وحمل إليه مالاً، وزوّجه امرأة من أهله وأقطعه إقطاعاً من أعمال جرباذقان، وسلّم إليه قلعتين من تلك الأعمال أيضاً. وسلّم الملك الرحيم البصرة إلى البساسيريّ ومضى إلى الأهواز، وتردّدت الرّسل بينه وبين منصور بن الحسين وهزارسب، حتّى اصطلحوا، وصارت أرّجان وتُستر للملك

الرحيم.

ذكر ورود سعدي العراق

وفيها، في ذي القعدة، ورد سعدي بن أبي الشوك في جيش من عند السلطان طغرلبك إلى نواحي العراق، فنزل مَايَدَشْتَ، وسار منها جريدة فيمن معه من الغُزّ إلى أبي دُلَف الجاوانيّ، فنذر به أبو دلف، وانصرف من بين(٥٩٠/٩)يديه، ولحقه سعدي فنهبه وأخذ ماله، وأفلت أبو دلف بحشاشة نفسه، ونهب أصحاب سعدي البلاد حتّى بلغوا النّعمانيّة، فأسرفوا في النهب والغارة، وفتكوا في البلاد، وافتضّوا الأبكار، فأخذوا الأموال والأثاث فلم يتركوا شيئاً، وقصد البندنيجين.

وبلغ خبره إلى خاله خالد بن عمر، وهو نازل على الزرير ومطر ابنيْ عليّ بن مقْن العُقيليّين، فأرسل إليه ولده مع أولاد الزرير ومطر يشكون إليه ما عاملهم به عمّه مهلهل، وقريش بن بدران، فلقوه بحُلوان وشكوا إليه حالهم، فوعدهم المسير إليهم والأخذ لهم ممّن قصدهم. فعادوا من عنده، فلقيهم نفر من أصحاب مهلهل فواقعوهم، فظفر بهم العُقيليّون وأسروهم.

وبلغ الخبر مهلهلاً، فسار إلى حلل الزرير ومطر في نحو خمسمائة فارس، فأوقع بهم على تلّ عُكبرا ونهبه، وانهزم الرجال، فلقي خالد ومطر والزرير سعدي بن أبي الشوك على تامرّا، فأعلموه الحال وحملوه على قتال عمّه، فتقدّم إلى طريقه، والتقى القوم، وكان سعدي بجمع كثير، فظفر بعمّه وأسره، وانهزم أصحابه في كلّ جهة، وأُسر أيضاً مالك ابن عمّه مهلهل، وأعاد الغنائم التي كانت معه على أصحابها وعاد إلى حُلوان.

ووصل الخبر إلى بغداد، فارتجّ الناس بها وخافوا، وبرز عسكر الملك الرحيم ليقصدوا حُلوان لمحاربة سعدي، ووصل إليهم أبو الأغرّ دُبَيْس بن مَزْيد الأسديّ ولم يصنعوا شيئاً.(٥٩١/٩)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قبض عيسى بن خميس بن مقْن على أخيه أبي غشّام صاحب تكريت بها، وسجنه في سرداب بالقلعة، واستولى على تكريت.

وفيها زُلزلت خوزستان وأرّجان وإيذج، وغيرها من البلاد، زلازل كثيرة، وكان معظمها بأرّجان، فخرب كثير من بلادها وديارها، وانفرج جبل كبير قريب من أرّجان وانصدع، فظهر في وسطه درجةٌ مبنيّة بالآجر والجصّ قد خفيت في الجبل، فتعجّب الناس من ذلك. وكان بخُراسان أيضاً زلزلة عظيمة خرّبت كثيراً، وهلك بسببها كثير، وكان أشدّها بمدينة بيهَق فأتى الخراب عليها، وخرّب سورها ومساجدها، ولم يزل سورها خراباً إلى سنة أربع وستّين وأربعمائة، فأمر نظام الملك ببنائه، فبُني، ثمّ خرّبه أرسلان أرغو، بعد موت السلطان ملكشاه، وقد ذكرناه، ثم عمره مجد الملك البلاسانيّ.

وفيها عُمل محضرٌ ببغداد يتضمّن القدح في نسب العلويّين أصحاب مصر، وأنّهم كاذبون في ادّعائهم النسب إلى عليّ، عليه السلام، وعزوهم فيه إلى الديصانيّة من المجوس، والقدّاحيّة من اليهود، وكتب فيه العلويّون، والعبّاسيّون، والفقهاء، والقضاة، والشهود، وعُمل به عدّة نسخ، وسُيّر في البلاد، وشيّع بين الحاضر والبادي.

وفيها شهد الشيخ أبو نصر عبد السيّد بن محمد بن عبد الواحد بن الصبّاغ، مصنّف الشامل، عند قاضي القضاة أبي عبد اللّه الحسين بن عليّ بن ماكولا.

وفيها حدثت فتنة بين السُّنّة والشيعة ببغداد، وامتنع الضبط، وانتشر(٥٩٢/٩)العيّارون وتسلّطوا، وجبوا الأسواق، وأخذوا ما كان يأخذه أرباب الأعمال، وكان مقدمهم الطّقطقي والزّبيق، وأعاد الشّيعة الأذان بحيّ على خير العمل، وكتبوا على مساجدهم: محمّد وعليّ خير البشر؛ وجرى القتال بينهم، وعظم الشرّ.

وفيها زوّج نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيد ابنه بهاء الدولة منصوراً بابنة أبي البركات بن البساسيريّ.

وفيها، في ربيع الأوّل توفّي القاضي أبو جعفر السمنانيّ بالموصل، وكان إماماً في الفقه على مذهب أبي حنيفة، والأصول على مذهب الأشعريّ، وروى الحديث عن الدارقطنيّ وغيره.

وفي هذا الشهر توفّي أيضاً أبو عليّ الحسن بن عليّ بن المذهّب، الواعظ، وهو راوي مُسنَد أحمد بن حنبل.(٥٩٣/٩)

سنة خمس وأربعين وأربعمائة

ذكر الفتنة بين السُّنّة والشيعة ببغداد

في هذه السنة، في المحرّم، زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السُّنّة، وكان ابتداؤها أواخر سنة أربع وأربعين[وأربعمائة].

فلمّا كان الآن عظم الشرّ، واطّرحت المراقبة للسلطان، واختلط بالفريقين طوائف من الأتراك، فلمّا اشتدّ الأمر اجتمع القوّاد واتّفقوا على الركوب إلى المحالّ وإقامة السياسة بأهل الشرّ والفساد، وأخذوا من الكرخ إنساناً علويّاً وقتلوه، فثار نساؤه، ونشرْنا شُعورَهنّ واستغثْنَ، فتبعهنّ العامّة من أهل الكرخ، وجرى بينهم وبين القوّاد، ومن معهم من العامّة، قتال شديد، وطرح الأتراك النار في أسواق الكرخ، فاحترق كثير منها وألحقتها

بالأرض، وانتقل كثير من الكرخ إلى غيرها من المحالّ.

وندم القوّاد على ما فعلوا، وأنكر الإمام القائم بأمر اللّه ذلك، وصلح الحال، وعاد الناس إلى الكرخ، بعد أن استقرّت القاعدة بالديوان بكفّ الأتراك أيديهم عنهم.(٥٩٤/٩)

ذكر استيلاء الملك الرحيم على أرّجان ونواحيها

في هذه السنة، في جمادى الأولى، استولى الملك الرحيم على مدينة أرّجان، وأطاعه من كان بها من الجند، وكان المقدّم عليهم فولاذ بن خسرو الدّيلميّ.

وكان قد تغلّب على ما جاورها من البلاد إنسان متغلّب يسمّى خشنام، فأنفذ إليه فولاذ جيشاً فأوقعوا به وأجلوه عن تلك النواحي واستضافوا إلى طاعة الرّحيم.

وخاف هزارسب بن بنكير من ذلك لأنّه كان مبايناً للملك الرحيم على ما ذكرناه، فأرسل يتضرّع ويتقرّب، ويسأل التقدّم إلى فولاذ بإحسان مجاورته، فأُجيب إلى ذلك.

ذكر مرض السلطان طغرلبك

في هذه السنة وصل السلطان طغرلبك إلى أصبهان مريضاً، وقويَ الإرجاف عليه بالموت، ثمّ عوفيَ، ووصل إليه الأمير أبو عليّ ابن الملك أبي كاليجار الذي كان صاحب البصرة، ووصل إليه أيضاً هزارسب بن بنكير بن عياض، صاحب إيذج، فإنّه كان قد خاف الملك الرحيم لما استولى على البصرة وأرّجان. فأكرمهما طغرلبك، وأحسن ضيافتهما، ووعدهما النصرة والمعونة.

ذكر عوْد سعدي بن أبي الشوك إلى طاعة الرحيم

قد ذكرنا سنة أربع وأربعين[وأربعمائة] وصول سعْدي إلى العراق، وأسره عمّه، فلمّا أسره سار ولده بدر بن المهلهل إلى السلطان طغرلبك،(٥٩٥/٩)وتحدّث معه في مراسلة سعدي ليطلق أباه، فسلّم إليه طغرلبك ولداً كان لسعْدي عنده رهينة، وأرسل معه رسولاً يقول فيه: إن أردْت فدية عن أسيرك هذا فهذا ولدك قد رددته عليك، وإن أبيتَ إلاّ المخالفة ومفارقة الجماعة قابلناك على فعلك.

فلمّا وصل بدر والرسول إلى همذان تخلّف بدر، وسار الرسول إليه، فامتعض من قوله، وخالف طغرلبك، وسار إلى حُلوان، وأراد أخذها، فلم يُمكنه، وتردّد بين روشنقباذ والبردان، وكاتب الملك الرحيم، وصار في طاعته، فسار إليه إبراهيم بن إسحاق، وسخت كمان، وهما من أعيان عسكر طغرلبك، في عسكر مع بدر بن المهلهل فأوقعوا به فانهزم هو وأصحابه وعاد الغُزّ عنهم إلى حُلوان، وسار بدر إلى شهرزور في طائفة من الغُزّ، ومضى سعْدي إلى قلعة روشنقباذ.

ذكر عود الأمير أبي منصور إلى شيراز

في هذه السنة، في شوّال، عاد الأمير أبي منصور فولاستون ابن الملك أبي كاليجار إلى شيراز مستولياً عليها، وفارقها أخوه الأمير أبو سعد.

وكان سبب ذلك أنّ الأمير أبا سعد كان قد تقدّم معه في دولته إنسان يُعرف بعميد الدين أبي نصر بن الظهير، فتحكّم معه، واطّرح الأجناد واستخفّ بهم، وأوحش أبا نصر بن خسرو، صاحب قلعة إصطخر، الذي كان قد استدعى الأمير أبا سعد وملّكه.(٥٩٦/٩)

فلمّا فعل ذلك اجتمعوا على مخالفته وتألّبوا عليه، وأحضر أبا نصر بن خسرو الأمير أبا منصور بن أبي كاليجار إليه وسعى في اجتماع الكلمة عليه، فأجابه كثير من الأجناد عميد الدين لكراهتهم لعميد الدين، فقبضوا عليه، ونادوا بشعار الأمير أبي منصور، وأظهروا طاعته، وأخرجوا الأمير أبا سعد عنهم فعاد إلى الأهواز في نفر يسير، ودخل الأمير أبو منصور إلى شيراز مالكاً لها مستولياً عليها، وخطب فيها لطغرلبك وللملك الرّحيم ولنفسه بعدهما.

ذكر إيقاع البساسيري بالأكراد والأعراب

وفيها، في شوّال، وصل الخبر إلى بغداد بأنّ جمعاً من الأكراد وجمعاً من الأعراب قد أفسدوا في البلاد، وقطعوا الطريق ونهبوا القُرى، طمعاً في السلطنة بسبب الغُزّ، فسار إليهم البساسيري جريدة، وتبعهم إلى البوازيج، فأوقع بطوائف كثيرة منهم، وقتل فيهم، وغنم أموالهم، وانهزم بعضهم فعبروا الزاب عند البوازيج فلم يدركهم، وأراد العبور إليهم، وهم بالجانب الآخر، وكان الماء زائداً، فلم يتمكّن من عبوره، فنجوا.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّي الشريف أبو تمّام بن محمّد بن محمّد بن عليّ الزينيّ، نقيب النّقباء، وقام بعده في النقابة ابنه أبو عليّ.

وفيها توفّي أبو إسحاق إبراهيم بن محمّد بن أحمد البرمكيّ، وكان مكثراً من الحديث، سمع ابن مالك القطيعيّ وغيره، وإنّما قيل له البرمكيّ لأنّه سكن محلّة ببغداد تُعرف بالبرامكة، وقيل كان من قرية عند البصرة تُعرف بالبرمكيّة.(٥٩٧/٩)

سنة سِت وأربعين وأربعمائة

ذكر فتنة الأتراك ببغداد

في هذه السنة، في المحرّم، كانت فتنة الأتراك ببغداد.

وكان سببها أنّهم تخلّف لهم على الوزير الذي للملك الرحيم مبلغ كثير من رسومهم، فطالبوه، وألحّوا عليه، فاختفى في دار الخلافة، فحضر الأتراك بالديوان وطالبوه، وشكوا ما يلقونه منه من المطال بمالهم، فلم يُجابوا إلى إظهاره، فعدلوا عن الشكوى منه إلى الشكوى من الديوان، وقالوا: إنّ أرباب المعاملات قد سكنوا بالحريم، وأخذوا الأموال، وإذا طلبناهم بها يمتنعون بالمقام بالحريم، وانتصب الوزير والخليفة لمنعنا عنهم، وقد هلكنا.

فتردّد الخطاب منهم، والجواب عنه، فقاموا نافرين، فلمّا كان الغد ظهر الخبر أنّهم على عزم حصر دار الخلافة، فانزعج الناس لذلك وأخفوا أموالهم، وحضر البساسيريّ دار الخلافة، وتوصّل إلى معرفة خبر الوزير، فلم يظهر له على خبر،فطُلب من داره ودور من يُتّهم به، وكُبِسَت الدور، فلم يظهروا له على خبر.

وركب جماعة من الأتراك إلى دار الروم فنهبوها، وأحرقوا البيع والقلاّيات، ونهبوا فيها دار أبي الحسن بن عبيد، وزير البساسيريّ.

وقام أهل نهر المعلّى، وباب الأزج، وغيرهما من المحالّ، في منافذ الدروب لمنع الأتراك، وانخرق الأمر، ونهب الأتراك كلّ من ورد إلى بغداد،(٥٩٨/٩)فغلت الأسعار، وعدمت الأقوات، وأرسل إليهم الخليفة ينهاهم، فلم ينتهوا، فأظهر أنّه يريد الانتقال عن بغداد، فلم يُزجروا.

هذا جميعه والبساسيري غير راضٍ بفعلهم، وهو مقيم بدار الخليفة. وتردّد الأمر إلى أن ظهر الوزير، وقام هم بالباقي من مالهم من ماله، وأثمان دوابّه، وغيرها، ولم يزالوا في خبط وعسف، فعاد طمع الأكراد والأعراب أشدّ منه أوّلاً، وعاودوا الغارة والنهب والقتل، فخربت البلاد وتفرّق أهلها.

وانحدر أصحاب قريش بن بدران من الموصل طامعين، فكبسوا حلل كامل بن محمد بن المسيّب، وهي بالبردان، فنهبوها، وبها دوابّ، وجمال بخاتيّ للبساسيريّ، فأخذوا الجميع ووصل الخبر إلى بغداد، فازداد خوف الناس من العامّة والأتراك، وعظم انحلال أمر السلطنة بالكليّة وهذا من ضرر الخلاف.

ذكر استيلاء طغرلبك على أذربيجان وغزو الروم

في هذه السنة سار طغرلبك إلى أذربيجان، فقصد تبريز، وصاحبها الأمير أبي منصور وهسوذان بن محمّد الروادي، فأطاعه وخطب له وحمل إليه ما أرضاه به وأعطاه ولده رهينة، فسار طغرلبك عنه إلى الأمير أبي الأسوار، صاحب جنزة، فأطاعه أيضاً وخطب له، وكذلك سائر تلك النواحي أرسلوا إليه يبذلون الطاعة والخطبة.(٥٩٩/٩)

وانقادت العساكر إليه، فأبقى بلادهم عليهم، وأخذ رهائنهم وسار إلى أرمينية، وقصد ملازكرد، وهي للروم، فحصرها وضيّق على أهلها، ونهب ما جاورها من البلاد وأخربها، وهي مدينة حصينة. فأرسل إليه نصر الدولة بن مروان، صاحب ديار بكر، الهدايا الكثيرة والعساكر، وقد كان خطب له قبل هذا الوقت وأطاعه، وأثّر السلطان طغرلبك، في غزو الروم، آثاراً عظيمة، ونال منهم من النهب والقتل والأسر شيئاً كثيراً.

وبلغ في غزوته هذه إلى أرزن الروم، وعاد إلى أذربيجان، لما هجم الشتاء من غير أن يملك ملازكرد، وأظهر أنّه يقيم إلى أن ينقضي الشتاء، ويعود يتمّ غزاته، ثمّ توجّه إلى الرَّيّ فأقام بها إلى أن دخلت سنة سبع وأربعين [وأربعمائة]وعاد نحو العراق، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر محاربة بني خفاجة وهزيمتهم

في هذه السنة، في رجب، قصد بنو خفاجة الجامعين، وأعمال نور الدولة دُبيس،ونهبوا وفتكوا في أهل تلك الأعمال، وكان نور الدولة شرقيّ الفرات، وخفاجة غربيّها، فأرسل نور الدولة إلى البساسيريّ يستنجده، فسار إليه، فلمّا وصل عبر الفرات من ساعته، وقاتل خفاجة وأجلاهم عن الجامعيْن، فانهزموا منه ودخلوا البرّ، فلم يتبعهم، وعاد عنهم، فرجعوا إلى الفساد فاستعدّ لسلوك البرّ خلفهم أين قصدوا، وعطف نحوهم قاصداً حربهم، فدخلوا البر أيضاً، فتبعهم فلحقهم بخفّان، وهو حصن بالبر، فأوقع بهم، وقتل منهم، ونهب أموالهم وجمالهم وعبيدهم وإماءهم،(٦٠٠/٩)وشرّدهم كلّ مشرّد، وحصر خفّان ففتحه وخرّبه، وأراد تخريب القائم به، وهو بناء من آجرّ وكلس، وصانع عنه صاحبه ربيعة بن مُطاع بمالٍ بذله، فتركه وعاد إلى البلاد.

وهذا القائم قيل أنّه كان علماً يهتدي به السفن، لما كان البحر يجيء إلى النجف، ودخل بغداد ومعه خمسة وعشرون رجلاً من خفاجة، عليهم البرانس، وقد شدّهم بالحبال إلى الجمال، وقتل منهم جماعة، وصلب جماعة، وتوجّه إلى حربى فحصرها، وقرّر على أهلها تسعة آلاف دينار وأمّنهم.

ذكر استيلاء قريش بن بدران على الأنبار والخطبة لطغرلبك بأعماله

في شعبان من هذه السنة حصر الأمير أبو المعالي قريش بن بدران، صاحب الموصل مدينة الأنبار وفتحها، وخطب لطغرلبك فيها وفي سائر أعماله، ونهب ما كان فيها للبساسيريّ وغيره، ونهب حلل أصحابه بالخالص وفتحوا بثوقه، فامتعض البساسيريّ من ذلك، وجمع جموعاً كثيرة، وقصد الأنبار وحربى فاستعادهما على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

ذكر وفاة القائد ابن حمّاد وما كان من أهله بعده

في هذه السنة، في رجب، توفّي القائد ابن حمّاد، وأوصى إلى ولده محسّن، وأوصاه بالإحسان إلى عمومته، فلمّا مات خالف ما أمره به، وأراد(٦٠١/٩)عزل جميعهم، فلمّا سمع عمّه يوسف بن حمّاد بما عزم عليه خالفه، وجمع جمعاً عظيماً وبنى قلعة في جبل منيع وسمّاها الطيّارة.

ثمّ إنّ محسّناً قتل من عمومته أربعة، فازداد يوسف نفوراً؛ وكان ابن عمّه بلكّين بن محمّد في بلده أفريون، فكتب إليه محسّن يستدعيه، فسار إليه، فلمّا قرب منه أمر محسّن رجالاً من العرب أن يقتلوه، فلمّا خرجوا قال لهم أميرهم خليفة بن مكن: إنّ بلكّين لم يزل محسناً إلينا، فكيف نقتله؟ فأعلموه ما أمرهم به محسّن، فخاف، فقال له الخليفة: لا تخف، وإن كنت تريد قتل محسّن فأنا أقتله لك. فاستعدّ بلكّين لقتاله، وسار إليه، فلمّا علم محسّن بذلك وكان قد فارق القلعة عاد هارباً إليها، فأدركه بلكين فقتله، وملك القلعة وولّي الأمر، وكان ملكه القلعة سنة سبع وأربعين وأربعمائة.

ذكر ابتداء الوحشة بين البساسيريّ والخليفة

في شهر رمضان من هذه السنة ابتدأت الوحشة بين الخليفة والبساسيريّ.

وسبب ذلك أنّ أبا الغنائم وأبا سعد ابنيْ المحلبان، صاحبيْ قريش بن بدران، وصلا إلى بغداد سرّاً، فامتعض البساسيري من ذلك، وقال: هؤلاء وصاحبهم كبسوا حلل أصحابه، ونهبوا وفتحوا البثوق، وأسرفوا في إهلاك الناس؛ وأراد أخذهم فلم يمكّن منهم، فمضى إلى حربى، وعاد ولم يقصد دار الخلافة على عادته، فنسب ذلك إلى رئيس الرؤساء. واجتازت به سفينة لبعض أقارب رئيس الرؤساء، فمنعها وطالب بالضريبة(٦٠٢/٩)التي عليها، وأسقط مشاهرات الخليفة من دار الضرب، وكذلك مشاهرات رئيس الرؤساء، وحواشي الدار، وأراد هدم دور بني المحلبان، فمُنع منه، فقال: ما أشكو إلاّ من رئيس الرؤساء الذي قد خرّب البلاد وأطمع الغُزّ وكاتبهم.

ودام ذلك إلى ذي الحجّة، فسار البساسيري إلى الأنبار، وأحرق ناحيتيْ دمّا، والفلّوجة، وكان أبو الغنائم بن المحلبان بالأنبار قد أتاها من بغداد، وورد نور الدولة دبيس إلى البساسيريّ، معاوناً له على حصرها، ونصب البساسيري عليها المجانيق، فهدم برجاً، ورماهم بالنفط فأحرق أشياء كان قد أعدّها أهل البلد لقتاله، ودخلها قهراً، فأسر مائة نفس، من بني خفاجة، وأسر أبا الغنائم بن المحلبان، فأُخذ وقد ألقى نفسه في الفرات، ونهب الأنبار، وأسر من أهلها خمسمائة رجل، وعاد إلى بغداد وبين يديه أبو الغنائم على جمل، وعليه قميص أحمر، وعلى رأسه برنس، وفي رجليه قيد، وأراد صلبه وصلب من معه من الأسرى، فسأله نور الدولة أن يؤخّر ذلك حتّى يعود، وأتى البساسيريّ إلى مقابل التاج، فقبّل الأرض، وعاد إلى منزله، وترك أبا الغنائم لم يصلبه، وصلب جماعة من الأسرى، فكان هذا أوّل الوحشة.

ذكر وصول الغُزّ إلى الدّسكرة وغيرها

في شوّال من هذه السنة وصل إبراهيم بن إسحاق، وهو من الأمراء الغزّيّة السلجوقيّة، إلى الدّسكرة، وكان مقيماً بحُلوان، فلمّا وصل إليها قاتله أهلها، ثم ضعفوا وعجزوا وهربوا متفرّقين، ودخل الغُزّ البلد فنهبوه أقبح نهب، وضربوا النساء وأولادهنّ، فاستخرجوا بذلك أموالاً كثيرة، وساروا إلى(٦٠٣/٩)روشنقباذ لفتحها، وهي بيد سعْدي، وأمواله فيها وفي قلعة البردان.

وكان سعْدي قد فارق طاعة السلطان طغرلبك على ما ذكرناه، فلم يفتحها وأجلى أهل تلك البلاد، وخرّبت القُرى، ونهبت أموال أهلها.

وسار طائفة أخرى من الغُزّ إلى نواحي الأهواز وأعمالها، فنهبوها واجتاحوا أهلها، وقوي طمع الغُزّ في البلاد وانخذل الديلم ومن معهم من الأتراك، وضعفت نفوسهم.

ثمّ سيّر طغرلبك الأمير أبا عليّ ابن الملك أبي كاليجار، الذي كان صاحب البصرة، في جيش من الغُزّ إلى خُوزستان ليملكها، فوصل سابور خُواست، وكاتب الديلم الذين بالأهواز يدعوهم إلى طاعته، ويعدهم الإحسان إن أجابوا، والعقوبة إن امتنعوا، فمنهم من أطاع ومنهم من خالف، فسار إلى الأهواز فملكها واستولى عليها، ولم يعرض لأحد في مال ولا غيره، فلم يوافقه الغزّ على ذلك، ومدّوا أيديهم إلى النهب والغارة والمصادرة، ولقي الناس منهم عنت وشدّة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة كثرت الصراصر ببغداد، حتّى كان يُسمع لها بالليل دويٌّ كدويّ الجراد إذا طار.

وفيها، في ذي الحجّة، توفّي أبو حسّان المقلّد بن بدران أخو قريش بن بدران، صاحب الموصل.

وفيها، في شوّال، توفّي قسطنطين ملك الروم، زوج تذورة بنت قسطنطين، الموسومة بالملك، وإنّما ملك قسطنطين هذا حيث تزوّجها.

وفيها توفّي عبد اللّه بن محمد بن عبد الرحمن أبو عبد اللّه الأصبهانيّ، المعروف بابن اللبّان، الفقيه الشافعي، وهو من أصحاب أبي حامد الأسفراييني، وروى الحديث عن ابن المقرئ

والمخلص وغيرهما.

وتوفّي فيها أحمد بن عمر بن روح أبو الحسن النهروانيّ، وله شعر جيّد، فمنه أنّه سمع رجلاً يتغنّى وهو يقول:

وما طلبوا سوى قتلي فهان عليّ ما طلبوا

فاستوقفه وقال له: أضف إليه:

على قلبي الأحبّةُ بأ لتّمادي في الهوى غلبوا
وبالهجران من عينيّ طيبَ النوم قد سلبوا
وما طلبوا سوى قتلي فهان عليّ ما طلبوا

(٦٠٥/٩)

سنة سبع وأربعين وأربعمائة

ذكر استيلاء الملك الرحيم على شيراز وقطع خطبة طغرلبك فيها

في هذه السنة، في المحرّم، سار قائد كبير من الديلم يسمّى فولاذ، وهو صاحب قلعة إصطخر، إلى شيراز، فدخلها وأخرج عنها الأمير أبا منصور فولاستون، ابن الملك أبي كاليجار، فقصد فيروزاباذ وأقام بها.

وقطع فولاذ خطبة السلطان طغرلبك في شيراز، وخطب للملك الرحيم، ولأخيه أبي سعد، وكاتبهما يظهر لهما الطاعة، فعلما أنّه يخدعهما بذلك، فسار إليه أبو سعد، وكان بأرّجان، ومعه عساكر كثيرة، واجتمع هو وأخوه الأمير أبو منصور على قصد شيراز ومحاصرتها على قاعدة استقرّت بينهما من طاعة أخيهما الملك الرحيم، فتوجّها نحوها فيمن معهما من العساكر، وحصرا فولاذ فيها.

وطال الحصار إلى أن عدم القوت فيها، وبلغ السعر سبعة أرطال حنطة بدينار، ومات أهلها جوعاً، وكان من بقي فيها نحو ألف إنسان، وتعذّر القيام(٦٠٦/٩)في البلد على فولاذ، فخرج هارباً مع من في صحبته من الديلم إلى نواحي البيضاء وقلعة إصطخر، ودخل الأمير أبو سعد والأمير أبو منصور شيراز، وعساكرهما، وملكوها، وقاموا بها.

ذكر قتل أبي حرب بن مروان صاحب الجزيرة

في هذه السنة قُتل الأمير أبو حرب بن سليمان الدولة بن نصر الدولة بن مروان، وكان والده قد سلّم إليه الجزيرة وتلك النواحي ليقيم بها ويحفظها، وكان شجاعاً، مقداماً، استبدّ بالأمر، واستولى عليه، فجرى بينه وبين الأمير موسك بن المجلّي ابن زعيم الأكراد البُختيّة، وله حصون منيعة شرقيّ الجزيرة، نفرة.

ثم راسله أبو حرب واستماله، وسعى أن يزوّجه ابنة الأمير أبي طاهر البشنويّ، صاحب قلعة فنك وغيرها من الحصون، وكان أبو طاهر هذا ابن أخت نصر الدولة بن مروان، فلم يخالف أبو طاهر، صاحب فنك، أبا حرب في الذي أشار به من تزويج الأمير موسك، فزوّجه ابنته ونقلها إليه، فاطمأنّ حينئذ موسك، وسار إلى سليمان، فعذر به، وقبض عليه وحبسه.

ووصل السلطان طغرلبك إلى تلك الأعمال لما توجّه إلى غزو الروم، على ما ذكرناه، فأرسل إلى نصر الدولة يشفع في موسك، فأظهر أنّه توفّي فشقّ ذلك على حميه أبي طاهر البشنويّ، وأرسل إلى نصر الدولة وابنه سليمان فقال لهما: حيث أردتما قتله، فلمَ جعلتما ابنتي طريقاً إلى ذلك، وقلّدتموني العار؟ وتنكّر لهما، وخافه أبو حرب، فوضع عليه من سقاه سُمّاً فقتله.(٦٠٧/٩)

وولي بعده ابن عبيد اللّه، فأظهر له أبو حرب المودّة استصلاحاً له، وتبرّؤاً إليه من كلّ ما قيل عنه، واستقرّ الأمر بينهما على الاجتماع وتجديد الأيمان، فنزلوا من فنك، وخرج إليهم أبو حرب من الجزيرة في نفر قليل فقتلوه.

وعرف والده ذلك، فأقلقه وأزعجه، وأرسل ابنه نصراً إلى الجزيرة ليحفظ تلك النواحي، ويأخذ بثأر أخيه، وسيّر معه جيشاً كثيفاً.

وكان الأمير قريش بن بدران، صاحب الموصل، لما سمع قتل أبي حرب انتهز الفرصة، وسار إلى الجزيرة ليملكها، وكاتب البُختيّة والبشنويّة، واستمالهم، فنزلوا إليه واجتمعوا معه على قتال نصر بن مروان، فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً كثر فيه القتل، وصبر الفريقان، فكانت الغلبة أخيراً لابن مروان، وجُرح قريش جراحة قويّة بزوبين رُميَ به، وعاد عنه، وثبت أمر ابن مروان بالجزيرة، وعاود مراسلة البشنويّة والبُختيّة، واستمالهم لعله يجد فيهم طعماً، فلم يطيعوه.

ذكر وثوب الأتراك ببغداد بأهل البساسيريّ والقبض عليه ونهب دوره وأملاكه وتأكّد الوحشة بينه وبين رئيس الرؤساء

في هذه السنة ثارت فتنة ببغداد بالجانب الشرقيّ بين العامّة، وثار جماعة من أهل السُّنّة، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحضروا الديوان، وطلبوا أن يُؤذن لهم في ذلك، وأن يُتقدّم إلى أصحاب الديوان بمساعدتهم، فأُجيبوا إلى ذلك، وحدث من ذلك شرٌّ كثير.(٦٠٨/٩)

ثم إنّ أبا سعد النصرانيّ، صاحب البساسيريّ، حمل في سفينة ستّمائة جرّة خمراً ليحدرها إلى البساسيريّ بواسط، في ربيع الآخر، فحضر ابن سكّرة الهاشميّ وغيره من الأعيان في هذا الباب، وتبعهم خلقٌ كثير، وحاجب باب المراتب من قِبَل الديوان،

وقصدوا السفينة، وكسروا جرار الخمر وأراقوها.

وبلغ ذلك البساسيريّ، فعظم عليه ونسبه إلى رئيس الرؤساء، وتجدّدت الوحشة، فكتب فتاوى أخذ فيها خطوط الفقهاء الحنفيّة بأنّ الذي فعل من كسر الجرار[وإراقة الخمر] تعدّ غير واجب، وهي ملك رجل نصرانيّ لا يجوز، وتردّد القول في هذا المعنى، فتأكّدت الوحشة من الجانبين، ووضع رئيس الرؤساء الأتراك البغداديين على ثلب البساسيريّ والذمّ له، ونسب كلّ ما يجري عليهم من نقض إليه، فطمعوا فيه، وسلكوا في هذا المعنى زيادة على ما أراد رئيس الرؤساء، وتمادت الأيّام إلى رمضان، فحضروا دار الخليفة، واستأذنوا في قصد دور البساسيريّ ونهبها، فأذن لهم في ذلك، فقصدوها ونهبوها، وأحرقوها، ونكلوا بنسائه وأهله ونوّابه، ونهبوا دوابّه وجميع ما يملك ببغداد.

وأطلق رئيس الرؤساء لسانه في البساسيريّ وذمّه، ونسبه إلى مكاتبة المستنصر، صاحب مصر وأفسد الحال مع الخليفة إلى حدّ لا يُرجى صلاحه، وأرسل إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيريّ فأبعده، وكانت هذه الحالة من أعظم الأسباب في ملك السلطان طغرلبك العراق، وقبض الملك الرحيم، وسيرد من ذلك ما تراه إن شاء اللّه تعالى. (٦٠٩/٩)

ذكر وصول طغرلبك إلى بغداد والخطبة له بها

قد ذكرنا قبل مسير طغرلبك إلى الرّيّ بعد عوده من غزو الروم، للنظر في ذلك الطرف، فلمّا فرغ من الرّيّ عاد إلى همذان في المحرّم من هذه السنة، وأظهر أنّه يريد الحجّ، وإصلاح مكّة، والمسير إلى الشام ومصر، وإزالة المستنصر العلويّ صاحبها.

وكاتب أصحابه بالدينوَر وقرميسين وحُلوان وغيرها، فأمرهم بإعداد الأقوات والعلوفات. فعظم الإرجاف ببغداد، وفتّ في أعضاد الناس، وشغب الأتراك ببغداد، وقصدوا ديوان الخلافة.

ووصل السلطان طغرلبك إلى حُلوان، وانتشر أصحابه في طريق خُراسان، فأجفل الناس إلى عربيّ ببغداد، وأخرج الأتراك خيامهم إلى ظاهر بغداد.

وسمع الملك الرحيم بقرب طغرلبك من بغداد، فأصعد من واسط إليها، وفارقه البساسيريّ في الطريق لمراسلة وردت من القائم في معناه إلى الملك الرحيم أنّ البساسيريّ خلع الطاعة، وكاتب الأعداء، يعني المصريّين، وأنّ الخليفة به على الملك عهود، وله على الخليفة مثلها، فإن آثره فقد قطع ما بينهما، وإن أبعده وأصعد إلى بغداد تولّى الديوان تدبير أمره؛ فقال الملك الرحيم ومن معه: نحن لأوامر الديوان متّبعون، وعنه منفصلون.

وكان سبب ذلك ما ذُكر. وسار البساسيريّ إلى نور الدولة دبيس بن مزيد لمصاهرة بينهما، وأصعد الملك الرحيم إلى بغداد. وأرسل طغرلبك رسولاً إلى الخليفة يبالغ في إظهار الطاعة والعبوديّة، وإلى الأتراك البغداديّين يعدهم(٦١٠/٩)الجميل والإحسان. فأنكر الأتراك ذلك، وأرسلوا الخليفة في المعنى، وقالوا: إنّنا فعلنا بالبساسيريّ ما فعلنا، وهو كبيرنا، ومقدّمنا، بتقديم أمير المؤمنين، ووعدنا أمير المؤمنين بإبعاد هذا الخصم عنّا، ونراه قد قرب منّا، ولم يُمنع من المجيء. وسألوا التقدّم عليه في العود فغولطوا في الجواب، وكان رئيس الرؤساء يؤثر مجيئهُ، ويختار انقراض الدولة الديلميّة.

ثمّ إنّ الملك الرحيم وصل إلى بغداد منتصف رمضان، وأرسل إلى الخليفة يظهر له العبوديّة، وأنّه قد سلّم أمره إليه ليفعل ما تقتضيه العواطف معه في تقرير القواعد مع السلطان طغرلبك، وكذلك قال من مع عبد الرحيم من الأمراء، فأجيبوا بأنّ المصلحة أن يدخل الأجناد خيامهم من ظاهر بغداد، وينصبوها بالحريم، ويُرسلوا رسولاً إلى طغرلبك يبذلون له الطاعة والخطبة، فأجابوا إلى ذلك وفعلوه، وأرسلوا رسلاً إليه، فأجابهم إلى ما طلبوا، ووعدهم الإحسان إليهم.

وتقدّم الخليفة إلى الخطباء بالخطبة لطغرلبك بجوامع بغداد، فخُطب له يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان من السنة، وأرسل طغرلبك يستأذن الخليفة في دخول بغداد، فأذن له، فوصل النهروان وخرج الوزير رئيس الرؤساء إلى لقائه في موكب عظيم من القضاة والنقباء والأشراف، والشهود، والخدم، وأعيان الدولة، وصحبه أعيان الأمراء من عسكر الرحيم. فلمّا علم طغرلبك بهم أرسل إلى طريقهم الأمراء، ووزيره أبا نصر الكندريّ، فلمّا وصل رئيس الرؤساء إلى السلطان أبلغه رسالة الخليفة، واستحلفه للخليفة، وللملك الرحيم، وأمراء الأجناد، وسار طغرلبك ودخل بغداد يوم الاثنين لخمس بقين من الشهر،(٦١١/٩)ونزل بباب الشمّاسيّة، ووصل إليه قريش بن بدران، صاحب الموصل، وكان في طاعته قبل هذا الوقت على ما ذكرناه.

ذكر وثوب العامّة ببغداد بعسكر السلطان طغرلبك وقبض الملك الرحيم

لما وصل السلطان طغرلبك بغداد دخل عسكره البلد للامتيار، وشراء ما يريدونه من أهلها، وأحسنوا معاملتهم، فلمّا كان الغد، وهو يوم الثلاثاء، جاء بعض العسكر إلى باب الأزج، وأخذ واحداً من أهله ليطلب منه تبناً، وهو لا يفهم ما يريدون، فاستغاث عليهم، وصاح العامّة بهم، ورجموهم، وهاجوا عليهم.

وسمع الناس الصياح، فظنّوا أنّ الملك الرحيم وعسكره قد عزموا على قتال طغرلبك، فارتجّ البلد من أقطاره، وأقبلوا من كلّ

حدبٍ ينسلون، يقتلون من الغُزّ من وُجد في محالّ بغداد، إلاّ أهل الكرخ فإنّهم لم يتعرّضوا إلى الغُزّ، بل جمعوهم وحفظوهم.

وبلغ السلطان طغرلبك ما فعله أهل الكرخ من حماية أصحابه، فأمر بإحسان معاملتهم. فأرسل عميد الملك، الوزير، إلى عدنان بن الرضيّ، نقيب العلويّين، يأمره بالحضور، فحضر، فشكره عن السلطان، وترك عنده خيلاً بأمر السلطان تحرسه وتحرس المحلة .

وأمّا عامّة بغداد فلم يقنعوا بما عملوا، حتّى خرجوا ومعهم جماعة من العسكر إلى ظاهر بغداد، يقصدون العسكر السلطانيّ، فلو تبعهم الملك الرّحيم(٦١٢/٩)وعسكره لبلغوا ما أرادوا، لكن تخلّفوا ودخل أعيان أصحابه إلى دار الخلافة، وأقاموا بها نفياً للتهمة عن أنفسهم، ظنّاً منهم أنّ ذلك ينفعهم .

وأما عسكر طغرلبك فلمّا رأوا فعل العامّة وظهورهم من البلد قاتلوهم فقُتل بين الفريقين جمع كثير، وانهزمت العامّة، وجُرح فيهم وأُسر كثير، ونهب الغُزّ درب يحيى، ودرب سليم، وبه دور رئيس الرؤساء ودور أهله، فنُهب الجميع، ونُهبت الرّصافة، وتسرب الخلفاء، وأُخذ منها من الأموال ما لا يُحصى، لأنّ أهل تلك الأصقاع نقلوا إليها أموالهم اعتقاداً منهم أنّها محترمة. ووصل النهب إلى أطراف نهر المعلّى واشتدّ البلاء على الناس وعظم الخوف، ونقل الناس أموالهم إلى باب النُّوبي، وباب العامّة، وجامع القصر، فتعطّلت الجمعات لكثرة الزحمة.

وأرسل طغرلبك من الغد إلى الخليفة يعتب، وينسب ما جرى إلى الملك الرحيم وأجناده، ويقول: إن حضروا بُرئت ساحتهم، وإن تأخّروا عن الحضور أيقنتُ أنّ ما جرى إنّما كان بوضعٍ منهم.

وأرسل للملك الرحيم وأعيان أصحابه أماناً لهم، فتقدّم إليهم الخليفة بقصده، فركبوا إليه، وأرسل الخليفة معهم رسولاً يبرّئهم ممّا خامر خاطر السلطان، فلمّا وصلوا إلى خيامه نهبهم الغُزّ، ونهبوا رسل الخليفة معهم، وأخذوا دوابّهم وثيابهم.

ولما دخل الملك الرحيم إلى خيمة السلطان أمر بالقبض عليه وعلى من معه، فقُبضوا كلّهم آخر شهر رمضان، وحُبسوا، ثمّ حُمل الرحيم إلى قلعة السّيروان؛ وكانت ولاية الملك الرحيم على بغداد ستّ سنين وعشرة أيّام،(٦١٣/٩) ونهب أيضاً قريش بن بدران، صاحب الموصل،ومن معه من العرب، ونجا مسلوباً، فاحتمى بخيمة بدر بن المهلهل، فألقوا عليه الزّلاليّ حتى أخفوه بها عن الغُزّ.

ثمّ علم السلطان بذلك، فأرسل إليه،وخلع عليه، وأمره بالعود إلى أصحابه وحلله تسكيناً له.

وأرسل الخليفة إلى السلطان ينكر ما جرى من قبض الرحيم وأصحابه، ونهْب بغداد، ويقول: إنّهم إنّما خرجوا إليك بأمري وأماني، فإن أطلقتهم، وإلاّ فأنا أفارق بغداد، فإني إنّما اخترتك واستدعيتُك اعتقادا منيّ أنّ تعظيم الأوامر الشريفة يزداد، وحرمة الحريم تعظم ،وأرى الأمر بالضدّ.فأطلق بعضهم، وأخذ جميع إقطاعات عسكر الرحيم، وأمرهم بالسعيّ في أرزاق يحصّلونها لأنفسهم.فتوجه كثير منهم إلى البساسيريّ ولزموه، فكثر جمعه ونفق سوقه.

وأمر طغرلبك بأخذ أموال الأتراك البغداديين، وأرسل إلى نور الدولة دُبَيْس يأمره بإبعاد البساسيريّ عنه، ففعل، فسار إلى رحبة مالك بالشام،على ما نذكره، وكاتب المستنصرة، صاحب مصر، بالدخول في طاعته. وخطب نور الدولة لطغرلبك في بلاده، وانتشر الغُزُّ السلجوقية في سواد بغداد، فنهبوا من الجانب الغربي من تكريت إلى النيل ومن الشرقيّ إلى النهروان وأسافل الأعمال، وأسرفوا في النهب، حتى بلغ ثمن الثور ببغداد خمسة قراريط إلى عشرة، والحمار بقيراطين إلى خمسة، وخَرب السواد، وأجلى أهله عنه.

وضمن السلطان طغرلبك البصرة والأهواز من هزارسب بن بنكير بن عياض (٦١٤/٩) بثلاثمائة ألف وستين ألف دينار، وأقطعه أرّجان،وأمره أن يخطب لنفسه بالأهواز، دون الأعمال التي ضمنها، وأقطع الأمير أبا عليّ بن أبي كاليجار الملك قرميسين وأعمالها، وأمر أهل الكرخ أن يؤذّنوا في مساجدهم سحراً: الصلاة خير من النوم؛ وأمر بعمارة دار المملكة، فعُمرت، وزيد فيها، وانتقل إليها في شوال.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وقعت الفتنة بين الفقهاء الشافعية والحنابلة ببغداد، ومقدّم الحنابلة أبو عليّ بن الفرّاء، وابن التميميّ، وتبعهم من العامة الجمُّ الغفير، وأنكروا الجهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم، ومنعوا من الترجيع في الأذان، والقنوت في الفجر، ووصلوا إلى ديوان الخليفة، ولم ينفصل حال، وأتى الحنابلة إلى مسجد بباب الشعير، فنهوا إمامه عن الجهر بالبسملة، فأخرج مصحفاً وقال: أزيلوها من المصحف حتّى لا أتلوها.

وفيها كان بمكّة غلاء شديد، وبلغ الخبز عشرة أرطال بدينار مغربيّ، ثمّ تعذّر وجوده، فأشرف الناس والحجّاج على الناس، فأرسل اللّه تعالى عليهم من الجراد ما ملأ الأرض فتعوّض الناس به، ثمّ عاد الحاجّ فسهّل الأمر على أهل مكّة؛ وكان سبب هذا الغلاء عدم زيادة النيل بمصر عن العادة، فلم يُحمل منها الطعام إلى مكّة.

وفيها ظهر باليمن إنسان يُعرف بأبي كامل عليّ بن محمّد

الصُّليحيّ، واستولى على اليمن، وكان معلّماً، فجمع إلى نفسه جمعاً، وانتمى إلى صاحب مصر، وتظاهر بطاعته، فكثر جمعه وتبعه، واستولى على البلاد، وقوي على ابن (٦١٥/٩)سادل وابن الكريديّ المقيمين بها على طاعة القائم بأمر اللّه، وكان يتظاهر بمذهب الباطنيّة.

وفيها خطب محمود الخفاجيّ للمستنصر العلويّ، صاحب مصر، بشفاثا والعين، وصار في طاعته .

وفيها، في شوّال، توفّي قاضي القضاة أبو عبد اللّه الحسين بن عليّ بن ماكولا، ومولده سنة ثمان وستّين وثلاثمائة، وبقي في القضاء سبعاً وعشرين سنة؛ كان شافعيّاً، ورعاً، نزهاً، أميناً، وولّي بعده أبو عبد اللّه محمد بن عليّ بن الدامغانيّ الحنفيّ.

وفيها، في ذي القعدة، توفّي ذخيرة الدين أبو العبّاس محمد ابن أمير المؤمنين، ومولده في جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة.

وفيها قبض الملك الرحيم قبل وصول طغرلبك إلى بغداد على الوزير أبي عبد اللّه عبد الرحمن بن الحسين بن عبد الرحيم، وطُرح في بئر في دار المملكة، وطُمّ عليه، وكان وزيراً متحكّماً في دولته.

وفيها، في المحرّم، توفّي القاضي أبو القاسم عليّ بن المحسن بن عليّ التنّوخيّ، ومولده بالبصرة سنة خمس وستّين وثلاثمائة، وخلّف ولداً صغيراً، وهو أبو الحسن محمّد بن عليّ، ثمّ توفّي في شوّال سنة أربع وتسعين وأربعمائة، وانقرض بيته بموته، قال القاضي ابو عبد اللّه بن الدّامغانيّ: دخلت على أبي القاسم قبل موته بقليل، فأخرج إليّ ولده هذا مع جاريته وبكى فقلتُ: (٦١٦/٩)يعيش إن شاء اللّه وتربّيه؛ فقال: هيهات!واللّه لا يتربّى إلاّ يتيماً ؛ وأنشد:

أرى ولد الفتى كلاً عليه ... لقد سعد الذي أمسى عقيما
فإمّا أن تربّيه عدوّاً ... وإمّا أن تخلّفه يتيما

فتربى يتيماً كما قال.

وفي جمادى الأولى توفّي أبو محمد الحسن بن رجاء الدهّان اللغويّ .

وفي جمادى الآخرة فيها توفّي أبو القاسم منصور بن حمزة بن إبراهيم الكرخيّ من كرخ جدّان، الفقيه الشافعيّ.

وفي رجب توفّي أبو نصر أحمد بن محمّد الثابتيّ، الفقيه الشافعيّ، وهما من شيوخ أصحاب أبي حامد الأسفراييني.

وفي شعبان توفّي أبو البركات حسين بن عليّ بن عيسى الرّبعيّ النحويّ، وكان ينوب عن الوزراء ببغداد.(٦١٧/٩)

سنة ثمان وأربعين وأربعمائة

ذكر نكاح الخليفة ابنة داود أخي طغرلبك

في هذه السنة، في المحرّم، جلس أمير المؤمنين القائم بأمر اللّه جلوساً عامّاً، وحضر عميد الملك الكندريُّ، وزير طغرلبك، وجماعة من الأمراء منهم: أبو عليّ ابن الملك أبي كاليجار، وهزارسب بن بنكير بن عياض الكُرديّ، وابن أبي الشوك، وغيرهم من الأمراء الأتراك من عسكر طغرلبك.

وقام عميد الملك، وزير طغرلبك، وبيده دبوسٌ، ثم خطب رئيس الرؤساء وعقد العقد على أرسلان خاتون، واسمها خديجة ابنة داود أخي السلطان طغرلبك، وقبل الخليفة بنفسه النكاح، وحضر العقد نقيب النُّقباء أبو عليّ بن أبي تمام، وعدنان ابن الشريف الرضي، نقيب العلويّين، وأقضى القضاة الماورديُّ، وغيرهم، وأُهديتْ خاتون إلى الخليفة في هذه السنة أيضاً في شعبان، وكانت والدة الخليفة قد سارت ليلاً وتسلّمتها وأحضرتها إلى الدار.

ذكر الحرب بين عبيد المعزّ بن باديس وعبيد ابنه تميم

في هذه السنة وقعت الحرب بين عبيد المعزّ، المقيمين بالمهديّة، وعبيد ابنه تميم، بسبب منازعة أدّتْ إلى المقاتلة، فقامت عامّة زَويلة وسائر مَن بها (٦١٨/٩) من رجال الأسطول مع عبيد تميم، فأخرجوا عبيد المعزّ، وقُتل منهم كثير، ومضى الباقون منهم يريدون المسير إلى القَيروان، فوضع عليهم تميم العرب، فقتلوا منهم جمعاً غفيراً، وهذه النَّوبة هي سبب قتل تميم مَن قَتَلَ من عبيد أبيه لما ملك.

ذكر ابتداء دولة الملثّمين

في هذه السنة كان ابتداء أمر المُلثّمين، وهم عدّة قبائل يُنسبون إلى حِمْيَر، أشهرها : لمتُونة، ومنها أمير المسلمين عليُّ بن يوسف بن تاشفين، وجدالة، ولمطة.

وكان أوّل مسيرهم من اليمن، أيّام أبي بكر الصدّيق، رضي اللّه عنه، فسيّرهم إلى الشام، وانتقلوا إلى مصر، ودخلوا المغرب مع موسى بن نُصير، وتوجّهوا مع طارق إلى طنجة، فأحبّوا الانفراد، فدخلوا الصحراء واستوطنوها إلى هذه الغاية.

فلمّا كان هذه السنة توجّه رجل منهم، اسمه الجوهر، من قبيلة جدالة إلى إفريقية، طالباً للحجّ، وكان محبّاً للدين وأهله، فمرّ بفقيهٍ بالقَيروان، وعنده جماعة يتفقّهون، قيل : هو أبو عمران الفاسيُّ في غالب الظنّ، فأصغى الجوهر إليه، وأعجبه حالهم.

فلمّا انصرف من الحجّ قال للفقيه : ما عندنا في الصحراء من هذا شيء غير الشهادتَيْن، والصلاة في بعض الخاصّة، فابعث معي من يعلّمهم شرائع (٦١٩/٩) الإسلام ! فأرسل معه رجلاً اسمه عبد اللّه بن ياسين الكُزولّي، وكان فقيهاً، صالحاً، شهماً، فسار معه حتّى أتيا قبيلة لمتونة، فنزل الجوهر عن جمله، وأخذ بزمام جمل عبد اللّه بن ياسين، تعظيماً لشريعة الإسلام، فأقبلوا إلى الجوهر يهنّئونه بالسلامة، وسألوه عن الفقيه فقال : هذا حامل سنّة رسول اللّه، ﷺ، قد جاء يعلمكم ما يلزم في دين الإسلام، فرحّبوا بهما، وأنزلوهما، وقالوا : تذكر لنا شريعة الإسلام ؛ فعرّفهم عقائد الإسلام وفرائضه، فقالوا : أمّا ما ذكرتَ من الصلاة، والزّكاة، فهو قريب، وأمّا قولك مَنْ قَتَلَ يُقتل، ومَنْ سرق يُقطع، ومَنْ زنى يُجلَد، أو يُرجم، فأمر لا نلتزمه، اذهب إلى غيرنا.

فرحلا عنهم، فنظر إليهما شيخٌ كبير فقال : لا بدّ وأن يكون لهذا الجمل في هذه الصحراء شأن يُذكر في العالم، فانتهى الجوهر والفقيه إلى جدالة، قبيل الجوهر، فدعاهم عبد اللّه بن ياسين والقبائل الذين يجاورونهم إلى حكم الشريعة، فمنهم من أطاع، ومنهم من أعرض وعصى.

ثم إنّ المخالفين لهم تحيّزوا، وتجمّعوا، فقال ابن ياسين للذين أطاعوا : قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحقّ، وأنكروا شرائع الإسلام، واستعدّوا لقتالكم، فأقيموا لكم رايةً، وقدّموا عليكم أميراً، فقال له الجوهر : أنت أمير ! فقال : لا، إنّما أنا حامل أمانة الشريعة، ولكن أنت الأمير . فقال الجوهر : لو فعلتُ هذا تسلّط قبيلي على الناس، ويكون وِزْرُ ذلك عليّ . فقال له ابن ياسين : الرأي أن نوليّ ذلك أبا بكر بن عمر، رأس لمتونة وكبيرها، وهو رجل سيّد، مشكور الطريقة، مطاع في قومه، فهو يستجيب لنا لحبّ (٦٢٠/٩) الرئاسة، وتتبعه قبيلته، فنتقوّى بهم.

فأتيا أبا بكر بن عمر، وعرضا ذلك عليه، فأجاب، فعقدوا له البيعة، وسمّاه ابن ياسين أمير المسلمين، وعادوا إلى جدالة، وجمعوا إليهم من حَسُن إسلامه، وحرّضهم عبد اللّه بن ياسين على الجهاد في سبيل اللّه، وسمّاهم مرابطين، وتجمّع عليهم مَن خالفهم، فلم يقاتلهم المرابطون بل استعان ابن ياسين وأبو بكر بن عمر على أولئك الأشرار بالمصلحين من قبائلهم، فاستمالوهم وقرّبوهم حتّى حصّلوا منهم نحو ألفَيْ رجل من أهل البغي والفساد، فتركوهم في مكان، وخندقوا عليهم، وحفظوهم، ثم أخرجوهم قوماً بعد قوم، فقتلوهم، فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء، وهابوهم، فقويت شوكة المرابطين.

هذا وعبد اللّه بن ياسين مشتغل بالعلم، وقد صار عنده منهم جماعة يتفقّهون، ولما استبدّ بالأمر هو وأبو بكر بن عمر عن الجوهر الجداليّ وبقي لا حكم له تداخله الحسد، وشرع سّراً في فساد الأمر، فعُلم بذلك منه وعُقِد له مجلس، وثبّت عليه ما نُقل عنه، فحكم عليه بالقتل لأنّه نكث البيعة، وشقّ العصا، وأراد محاربة أهل الحقّ، فقُتل بعد أن صلّى ركعتَيْن، وأظهر السرور بالقتل طلباً للقاء اللّه . فاجتمعت القبائل على طاعتهم، ومن خالفهم قتلوه.

فلمّا كان سنة خمسين وأربعمائة قحطت بلادهم؛ فأمر ابن ياسين (٦٢١/٩) ضعفاءهم بالخروج إلى السوس وأخْذ الزّكاة، فجمعوا لهم شيئاً له قدرٌ وعادوا .

ثم إنّ الصحراء ضاقت عليهم، وأرادوا إظهار كلمة الحقّ، والعبور إلى الأندلس ليجاهدوا الكفّار، فخرجوا إلى السُّوس الأقصى، فجمع لهم أهل السُّوس وقاتلوهم، فانهزم المرابطون، وقُتل عبد اللّه بن ياسين الفقيه، فعاد أبو بكر بن عمر فجمع جيشاً وخرج إلى السوس في ألفَيْ راكب، فاجتمع من بلاد السوس وزناتة اثنا عشر ألف فارس، فأرسل إليهم وقال: افتحوا لنا الطريق لنجوز إلى الأندلس ونجاهد أعداء الإسلام، فأبوا ذلك، فصلّى أبو بكر، ودعا اللّه تعالى، وقال: اللهمّ إن كنّا على الحقّ فانصرنا، وإلاّ فأرحْنا من هذه الدنيا، ثم قاتلهم وصدق هو وصحابه القتال، فنصرهم اللّه تعالى، وهزم أهل السوس ومن معه وأكثر القتل فيهم، وغنم المرابطون أموالهم وأسلابهم، وقويت نفسه ونفوس أصحابه، وساروا إلى سِجِلماسة فنزلوا عليها، وطلبوا من أهلها الزكاة، فامتنعوا عليهم، وسار إليهم صاحب سِجلماسة فقاتلهم فهزموه وقتلوه، ودخلوا سِجلماسة واستولوا عليها، وكان ذلك سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.

ذكر ولاية يوسف بن تاشفين

لما ملك أبو بكر بن عمر سِجلماسة استعلم عليها يوسفَ بن تاشفين اللمتوني، وهو من بني عمّه الأقربين، ورجع إلى الصحراء، فأحسن يوسف (٦٢٢/٩) السيرة في الرعيّة، ولم يأخذ منهم سوى الزكاة، فأقام بالصحراء مدّةً، ثم عاد أبو بكر بن عمر إلى سِجلماسة، فأقام بها سنةً، والخطبة والأمر والنهي له، واستخلف عليها ابن أخيه أبا بكر بن إبراهيم بن عمر، وجهّز مع يوسف بن تاشفين جيشاً من المرابطين إلى السوس ففتِحَ على يدَيْه.

وكان يوسف رجلاً دَيِّناً، خيّراً، حازماً، داهيةً، مجرّباً، وبقوا كذلك إلى سنة اثنتين وستّين وأربعمائة، وتوفّي أبو بكر بن عمر بالصحراء، فاجتمعت طوائف المرابطين على يوسف بن تاشفين، وملّكوه عليهم، ولقّبوه أمير المسلمين، وكانت الدولة في بلاد المغرب لزناتة الذين ثاروا في أيّام الفتن، وهي دولة رديّة، مذمومة، سيئة السيرة، لا سياسة ولا ديانة، وكان أمير المسلمين وطائفته على

نهج السُّنّة، واتّباع الشريعة، فاستغاث به أهل المغرب، فسار إليها وافتتحها حصناً حصناً، وبلداً بلداً بأيسر سعي، فأحبّه الرعايا، وصلحت أحوالهم.

ثم إنّه قصد موضع مدينة مَرّاكُش، وهو قاع صفصف، لا عمارة فيه، وهو موضع متوسّط في بلاد المغرب كالقيروان في إفريقية، ومَرّاكُش تحتَ جبال المَصَامدة الذين هم أشدّ أهل المغرب قوّة، وأمنعهم معقلاً، فاختطّ هناك مدينة مَرّاكُش ليقوى على قمع أهل تلك الجبال إن همّوا بفتنة، واتّخذها مقرّاً، فلم يتحرّك أحد بفتنةٍ، وملك البلاد المتّصلة بالمجاز مثل سَبْتة، وطَنجة، وسَلا، وغيرها، وكثرت عساكره.

وخرجت جماعة قبيلة لمتونة وغيرهم، وضيّقوا حينئذ لثامهم، وكانوا قبل أن يملكوا يتلثّمون في الصحراء من الحرّ والبرد، كما يفعل العرب، والغالب على ألوانهم السُّمرة، فلمّا ملكوا البلاد ضيّقوا اللّثامَ. (٦٢٣/٩)

وقيل كان سبب اللّثام لهم أنّ طائفة من لمتونة خرجوا مُغيرين على عدوّ لهم، فخالفهم العدوّ إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلاّ المشايخ، والصبيان، والنساء، فلمّا تحقّق المشايخ أنّه العدوّ أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال، ويتلثّمن، ويضيّقنه، حتّى لا يُعرفن، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك، وتقدّم المشايخ والصبيان أمامهنّ، واستدار النساء بالبيوت، فلمّا أشرف العدوّ جمعاً عظيماً، فظنّه رجالاً، فقال : هؤلاء عند حُرَمهم يقاتلون عنهنّ قتال الموت، والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن اتّبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم.

فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ قد أقبل رجال الحيّ، فبقي العدوّ بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدوّ فأكثروا، وكان مَن قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللّثام سُنّة يلازمونه، فلا يُعرف الشيخ من الشاب، فلا يزيلونه ليلاً ولا نهاراً، وممّا قيل في اللّثام.

قومٌ لهم دَرَكُ العُلى في جِمْيَرٍ ... وإن انتَمَوا صِنهاجةٌ فهمُ هُمُ
لما حَوَوا إحرازَ كلّ فضيلةٍ ... غَلَبَ الحياءُ عليهمُ فتلثّموا

ونذكر باقي أخبار أمير المسلمين في مواضعها إن شاء اللّه تعالى. (٦٢٤/٩)

ذكر تبييض أبي الغنائم بن المحلبان

في هذه السنة بيّض علاء الدين أبو الغنائم بن المحلبان بواسط، وخطب فيها للعلويّين المصريّين.

وكان سبب ذلك أنّ رئيس الرؤساء سعى له في النظر على واسط وأعمالها، فأُجيب إلى ذلك، فانحدر إليها، فصار عنده جماعة من أعيانها، وجنّد جماعة عظيمة، وتقوّى بالبطائحيّين، وحفر على الجانب الغربيّ من واسط خندقاً، وبنى عليه سوراً، وأخذ ضريبة من سفن أُصعدتْ للخليفة، فسيّر لحربه عميد العراق أبو نصر، فاقتتلوا، فانهزم ابن المحلبان، وأُسر من أصحابه عدد كثير، ووصل أبو نصر إلى السور، فقاتله العامّة مِنْ على السور.

ثم تسلّم البلد، وأمر أهله بطمّ الخندق، وتخريب السور، ثم أصعد إلى بغداد، فلمّا فارقها عاد إليها ابن فسانجس، ونهب قرية عبد اللّه، وقتل كلّ أعمى رآه بواسط، وأعاد خطبة المصريّين، وأمر أهل كلّ محلّة بعمارة ما يليهم من السور.

ومضى منصور بن الحسين إلى المدار، وأرسل إلى بغداد يطلب المدد، فكتب إليه عميد العراق ورئيس الرؤساء يأمرانه أن يقصد واسطاً هو وابن الهيثم، وأن يحاصراها، فأقبلا إليها فيمن معهما وحصروها في الماء والبرّ، وكان هذا الحصار سنة تسع وأربعين [وأربعمائة]، فاشتدّ فيها الغلاء حتّى بيع التمر، والخبز، وكروش البقر، كلّ خمسة أرطال بدينار، وإذا وُجد (٦٢٥/٩) الخبازي باعوه كلّ عشرين رطلاً بدينار.

ثمّ ضعفوا وضجروا من الحصار، فخرج ابن فسانجس ليقاتل، فلم يثبت، وقُتل جماعة من أصحابه، وانهزموا إلى سور البلد، واستأمن جماعة من الواسطيين إلى منصور بن الحسين، وفارق ابن فسانجس واسطاً، ومضى إلى قصر ابن أخضر، وسار إليه طائفة من العسكر ليقاتلوه، فادركوه بقرب النيل، فأُسر هو وأهله، وحُمل إلى بغداد، فدخلها في صفر سنة تسع وأربعين [وأربعمائة] وشُهّر على جمل، وعليه قميص أحمر، وعلى رأسه طُرطُور بودَعٍ، وصُلب.

ذكر الوقعة بين البساسيريّ وقُرَيش

في هذه السنة، سلخ شوّال، كانت وقعة بين البساسيريّ ومعه نور الدولة دُبيس بن مَزيد، وبين قُريش بن بدران، صاحب الموصل، ومعه قتلمش، وهو ابن عمّ السلطان طغرلبك، وهو جدّ هؤلاء الملوك أولاد قلج أرسلان، ومعه أيضا سهم الدولة أبو الفتح بن عمرو، وكانت الحرب عند سِنجار، فاقتتلوا، فاشتدّ القتال بينهم، فانهزم قريش وقتلمش، وقُتل من أصحابهما الكثير.

ولقي قتلمش من أهل سِنجار العنت، وبالغوا في أذاه وأذى أصحابه، وجُرح قريش بن بدران، وأتى إلى نور الدولة جريحاً، فأعطاه خلعةً كانت قد نُفّذت من مصر، فلبسها وصار في جملتهم، وساروا إلى الموصل، (٦٢٦/٩) وخطبوا لخليفة مصر بها، وهو المستنصر باللّه، وكانوا قد كاتبوا الخليفة المصريّ بطاعتهم، فأرسل إليهم الخِلع من مصر للبساسيريّ، ولنور الدولة دُبيس بن مَزْيد، ولجابر بن ناشب، ولمقبل بن ردان أخي قريش، ولأبي الفتح بن ورّام، ونصير بن عمر، وأبي الحسن بن عبد الرحيم، ومحمّد بن

حمّاد، وانضاف إليهم قريش بن بدران.

ذكر مسير السلطان طغرلبك إلى الموصل

لما طال مُقام السلطان طغرلبك ببغداد، وعمّ الخلق ضَرَرُ عسكره، وضاقت عليهم مساكنهم، فإن العساكر نزلوا فيها، وغلبوهم على أقواتهم، وارتكبوا منهم كلّ محظور، أمر الخليفة القائم بأمر اللّه وزيره رئيس الرؤساء أن يكتب إلى عميد الملك الكندريّ، وزير السلطان طغرلبك، يستحضره، فإذا حضر قال له عن الخليفة ليُعرّف السلطان ما الناس فيه من الجور والظلم، ويعظه، ويذكّره، فإن أزال ذلك، وفعل ما أمر اللّه به، وإلاّ فيساعد الخليفة على الانتزاح عن بغداد ليبعد عن المنكرات.

فكتب رئيس الرؤساء إلى الكندريّ يستدعيه، فحضر، فأبلغه ما أمر به الخليفة، وخرج توقيع من الخليفة إلى السلطان فيه مواعظ، فمضى إلى السلطان وعرّفه الحال، فاعتذر بكثرة العساكر، وعجزه عن تهذيبهم وضبطهم، وأمر عميد الملك أن يبكّر بالجواب إلى رئيس الرؤساء، ويعتذر بما ذكره.

فلمّا كان تلك الليلة رأى السلطان في منامه النبيَّ ﷺ، عند الكعبة وكأنّه يسلّم على النبيّ وهو مُعرض عنه لم يلتفتْ إليه، وقال له : يحكّمك اللّه في بلاده وعباده، فلا تراقبه فيهم، ولا تستحي من جلاله، عزّ (٦٢٧/٩) وجلّ، في سوء معاملتهم، وتغترّ بإهماله عند الجور عليهم !

فاستيقظ فزعاً، وأحضر عميدَ الملك، وحدّثه ما رأى، وأرسله إلى الخليفة يعرّفه أنّه يقابل ما رسم به بالسمع والطاعة، وأخرج الجند من دور العامّة، ومر أن يظهر من كان مختفياً، وأزال التوكيل عمّن كان وكّل به.

فبينما هو على ذلك، وقد عزم على الرحيل عن بغداد للتخفيف عن أهلها، وهو يتردّد فيه إذ أتاه الخبر بهذه الوقعة المتقدّمة، فتجهّز وسار عن بغداد عاشر ذي القعدة، ومعه خزائن السلاح، والمنجنيقات، وكان مقامه ببغداد ثلاثة عشر شهراً وأياماً لم يلق الخليفة فيها، فلمّا بلغوا أوانا نهبها العسكر، ونهبوا عُكبرا وغيرهما.

ووصل إلى تكريت فحصرها، وبها صاحبها نصر بن عليّ بن خميس فنصب على القلعة عَلَماً أسود، وبذل مالاً، فقبله السلطان، ورحل عنه إلى البَوازيج ينتظر جمع العساكر ليسير إلى الموصل، فلمّا رحل عن تكريت توفّي صاحبها، وكانت أمّه أميرة بنت غريب بن مقن، فخافت أن يملك البلدة أخوه ابن الغِشّام، فقتلته وسارت إلى الموصل، فنزلت على دُبَيْس بن مَزْيد، فتزوّجها قُريش بن بدران، ولما رحلت عن تكريت استخلفت به أبا الغنائم ابن المحلبان، فراسل رئيسَ الرؤساء واستعطفه، فصلح ما بينهما، وسلّم تكريت إلى السلطان ورحل إلى بغداد.

وأقام السلطان بالبوازيج إلى أن دخلت سنة تسع وأربعين [وأربعمائة] فأتاه أخوه ياقوتي في العساكر، فسار بهم إلى الموصل، وأقطع مدينة بلَد لهزارسب بن (٦٢٨/٩) بنكير، فأجفل أهل البلاد إلى بلَد، فأراد العسكر نهبهم، فمنعهم السلطان وقال : لا يجوز أن تعرضوا إلى بلَد هزارسب؛ فلجّوا وقالوا : نريد الإقامة ؛ فقال السلطان لهزارسب: إنّ هؤلاء قد احتجّوا بالإقامة، فأخرج أهل البلد إلى معسكرك لتحفظ نفوسهم . ففعل ذلك، وأخرجهم إليه، فصار البلد بعد ساعة قفراً، وفرّق فيهم هزارسب مالاً، وأركب من يعجز عن المشْي، وسيّرهم إلى الموصل ليأمنوا.

وتوجّه السلطان إلى نَصيبين، فقال له هزارسب: قد تمادت الأيّام وأرى أن أختار من العسكر ألف فارس أسير بهم إلى البرّيّة، فلعلّي أنال من العرب غرضاً ؛ فأذن له في ذلك، فسار إليهم، فلمّا قاربهم كمّن لهم كمينَيْن، وتقدّم إلى الحلل، فلمّا رأوه قاتلوه، فصبر لهم ساعةً، ثم انزاح بين أيديهم كالمنهزم، فتبعوه، فخرج عليهم الكمينان، فانهزمت العرب، وكثر فيهم القتل والأسر، وكان قد انضاف إليهم جماعة من بني نُمَيْر أصحاب حَرّان، والرَّقة، وتلك الأعمال، وحمل الأسرى إلى السلطان، فلمّا أُحضروا بين يدَيْه قال لهم : هل وطئتُ لكم أرضاً، وأخذتُ لكم بلداً؟ قالوا: لا ! قال : فَلِمَ أتيتم لحربي؟ وأحضر الفيل فقتلهم، إلاّ صبيّاً أمرد، فلمّا امتنع الفيل من قتله عفا عنه السلطان. (٦٢٩/٩)

ذكر عود نور الدولة دُبَيْس بن مزيد وقُريش بن بدران إلى طاعة طغرلبك

لما ظفر هزارسب بالعرب وعاد إلى السلطان طغرلبك، أرسل إليه نور الدولة وقُريش يسألانه أن يتوسّط حالهما عند السلطان، ويُصلح أمرهما معه، فسعى في ذلك، واستعطف السلطان عليهما، فقال : أمّا هما فقد عفوتُ عنهما، وأمّا البساسيريُّ فذنبه إلى الخليفة، ونحن متّبعون أمر الخليفة فيه ؛ فرحل البساسيريُّ عند ذلك إلى الرحبة، وتبعه الأتراك البغداديّون، ومُقْبِل بن المقلّد وجماعة من عُقَيْل.

وطلب دُبَيْس وقُريش أن يرسل طغرلبك إليهما أبا الفتح بن ورّام، فأرسله، فعاد من عندهما وأخبر بطاعتهما، وأنّهما يطلبان أن يمضي هزارسب إليهما ليحلّفهما، فأمره السلطان بالمضي إليهما، فسار واجتمع بهما، وأشار عليهما بالحضور عند السلطان، فخافا وامتنعا، فأنفذ قريش أبا السداد هبة اللّه بن جعفر، وأنفذ دُبيس ابنَهُ بهاء الدولة منصوراً، فأنزلهما السلطان وأكرمهما وكتب لهما بأعمالهما، وكان لقريش نهر الملك، وبادوريا، والأنبار، وهيت،

ودُجيل، ونهر بَيطر، وعُكبرا، وأوَانَا، وتكريت، والموصل، ونَصيبين، وأعاد الرسل إلى أصحابهم (٦٣٠/٩)

ذكر قصد السلطان ديار بكر وما فعله بسِنجار

لما فرغ طغرلبك من العرب سار إلى ديار بكر التي هي لابن مروان، وكان ابن مروان يرسل إليه كلّ يوم الهدايا والثلج، فسار السلطان إلى جزيرة ابن عمر فحصرها، وهي لابن مروان، فأرسل إليه ابن مروان يبذل له مالاً يُصلح حاله به، ويذكر له ما هو بصدده من حفظ ثغور المسلمين، وما يعانيه من جهاد الكفّار، ولما كان السلطان يحاصر الجزيرة سار جماعة من الجيش إلى عُمر أكمُن، وفيه أربعمائة راهب، فذبحوا منهم مائة وعشرين راهباً، وافتدى الباقون أنفسهم بستّة مكاكيك ذهباً وفضّة.

ووصل إبراهيم يَنّال أخو السلطان إليه، فلقيه الأمراء والناس كلّهم، وحملوا إليه الهدايا، وقال لعميد الملك الوزير: مَنْ هؤلاء العرب حتى تجعلهم نظراء السلطان، وتصلح بينهم؟ فقال: مع حضورك يكون ما تريد، فأنت نائب السلطان.

ولما وصل إبراهيم ينّال أرسل هزارسب إلى نور الدولة بن مَزْيد وقُريش يعرّفهما وصوله، ويحذّرهما منه، فسارا من جبل سِنجار إلى الرَّحبة، فلم يلتفت البساسيريُّ إليهما، فانحدر نور الدولة إلى بلدة بالعراق، وأقام قريش عند البساسيريّ بالرَّحبة ومع ابنه مسلم بن قريش.

وشكا قتلمش ابن عمّ السلطان إليه ما لقي من أهل سنجار في العام الماضي لما انهزم، وأنّهم قتلوا رجالاً، فسيّر العساكر إليهم، فأحاطت بهم، وصعد أهلها على السور وسبوا، وأخرجوا جماجم مَن كانوا قتلوا، وقلانسهم، (٦٣١/٩) وتركوها على رؤوس القصب، ففتحها السلطان عنوةً، وقتل أميرها مجلى ابن مرجّا وخلقاً كثيراً من رجالها، وسبى نساءهم، وخرّبت، وسأل إبراهيم ينّال في الباقين فتركهم، فسلّمها هي والموصل والبلاد إلى إبراهيم ينّال، ونادى في عسكره: من تعرّض لنهب صلبتُه؛ فكفّوا عنهم.

وعاد السلطان إلى بغداد، على ما نذكره؛ كان ينبغي أن نذكر هذه الحادثة سنة تسع وأربعين [وأربعمائة] وإنّما ذكرناها هذه السنة لأنّ الابتداء بها كان فيها، فأتبعنا بعضها بعضاً، وذكرنا أنّها كانت سنة تسع وأربعين.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة انقطعت الطرق عن العراق لخوف النهب، فغلت الأسعار، وكثر الغلاء، وتعذّرت الأقوات وغيرها من كلّ شيء، وأكل الناس الميتة، ولحقهم وباء عظيم، فكثر الموت حتى دُفن الموتى بغير غُسل ولا تكفين، فبيع رطل لحم بقيراط، وأربع دجاجات بدينار، ورطلا شراب بدينار، وسفرجلة بدينار، ورُمانة بدينار، وكلّ شيء كذلك.

وكان بمصر أيضاً وباء شديد، فكان يموت في اليوم ألف نفس، ثم عمّ ذلك سائر البلاد من الشام، والجزيرة، والموصل، والحجاز، واليمن وغيرها.

وفيها، في جمادى الأولى، ولدت جارية ذخيرة الدين بن الخليفة، الذي (٦٣٢/٩) ذكرنا وفاتهُ قبلُ، ولداً ذكراً، ويسمّى عبد الله، وكني أبا القاسم، وهو المقتدي.

وفيها، في العشر الثاني من جمادى الآخرة، ظهر وقت السَّحَر في السماء ذؤابة بيضاء طولها نحو عشرة أذرع في رأي العين، وعرضها ذراع، وبقيت كذلك إلى نصف رجب واضمحلّتْ.

وفيها أمر الخليفة بأن يُؤذّن بالكرخ والمشهد وغيرهما: الصَّلاةُ خيرٌ من النوم؛ وأن يتركوا: حيّ على خير العمل؛ ففعلوا ما أمرهم به خوف السلطنة وقوّتها.

وفيها توفّي عليُّ بن أحمد بن عليّ أبو الحسن المؤدبّ المعروف بالفاليّ من أهل مدينة فَالة بالقرب من إيذَج؛ روى الحديث والأدب، وله شعر حسن فمنه قوله:

تصَدّرَ للتدريسِ كلُّ مُهوَّسٍ ... بَليدٍ تَسمّى بالفَقيهِ المُدَرِّسِ

فحَقٌّ لأهلِ العلمِ أن يتمثّلوا ... ببَيتٍ قديمٍ شاعَ في كلِّ مَجلِسِ

لقد هَزَلَتْ، حَتّى بَدَا من هُزالِها ... كُلاها، وحتى سامَها كلُّ مُفلسِ

وفي هذه السنة توفّي محمّد بن الحسين بن محمّد بن سعدون أبو طاهر البزّاز الموصليُّ، وُلد بالموصل، ونشأ ببغداد، وروى عن ابن حُبَابة، والدارقطنيّ، وابن بطّة وغيرهم، وكان موته بمصر، وفيها توفّي أميرك الكاتب البيهقيُّ في شوّال وكان من رجال الدنيا؛ ومحمّد بن عبد الواحد بن عمر بن الميمون الدارميُّ الفقيه الشافعيُّ. (٦٣٣/٩)

سنة تسع وأربعين وأربعمائة

ذكر عود السلطان طغرلبك إلى بغداد

لما سلّم السلطان طغرلبك الموصل وأعمالها إلى أخيه إبراهيم ينّال عاد إلى بغداد، فلمّا وصل إلى القُفْص خرج رئيس الرؤساء إلى لقائه، فلمّا قارب القُفْص لقيه عميد الملك، وزير السلطان، في جماعة من الأمراء، وجاء رئيس الرؤساء إلى السلطان فأبلغه سلام الخليفة واستيحاشه، فقبّل الأرض، وقدّم رئيس الرؤساء جاماً من ذهب فيه جواهر وألبسة فرجيّة جاءت معه من عند الخليفة، ووضع العمامة على مخدّته، فخدم السلطان، وقبّل الأرض، ووصل إلى بغداد، ولم يمكّن أحداً من النزول في دور الناس، وطلب السلطان

الاجتماع بالخليفة، فأذن له في ذلك.

وجلس الخليفة يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة جلوساً عامّاً، وحضر وجوه عسكر السلطان وأعيان بغداد، وحضر السلطان في الماء، وأصحابه حوله في السُّميريّات، فلمّا خرج من السُّميريّة أُركب فرساً من مراكب الخليفة، فحضر عند الخليفة، والخليفة على سرير عالٍ من الأرض نحو سبعة أذرع، وعليه بُردة النبيّ، ﷺ، وبيده القضيب الخيزُران، فقبّل السلطان الأرض، وقبّل يده، وأُجلس على كرسيّ، فقال الخليفة لرئيس الرؤساء: (٦٣٤/٩)

قل له إنّ أمير المؤمنين شاكر لسعيك، حامدٌ لفعلك، مستأنسٌ بقربك، وقد ولاّك جميع ما ولاّه اللّه من بلاده، وردّ عليك مراعاة عباده، فاتّق اللّه فيما ولاّك، واعرفْ نعمته عليك في ذلك، واجتهد في نشر العدل، وكفّ الظُّلم، وإصلاح الرعيّة.

فقبّل الأرض، وأمر الخليفة بإفاضة الخِلع عليه، فقام إلى موضع لبسها فيه وعاد وقبّل يد الخليفة ووضعها على عينَيْه، وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب، وأُعطي العهد، وخرج، وأرسل إلى الخليفة خدمة كثيرة منها خمسون ألف دينار، وخمسون مملوكاً أتراكاً من أجود ما يكون، ومعهم خيولهم وسلاحهم، إلى غير ذلك من الثياب وغيرها.

ذكر الحرب بين هزارسب وفولاذ

كان السلطان قد ضمّن هزارسب بن بنكير بن عياض البصرة، وأرّجان، وخوزستان، وشيراز، فتجرّد رسولتكين ابن عمّ السلطان ومعه فولاذ لهزارسب، وقصدا أرّجان ونهباها.

وكان هزارسب مع طغرلبك بالموصل والجزيرة، فلمّا فرغ السلطان من تلك الناحية ردّ هزارسب إلى بلاده، وأمره بقتال رسولتكين وفولاذ، فسار إلى البصرة وصادر بها تاج الدين بن سَخطة العلويّ وابن سمحا اليهوديّ بمائة ألف وعشرين ألف دينار، وسار منها إلى قتال فولاذ ورسولتكين فلقيهما، (٦٣٥/٩) وقاتلهما قتالاً شديداً، فقُتل فولاذ، وأُسر رسولتكين ابن عمّ السلطان، فأبقى عليه هزارسب، فسأل رسولتكين هزارسبَ ليرسله إلى دار الخلافة ليشفع فيه الخليفة، ففعل ذلك.

ووصل بغداد مع أصحاب هزارسب، فاجتاز بدار رئيس الرؤساء، فهجم ودخلها، واستدعى طعاماً إيجازاً للحرمة، فأمر الخليفة بإحضار عميد الملك وإعلامه بحال رسولتكين ليخاطب السلطان في أمره، فلمّا حضر عميد الملك وقيل له ذلك قال : إنّ السلطان يقول إنّ هذا لا حرمة له يستحقّ بها المراعاة ،وقد قابل إحساني بالعصيان، ويجب تسليمه ليتحقّق الناس منزلتي، وتتضاعف هيبتي، فاستقرّ الأمر، بعد مراجعة، على أن يقيّده، وخرج توقيع الخليفة : إنّ منزلة ركن الدين، يعني طغرلبك، عندنا اقتضت ما لم نفعله مع غيره لأنّه لم تجر العادة بتقييد أحدٍ في الدار العزيزة، ولا بدّ أن يكون الرضا في جواب ما فعل ؛ فراسله رئيس الرؤساء حتّى رضي.

وقد كانت دار الخلافة أيّام بني بويه ملجأ لكلّ خائف منهم، من وزير وعميد وغير ذلك، ففي الأيّام السلجوقيّة سُلك غير ذلك، وكان أوّل شيء فعلوه هذا.

ذكر القبض على الوزير اليازوريّ بمصر

في هذه السنة، في ذي الحجّة، قُبض بمصر على الوزير أبي محمّد الحسن بن عبد الرحمن اليازوريّ، وقُرّر عليه أموال عظيمة منه ومن أصحابه، ووُجد له مكاتبات إلى بغداد. (٦٣٦/٩)

وكان في ابتداء أمره قد حجّ، فلمّا قضى حجّة أتى المدينة، وزار مسجد رسول اللّه، ﷺ، فسقط على منكبَيْه قطعة من الخلوق الذي على حائط الحجرة، فقال له أحد القوام : أيّها الشيخ ! إني أُبشّرك، ولي الحباء والكرامة إذ بلغتَه، أنّك تلي ولاية عظيمة، وهذا الخلوق دليل على ذلك.

فلم يَحُلْ عليه الحول حتّى وليَ الوزارة، وأحسن إلى ذلك الرجل ورعاه.

وكان يتفقّه على مذهب أبي حنيفة، وكان قاضياً بالرملة، يكرم العلماء، ويحسن إليهم ويجالسهم، وكان ابتداء أمره كابتداء أمر رئيس الرؤساء : الشهادة، والقضاء، وكانت سعادتهما متّفقة، ونهايتهما متقاربة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة زاد الغلاء ببغداد والعراق حتّى بيعت كارة الدقيق السميد بثلاثة عشر ديناراً، والكارة من الشعير والذرة بثمانية دنانير، وأكل الناس الميتة والكلاب وغيرها، وكثر الوباء حتّى عجز الناس عن دفن الموتى، فكانوا يجعلون الجماعة في الحفيرة.

وفيها، في ربيع الأوّل، توفّي أبو العلاء أحمد بن عبد اللّه بن سليمان المَعرّيُّ، الأديب، وله نحو ستّ وثمانين سنة، وعلمه أشهر من أن يُذكر، إلاّ أنّ أكثر الناس يرمونه بالزندقة، وفي شعره ما يدلّ على ذلك، حُكي أنّه قال يوماً (٦٣٧/٩) لأبي يوسف القزوينيّ، ما هجوتُ أحداً ؛ فقال له القزوينيُّ : هجوتَ الأنبياء ؛ فتغيّر وجهه وقال : ما أخاف أحداً سواك.

وحكى عنه القزوينيُّ أنّه قال: ما رأيتُ شعراً في مرثية الحسين بن عليّ يساوي أن يُحفظ ؛ فقال القزوينيُّ : بلى، قد قال أهل سوادنا:

راسُ ابـن بنـتِ محمّـدٍ ووصيّـه … للمُسـلمينَ علـى قنـاةٍ يُرفَـعُ
والمسـلمون بمَنْظـرٍ وبِمَسْـمَعٍ … لا جـازعٌ منهـم، ولا متفجّـعُ
أيقظتَ أجفانـاً وكنتَ لهـا كـرىً … وأنَمْتَ عَيناً لـم تكـن بـك تَهجَعُ
كُحِلتْ بمَصرَعـك العيـونُ عَمايـةً، … واصـمّ نعيُـك كـلّ أُذنٍ تَسْـمَعُ
مـا روضـةٌ إلاّ تمنّـتْ أنّهـا … لـك مَضجَعٌ ولخَـطّ قـبرِك مَوضِـعُ

وفيها أصلح دُبَيس بـن علـيّ بـن مَزْيَـد ومحمـود بـن الأحـزم الخفاجيُّ حالهما مع السلطان، فعاد دُبيس إلى بلاده فوجدها خراباً لكثرة من مات بها من الوباء الجارف، ليس بها أحد.

وفيها كثر الوباء ببخارى حتّى قيل إنّه مات في يوم واحد ثمانية عشر ألف إنسان من أعمال بخارى، وهلك في هذه الولاية في مدّة الوباء ألف ألف وستّمائة ألف وخمسون ألفاً، وكان بسَـمَرْقَند مثـل ذلك، ووُجد ميّت، وقد دخل تركيّ يأخذ لحافاً عليه، فمات التركيُّ وطرف اللحاف بيده، وبقيت أموال الناس سائبةً.

وفيها نُهبت دار أبي جعفر الطُّوسيّ بالكَرخ، وهو فقيه الإماميّة، وأُخِذ (٦٣٨/٩) ما فيها، وكان قد فارقها إلى المشهد الغربيّ.

وفيها، في صفر، توفّي أبو عثمان إسـماعيل بـن عبـد الرحمـن الصابونيّ، مقدّم أصحاب الحديث بخُراسان، وكان فقيهـاً، خطيبـاً، إماماً، في عدّة علوم.

وفيها، في ربيع الأوّل، توفي اياز بـن ايمـاق أبـو النجـم غـلام محمود بن سبكتكين، وأخباره معه مشهورة.

وفيها مـات أبـو أحمـد عدنـان أبـو الشّريف الرَّضـي نقيـب العلويين.

وفيها توفّي أبو الحسين عبـد الوهّـاب بـن أحمـد بـن هـارون الغسانيُّ، المعروف بابن الجُنْديّ. (٦٣٩/٩)

سنة خمسين وأربعمائة

ذكر مفارقة إبراهيم ينّال الموصل واستيلاء البساسيريّ عليها وأخذها منه

في هذه السنة فارق إبراهيم ينّال الموصـل نحـو بـلاد الجبـل، فنسب السلطان طغرلبك رحيله إلى العصيان، فأرسـل إليـه رسـولاً يستدعيه، وصحبته الفَرجيّة التي خلعها عليه الخليفة، وكتب الخليفة إليه أيضاً كتاباً في المعنى، فرجع إبراهيم إلى السلطان، وهو ببغداد، فخرج الوزير الكندريُّ لاستقباله، وأرسل الخليفة إليه الخِلَع.

ولما فارق إبراهيم الموصل قصدها البساسيريُّ، وقريش بـن بدران، وحاصراها، فملكا البلد ليومه، وبقيت القلعة، وبهـا الخـازن ،وأردم، وجماعة من العسكر، فحاصراها أربعة أشهر حتّى أكل مـن فيها دوابّهم، فخاطب ابن مُوسَك صاحب إربل قريشاً حتّـى أمّنهـم فخرجوا، فهدم البساسيريُّ القلعة، وعفّى أثرها.

وكان السلطان قد فرّق عسكره في النَّوروز، وبقـي جريـدة فـي ألفَيْ فارس (٦٤٠/٩) حين بلغه الخبر، فسار إلى الموصل فلم يجد بها أحداً؛ كان قريش والبساسيريُّ قد فارقاها، فسار السـلطان إلـى نَصيبين ليتتبّع آثارهم ويخرجهم من البـلاد، ففارقـه أخـوه إبراهيـم ينّال، وسـار نحـو همَـذان، فوصلهـا فـي السـادس والعشـرين مـن رمضان سنة خمسـين [وأربعمائـة]، وكـان قـد قيـل إنّ المصريّيـن كاتبوه والبساسيريّ قد استماله وأطمعه في السـلطنة والبـلاد، فلمّا عاد إلى هَمَذان سار السلطان في أثره.

ذكر الخطبة بالعراق للعلويّ المصريّ وما كان إلى قتل البساسيريّ

لما عاد إبراهيم ينّـال إلـى هَمَـذان سـار طغرلبـك خلفـه، وردّ وزيرَه عميد الملك الكندريُّ وزوجته إلى بغداد.

وكان مسيره من نَصيبين في منتصف شهر رمضان، ووصل إلى هَمَذان، وتحصّن بالبلد، وقاتل أهلُها بين يدَيْه، وأرسل إلى الخاتون زوجتـه وعميـد الملـك الكنـدريّ يأمرهمـا باللحـاق بـه، فمنعهمـا الخليفة من ذلك تمسّكاً بهما، وفرّق غلالاً كثيرة في النـاس، وسـار من كان ببغداد مـن الأتـراك إلـى السـلطان بهمـذان، وسـار عميـد الملك إلى دُبَيْس بن مَزْيد فاحترمه وعظّمه، ثمّ سار مـن عنـده إلـى هزارسب، وسارت خاتون إلى السلطان بهمـذان، فأرسـل الخليفـة إلى نور الدولة دُبيس بن مَزْيد يأمره بالوصول إلى بغداد، فورد إليها في مائة فارس، ونزل في النجمي ثم عبر إلى الأتانين.

وقـوي الإرجـاف بوصـول البساسيريّ، فلمّـا تحقّـق الخليفـة وصوله إلى هَيْت (٦٤١/٩) أمر الناس بالعبور من الجـانب الغربـيّ إلى الجانب الشرقيّ، فأرسل دُبَيْـس بـن مَزْيـد إلـى الخليفـة وإلـى رئيس الرؤساء يقول: الرأي عندي خروجكما من البلد معي، فإنّني أجتمع أنا وهزارسب فإنّه بواسط على دفـع عدوّكمـا، فـأُجيب ابـن مَزْيد بأن يُقيم حتّى يقع الفكر في ذلك، فقـال: العـرب لا تطيعنـي على المقـام، وأنـا أتقـدّم إلـى دَيـالى! فـإذا انحدرتـم سِـرتُ فـي خدمتكم. وسار وأقام بدَيَالى ينتظرهما، فلم يرَ لذلـك أثـراً، فسـار إلى بلاده.

ثمّ إنّ البساسيريّ وصل إلى بغداد يوم الأحد ثامن ذي القعدة، ومعه أربعمائة غلام إلى غاية الضرّ والفقر، وكان معـه أبـو الحسـن بن عبد الرحيم الوزيـر، فـنزل البساسيريُّ بمشرعة الروايـا، ونـزل قُريش بن بدران، وهو في مائتَيْ فارس، عند مشرعة بـاب البصـرة، وركب عميد العراق، ومعه العسكر والعوامّ، وأقـاموا بـإزاء عسـكر البساسيريّ، وعـادوا، وخطـب البساسـيريُّ بجـامع المنصـور للمستنصر بالله العلويّ، صاحب مصر، وأمر فأُذّن بحيّ علـى خـير

العمل، وعقد الجسر، وعبر عسكره إلى الزاهر وخيّموا فيه، وخطب في الجُمعة من وصوله بجامع الرُّصافة للمصريّ، وجرى بين الطائفتَيْن حروب في أثناء الأسبوع.

وكان عميد العراق يشير على رئيس الرؤساء بالتوقّف عن المناجزة، ويرى المحاجزة ومطاولة الأيّام انتظاراً لما يكون من السلطان، ولما يراه من المصلحة بسبب ميل العامّة إلى البساسيريّ، أمّا الشيعة فللمذهب، وأمّا السُّنّة فلما فعل بهم الأتراك.

وكان رئيس الرؤساء لقلّة معرفته بالحرب ولما عنده من البساسيريّ يرى المبادرة إلى الحرب، فاتّفق أن في بعض الأيّام حضر القاضي الهمذانيُّ عند رئيس الرؤساء، واستأذنه في الحرب، وضمن له قتل البساسيريّ، فأذن له (٦٤٢/٩) من غير علم عميد العراق، فخرج ومعه الخدم، والهاشميّون، والعجم، والعوامّ، إلى الحَلْبة، وأبعدوا، والبساسيريُّ يستجرهم، فلمّا أبعدوا حمل عليهم فعادوا منهزمين، وقُتل منهم جماعة، ومات في الزحمة جماعة من الأعيان، ونُهب باب الأزج، وكان رئيس الرؤساء واقفاً دون الباب، فدخل الدار، وهرب كلّ من في الحريم.

ولما بلغ عميدَ العراق فعْلُ رئيس الرؤساء لطم على وجهه كيف استبدّ برأيه ولا معرفة له بالحرب . ورجع البساسيريُّ إلى معسكره، واستدعى الخليفة عميد العراق، وأمره بالقتال على سور الحريم، فلم يَرُعْهم إلاّ الزعقات، وقد نُهب الحريم، وقد دخلوا بباب النُّوبيّ، فركب الخليفة لابساً للسواد، وعلى كتفه البُردة، وبيده السيف، وعلى رأسه اللواء، وحوله زمرة من العبّاسيّين والخدم بالسيوف المسلولة، فرأى النهب قد وصل إلى باب الفِردوس من داره، فرجع إلى ورائه، ومضى نحو عميد العراق، فوجده قد استأمن إلى قُريش، فعاد وصعد المَنْظَرة، وصاح رئيس الرؤساء : يا علم الدين ! يعني قريشاً، أميرُ المؤمنين يستدنيك ؛ فدنا منه، فقال له رئيس الرؤساء : قد أنالك اللّه منزلةً لم يُنلها أمثالك، وأمير المؤمنين يستذمّ منك على نفسه، وأهله، وأصحابه بذمام اللّه تعالى، وذمام رسوله، ﷺ، وذمام العربيّة.

فقال : قد أذمّ اللّه تعالى له ؛ قال : ولي ؟ ولمن معه ؟ قال : نعم ؛ وخلع قَلَنْسُوَته فأعطاها الخليفة، وأعطى مخصَرته رئيس الرؤساء ذماماً، فنزل إليه الخليفة ورئيس الرؤساء من الباب المقابل لباب الحَلبة، وصارا معه.

فأرسل إليه البساسيريُّ : أتخالف ما استقرّ بيننا، وتنقض ما تعاهدنا عليه ؟ فقال قُريش : لا ! وكانا قد تعاهدا على المشاركة في الذي يحصل لهما، وأن لا (٦٤٣/٩) يستبدّ أحدهما دون الآخر بشيء، فاتّفقا على أن يسلّم قريش رئيس الرؤساء إلى البساسيريّ لأنّه عدوّه، ويترك الخليفة عنده، فأرسل قريش رئيس الرؤساء إلى البساسيريّ، فلمّا رآه قال : مرحباً بمُهلك الدول، ومُخرّب البلاد ! فقال : العفو عند المقدرة . فقال البساسيريُّ: فقد قدرتَ فما عفوتَ، وأنت صاحب طيلسان، وركبتَ الأفعال الشنيعة مع حُرَمي وأطفالي، فكيف أعفو أنا، وأنا صاحب سيف؟

وأمّا الخليفة فإنّه حمله قريش راكباً إلى معسكره، وعليه السواد والبُردة، وبيده السيف، وعلى رأسه اللواء، وأنزله في خيمة، وأخذ أرسلان خاتون، زوجة الخليفة، وهي ابنة أخي السلطان طغرلبك، فلّمها إلى أبي عبد اللّه بن جردة ليقوم بخدمتها.

ونهبت دار الخلافة وحريمها أيّاماً، وسلّم قريش الخليفة إلى ابن عمّه مُهارش بن المجلّي، وهو رجل فيه دين، وله مروءة، فحمله في هودج وسار به إلى حديثه عانة فتركه بها، وسار من كان مع الخليفة من خدمه وأصحابه إلى السلطان طغرلبك مستنفرين.

فلمّا وصل الخليفة إلى الأنبار شكا البَرد، فأنفذ إلى مقدّمها يطلب منه ما يلبسه، فأرسل له جُبّة فيها قطن ولحافاً.

وأمّا البساسيريُّ فإنّه ركب يوم عيد النحر، وعَبر إلى المصلّى بالجانب الشرقيّ، وعلى رأسه الألوية المصريّة، فأحسن إلى الناس، وأجرى الجرايات على المتفقّهة، ولم يتعصّب لمذهب، وأفرد لوالدة الخليفة القائم بأمر الله داراً، وكانت قد قاربت تسعين سنة، وأعطاها جاريتَيْن من جواريها للخدمة، وأجرى (٦٤٤/٩) لها الجرابة، وأخرج محمود بن الأحزم إلى الكوفة وسَقي الفُرات أميراً.

وأمّا رئيس الرؤساء فأخرجه البساسيريُّ، آخر ذي الحجّة، من محبسه بالحريم الطاهريّ مقيّداً، وعليه جُبّة صوف، وطُرطُور من لبد أحمر، وفي رقبته مخنّقة جلود بعير، وهو يقرأ : ﴿قُلِ اللهمّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾ الآية.

وبصق أهل الكرخ في وجهه عند اجتيازه بهم، لأنّه كان يتعصّب عليهم، وشُهّر إلى حدّ النجمي، وأُعيد إلى معسكر البساسيريّ، وقد نُصبت له خشبة، وأُنزل عن الجمل، وأُلبس جلد ثَور، وجُعلت قرونه على رأسه، وجُعل في فكّيه كلاّبان من حديد، وصُلب، فبقي يضطرب إلى آخر النهار ومات.

وكان مولده في شعبان سنة سبعين وثلاثمائة، وكانت شهادته عند ابن ماكولا سنة أربع عشرة وأربعمائة، وكان حسن التلاوة للقرآن، جيّد المعرفة بالنحو.

وأمّا عميد العراق فقتله البساسيريُّ، وكان فيه شجاعة، وله فتوة، وهو الذي بنى رباط شيخ الشيوخ.

ولما خطب البساسيريُّ للمستنصر العلويّ بالعراق أرسل إليه بمصر يعرّفه ما فعل، وكان الوزير هناك أبا الفرنج ابن أخي أبي القاسم المغربيّ، وهو ممّن هرب من البساسيريّ وفي نفسه ما فيها،

فوقع فيه، وبرّد فعله، وخوف عاقبته، فتُركت أجوبته مدّةً، ثم عادت بغير الذي أمّله ورجاه.

وسار البساسيريُّ من بغداد إلى واسط والبصرة فملكهما، وأراد قصد الأهواز فأنفذ صاحبها هزارسب بن بنكير إلى دُبَيْس بن مَزْيد يطلب منه أن يصلح الأمر (٦٤٥/٩) على مال يحمله إليه، فلم يُجب البساسيريُّ إلى ذلك، وقال : لا بدّ من الخطبة للمستنصر، والسكّة باسمه ؛ فلم يفعل هزارسب ذلك، ورأى البساسيريُّ أنّ طغرلبك يمدّ هزارسب بالعساكر، فصالحه، وأصعد إلى واسط في مستهلّ شعبان من سنة إحدى وخمسين [وأربعمائة]، وفارقه صدقة بن منصور بن الحسين الأسديُّ، ولحق بهزارسب، وكان قد وليَ بعد أبيه على ما نذكره.

وأمّا أحوال السلطان طغرلبك، وإبراهيم يَنال، فإنّ السلطان كان في قلّة من العسكر، كما ذكرناه، وكان إبراهيم قد اجتمع معه كثير من الأتراك، وحلف لهم أنّه لا يصالح أخاه طغرلبك، ولا يكلّفهم المسير إلى العراق، وكان يكرهونه لطول مقامهم وكثرة إخراجاتهم، فلم يَقو به طغرلبك، وأتى إلى إبراهيم محمّد وأحمد ابنا أخيه أراتاش في خلق كثير، فازداد بهم قوّةً، وازداد طغرلبك ضعفاً، فانزاح من بين يدَيْه إلى الرَّيّ، وكاتب ألبَ أرسلان، وياقوتي، وقارون بك، أولاد أخيه داود، وكان داود قد مات، على ما نذكره سنة إحدى وخمسين [وأربعمائة] إن شاء اللّه تعالى، وملك خُراسان بعده ابنه ألب أرسلان، فأرسل إليهم طغرلبك يستدعيهم إليه، فجاؤوا بالعساكر الكثيرة، فلقي إبراهيم بالقرب من الرَّيّ، فانهزم إبراهيم ومن معه وأُخذ أسيراً هو ومحمّد وأحمد ولدا أخيه، فأمر به فخُنق بوتر قوسه تاسع جمادى الآخرة سنة إحدى وخمسين [وأربعمائة]، وقتل ولدا أخيه معه.

وكان إبراهيم قد خرج على طغرلبك مراراً، فعفا عنه، وإنّما قتله في هذه الدفعة لأنّه علم أنّ جميع ما جرى على الخليفة كان بسببه، فلهذا لم يعفُ عنه .

ولما قُتل إبراهيم أرسل طغرلبك إلى هزارسب بالأهواز يعرّفه ذلك، وعنده عميد الملك الكندريُّ، فسار إلى السلطان، فجهّزه هزارسب تجهيز مثله. (٦٤٦/٩)

ذكر عود الخليفة إلى بغداد

لما فرغ السلطان من أمر أخيه إبراهيم يَنّال عاد يطلب العراق، ليس له همّ إلاّ إعادة القائم بأمر اللّه إلى داره، فأرسل إلى البساسيريّ وقُريش في إعادة الخليفة إلى داره على أن لا يدخل طغرلبك العراق، ويقنع بالخطبة والسكّة، فلم يجب البساسيريُّ إلى ذلك، فرحل طغرلبك إلى العراق، فوصلت مقدّمته إلى قصر شيرين، فوصل الخبر إلى بغداد، فانحدر حُرَم البساسيريّ وأولاده، ورحل أهل الكرخ بنسائهم وأولادهم في دجلة وعلى الظهر، ونهب بنو شيبان الناس، وقتلوا كثيراً منهم، وكان دخول البساسيريّ وأولاده بغداد سادس ذي القعدة سنة خمسين [وأربعمائة] وخرجوا منها سادس ذي القعدة سنةإحدى وخمسين.

وثار أهل باب البصرة إلى الكرخ فنهبوه، وأحرقوا درب الزعفران، وهو من أحسن الدروب وأعمرها، ووصل طغرلبك إلى بغداد، وكان قد أرسل من الطريق الإمامَ أبا بكر أحمد بن محمّد بن أيُّوب المعروف بابن فورك، إلى قُريش بن بدران يشكره على فعله بالخليفة، وحفظه على صيانته ابنة أخيه امرأة الخليفة، ويعرّفه أنّه قد أرسل أبا بكر بن فورك للقيام بخدمة الخليفة، وإحضاره، وإحضار أرسلان خاتون ابنة أخيه امرأة الخليفة.

ولما سمع قريش بقصد طغرلبك العراق أرسل إلى مُهارش يقول له : أودعنا الخليفة عندك ثقةً بإمانتك، لينكفّ بلاء الغُزّ عنّا، والآن فقد عادوا، وهم عازمون على قصدك، فارحلْ أنت وأهلك إلى البرّيّة، فإنّهم إذا علموا أنّ الخليفة عندنا في البرّية لم يقصدوا العراق، ونحكم عليهم بما نريد. فقال (٦٤٧/٩) مُهارش : كان بيني وبين البساسيريّ عهود ومواثيق نقضها، وإنّ الخليفة قد استحلفني بعهود ومواثيق لا مخلص منها.

وسار مُهارش ومعه الخليفة حادي عشر ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة إلى العراق، وجعلا طريقهما على بلد بدر بن مُهلهِل ليأمنا من يقصدهما، ووصل ابن فورك إلى حلّة بدر بن مُهلهِل، وطلب منه أن يوصله إلى مُهارش، فجاء إنسان سواديّ إلى بدر وأخبره أنّه رأى الخليفة ومُهارشاً بتلّ عُكبرا، فسُرّ بذلك بدر ورحل ومعه ابن فورك، وخدماه، وحمل له بدر شيئاً كثيراً، وأوصل إليه ابن فورك رسالة طغرلبك وهدايا كثيرة أرسلها معه.

ولما سمع طغرلبك بوصول الخليفة إلى بلد أرسل وزيرَهُ الكندريَّ والأمراء، والحجّاب، وأصحبهم الخيام العظيمة، والسرادقات، والتحف من الخيل بالمراكب الذهب وغير ذلك، فوصلوا إلى الخليفة وخدموه ورحلوا، ووصل الخليفة إلى النّهروان في الرابع والعشرين من ذي القعدة، وخرج السلطان إلى خدمته، فاجتمع به، وقبّل الأرض بين يدَيْه، وهنّاه بالسلامة، وأظهر الفرح بسلامته، واعتذر من تأخّره بعصيان إبراهيم، وأنّه قتله عقوبة لما جرى منه من الوهن على الدولة العبّاسية، وبوفاة أخيه داود بخراسان، وأنّه اضطرّ إلى التريّث حتّى يرتب أولاده بعده في المملكة، وقال : أنا أمضي خلف هذا الكلب، يعني البساسيريّ، وأقصد الشام، وأفعل في حقّ صاحب مصر ما أجازي به فعله!

وقلّده الخليفة بيده سيفاً، وقال : لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه، (٦٤٨/٩) وقد تبرّك به أمير المؤمنين؛ فكشف غشاء الخركاة حتى رآه الأمراء، فخدموا وانصرفوا.

ولم يبق ببغداد من أعيانها من يستقبل الخليفة غير القاضي أبي عبد اللّه الدامغانيّ وثلاثة نفر من الشهود. وتقدّم السلطان في المسير، فوصل إلى بغداد وجلس في باب النُّوبيّ مكان الحاجب، ووصل الخليفة فقام طغرلبك وأخذ بلجام بغلته، حتّى صار على باب حُجرته، وكان وصوله يوم الاثنين لخمس بقين من ذي القعدة سنة[إحدى وخمسين [وأربعمائة] وعبر السلطان إلى معسكره، وكانت السنة مجدِبة، ولم ير الناس فيها مطراً، فجاء تلك الليلة وهَنأ الشعراء الخليفة والسلطان بهذا الأمر، ودام البرد بعد قوم الخليفة نيّفاً وثلاثين يوماً، ومات بالجوع والعقوبة عدد لا يحصى، وكان أبو عليّ بن شبل ممّن هرب من طائفة من الغُرّ، فوقع به غيرهم فأخذوا ماله، فقال:

خَرَجنا من قضاء اللّه خَوفاً، فكانَ فِرارُنا مِنه إليهِ
واشقَى الناسِ ذو عَزْمٍ تَوالَتْ مصائبُهُ عليه، من يليهِ
تَضيقُ عليهِ طُرقُ العُذْرِ مِنها ويَقْسُو قلبُ راحِمِه عليهِ

ذكر قتل البساسيريّ

أنفذ السلطان بعد استقرار الخليفة في داره جيشاً عليهم خمارتكين الطغرائيُّ في ألفَيْ فارس نحو الكوفة، فأضاف إليهم سرايا بن منيع الخفاجيّ، وكان قد (٦٤٩/٩) قال للسلطان، أرسلْ معي هذه العدّة حتّى أمضي إلى الكوفة وأمنع البساسيريّ من الإصعاد إلى الشام.

وسار السلطان طغرلبك في أثرهم، فلم يشعر دُبَيْس بن مَزْيد والبساسيريُّ إلاّ والسريّة قد وصلت إليهم ثامن ذي الحجّة من طريق الكوفة، بعد أن نهبوها، وأخذ نور الدولة دُبَيْس رحلَه جميعه وأحدره إلى البطيحة، وجعل أصحاب نور الدولة دُبَيس يرحلون بأهليهم، فيتبعهم الأتراك، فتقدّم نور الدولة ليردّ العرب إلى القتال، فلم يرجعوا، فمضى.

ووقف البساسيريُّ في جماعته، وحمل عليه الجيش، فأُسر من أصحابه أبو الفتح بن ورّام، وأُسر منصور وبدران وحمّاد، بنو نور الدولة دُبيس، وضُرب فرس البساسيريّ بنُشّابة، وأراد قطع تَجفافِه لتسهل عليه النجاة فلم ينقطع، وسقط عن الفرس، ووقع في وجهه ضربة، ودلّ عليه بعض الجَرحى، فأخذه كمشتكين دواتي عميد الملك الكندريّ وقتله، وحمل رأسه إلى السلطان، ودخل الجند في الظعن، فساقوه جميعه، وأُخذت أموال أهل بغداد وأموال البساسيريّ مع نسائه وأولاده، وهلك من الناس الخلق العظيم، وأمر السلطان بحمل رأس البساسيريّ إلى دار الخلافة، فحُمل إليها، فوصل منتصف ذي الحجّة سنة إحدى وخمسين [وأربعمائة]، فنُظّف وغُسل وجُعل على قناة وطيف به، وصلب قبالة باب النُّوبيّ.

وكان في أسر البساسيريّ جماعة من النساء المعلّقات بدار الخلافة، فأُخذن، وأُكرمن، وحُملن إلى بغداد.(٦٥٠/٩)

ومضى نور الدولة دُبَيْس إلى البطيحة، ومعه زعيم الملك أبو الحسن عبد الرحيم؛ وكان من حقّ هذه الحوادث المتأخّرة أن تُذكر سنة إحدى وخمسين [وأربعمائة]، وإنّما ذكرناها هاهنا لأنّها كالحادثة الواحدة يتلو بعضها بعضاً.

وكان البساسيريُّ مملوكاً تركيّاً من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة، تقلّبت به الأمور حتّى بلغ هذا المقام المشهور، واسمه أرسلان، وكنيته أبو الحارث، وهو منسوب إلى بَسا مدينة بفارس، والعرب تجعل عوض الباء فاء فتقول فسا، والنسبة إليها فساويّ، ومنها أبو عليّ الفارسيّ النحويّ، وكان سيّد هذا المملوك أوّلاً من بَسَا، فقيل له البساسيريُّ لذلك، وجعل العرب الباء فاء فقيل فساسيريّ.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أقرّ السلطان طغرلبك مملانّ بن وهسوذان بن مملان على ولاية أبيه بأذربيجان.

وفيها مات شهاب الدولة أبو الفوارس منصور بن الحسين الأسدي، صاحب الجزيرة، عند خُوزستان، واجتمعت عشيرته على ولده صدقة.

وفيها توفّي الملك الرحيم، آخر ملوك بني بويه، بقلعة الرَّيّ، وكان طغرلبك سجنه أوّلاً بقلعة السّيروان، ثم نقله إلى قلعة الرَّيّ فتوفّي بها.

وفيها عصى أبو عليّ بن أبي الجبر بالبطائح، وكان متقدّم بعض نواحيها، فأرسل إليه طغرلبك جيشاً مع عميد العراق أبي نصر، فهزمهم أبو عليّ. (٦٥١/٩) وفيها يوم النَّوروز أرسل السلطان مع وزيره عميد الملك إلى الخليفة عشرة آلاف دينار سوى ما أضيف إليها من الأعلاق النفيسة.

وفيها، في صفر، توفّي أبو الفتح بن شيطا القاري، الشاهد، وكانت شهادته سنة خمسين وأربعين وأربعمائة.

وفيها، في شهر ربيع الأوّل، توفّي القاضي أبو الطيّب الطبريُّ الفقيه الشافعيّ، وله مائة سنة وسنتان، وكان صحيح السمع والبصر، سليم الأعضاء، يناظر ويُفتي ويستدرك على الفقهاء، وحضر عميد الملك جنازته، ودُفن عند قبر أحمد، وله شعر حسن.

وفي سلخه توفّي قاضي القضاة أبو الحسين عليُّ بن محمّد بن حبيب الماورديُّ، الفقيه الشافعيُّ، وكان إماماً، وله تصانيف كثيرة منها: الحاوي وغيره في علوم كثيرة، وكان عمره ستّاً وثمانين سنة.

وفي آخر هذه السنة توفّي أبو عبد اللّه الحسين بن عليّ الرفّا، الضرير الفرضيُّ، وكان إماماً فيها على مذهب الشافعيّ.

وفيها، في شوّال، كانت زلزلة عظيمة بالعراق، والموصل، ووصلت إلى هَمَذان، ولبثت ساعةً، فخرّبت كثيراً من الدور، وهلك فيها الجمُّع الغفير.

وفيها توفّي أبو محمّد عبد اللّه بن عليّ بن عياض المعروف بابن أبي عقيل، (٦٥٢/٩) وكان قد سمع الكثير من الحديث ورواه.

وتوفّي أيضاً القاضي أبو الحسن عليُّ بن هندي قاضي حمص، وكان وافر العلم والأدب. (٥/١٠)

سنة إحدى وخمسين وأربعمائة

ذكر وفاة فرّخ زاد صاحب غزنة وملك أخيه إبراهيم

في هذه السنة، في صفر، توفّي الملك فرّخ زاد بن مسعود بن محمود بن سبكتكين، صاحب غزنة، وكان قد ثار به مماليكه سنة خمسين واتّفقوا على قتله، فقصدوه وهو في الحمّام، وكان معه سيفٌ، فأخذه وقاتلهم، ومنعهم عن نفسه حتّى أدركه أصحابه وخلّصوه، وقتلوا أولئك الغلمان.

وصار بعد أن نجا من هذه الحادثة يُكثر ذكر الموت ويحتقر الدنيا ويزدريها، وبقي كذلك إلى هذه السنة، فأصابه قُولَنْج فمات منه، وملك بعده أخوه إبراهيم بن مسعود بن محمود، فأحسن السيرة، فاستعدّ لجهاد الهند، ففتح حصوناً امتنعت على أبيه وجدّه، وكان يصوم رجباً وشعبانَ ورمضانَ.

ذكر الصُّلح بين الملك إبراهيم وجُغري بك داود

في هذه السنة استقرّ الصلح بين الملك إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين وبين داود بن ميكائيل بن سلجوق، صاحب خُراسان، على أن يكون كلّ (٦/١٠) واحد منهما على ما بيده، ويترك منازعة الآخر في ملكه.

وكان سبب ذلك أنّ العقلاء من الجانبَيْن نظروا فرأوا أنّ كل واحد من الملكَيْن لا يقدر على أخذ ما بيد الآخر، وليس يحصل غير إنفاق الأموال، وإتعاب العساكر، ونهب البلاد، وقتل النفوس، فسعوا في الصُّلح، فوقع الاتّفاق واليمين، وكُتبت النُّسَخ بذلك، فاستبشر الناس، وسرّهم لما أشرفوا عليه من العافية.

ذكر وفاة داود وملك ابنه ألب أرسلان

في هذه السنة، في رجب، توفّي جُغري بك داود بن ميكائيل بن سلجوق، أخو السلطان طغرلبك، وقيل كان موته في صفر سنة اثنتين وخمسين، وعمره نحو سبعين سنة، وكان صاحب خراسان، وهو مقابل آل سبكتكين ومقاتلهم، ومانعهم عن خراسان، فلمّا توفّي ملك بعده خراسان ابنه السلطان ألب أرسلان، وخلّف داود عدّةَ أولاد ذكور منهم: السلطان ألب أرسلان، وياقوتي، وسليمان، وقاورت بك، فتزوج أمّ سليمان السلطان طغرلبك، بعد أخيه داود، ووصّى له بالملك بعده، وكان من أمره ما نذكره.

وكان خيّراً، عادلاً، حسن السيرة، معترفاً بنعمة اللّه تعالى عليه، شاكراً عليها، فمن تلك أنّه أرسل إلى أخيه طغرلبك مع عبد الصمد، قاضي سَرْخَس، يقول له: بلغني إخرابُك البلاد التي فتحتَها وملكتَها، وجلا أهلها عنها، وهذا ما لا خفاء به في مخالفة أمر اللّه تعالى في عباده وبلاده، وأنت تعلم ما فيه من سوء السمعة وإيحاش الرعيّة. (٧/١٠)

وقد علمتَ أنّنا لقينا أعداءنا ونحن في ثلاثين رجلاً، وهم في ثلاثمائة، فغلبناهم، وكنّا في ثلاثمائة، وهم في ثلاثة آلاف، فغلبناهم، وكنّا في ثلاثة آلاف، وهم في ثلاثين ألفاً، فدفعناهم؛ وقاتلنا بالأمس شاه ملك، وهو في أعداد كثيرة متوافرة، فقهرناه، وأخذنا مملكته بخُوارزم، وهرب من بين أيدينا إلى خمسمائة فرسخ من موضعه، فظفرنا به وأسرناه وقتلناه، واستولينا على ممالك خُراسان وطبَرستان وسجستان، وصرْنا ملوكاً متبوعين، بعد أن كنّا أصاغر تابعين، وما تقتضي نعم اللّه علينا أن نقابلها هذه المقابلة.

فقال طغرلبك: قُل له في الجواب: يا أخي أنت ملكت خُراسان وهي بلاد عامرة، فخرّبتَها، ووجب عليك مع استقرار قدمك عمارتها، وأنا وردتُ بلاداً خرّبها مَنْ تقدّمني، واجتاحها من كان قبلي، فما أتمكّن من عمارتها والأعداء محيطةٌ بها، والضرورة تقود إلى طَرقها بالعساكر، ولا يمكن دفع مضرّتها عنها.

وله مناقب كثيرة تركناها خوف التطويل.

ذكر حريق بغداد

في هذه السنة احترقت بغداد: الكرخ وغيره، وبين السورَيْن، واحترقت فيه خزانة الكتب التي وقفها أردشير الوزير، ونُهبت بعض كتبها، وجاء عميد الملك الكندريُّ، فاختار من الكتب خيرها، وكان بها عشرة آلاف مجلّد وأربعمائة مجلّد من أصناف العلوم منها: مائة مصحف بخطوط بني مُقلة، (٨/١٠) وكان العامّة قد نهبوا بعضها لمّا وقع الحريق، فأزالهم عميد الملك، وقعد يختارها، فنُسب ذلك الى سوء سيرته، وفساد اختياره، وشتّان بين فعله وفعل نظام الملك الذي عمّر المدارس، ودوّن العلم في بلاد الإسلام جميعها، ووقف الكتب وغيرها.

ذكر انحدار السلطان إلى واسط وما فعل العسكر وإصلاح دُبَيْس

في هذه السنة انحدر السلطان طغرلبك إلى واسط بعد فراغه من أمر بغداد، فرآها قد نُهبت، وحضر عنده هزارسب بن بنكير، وأصلح معه حال دُبَيْس بن مَزْيد، وأحضره معه إلى خدمة السلطان، وأصعد في صحبته إلى بغداد، وكذلك صدقة بن منصور بن الحسين، وضمن واسطا أبو عليّ بن فضلان بمائتَيْ ألف دينار، وضمن البصرة الأغرُّ أبو سعد مابور بن المظفّر، وعبر السلطان إلى الجانب الشرقيّ من دجلة، وسار إلى قرب البطائح، فنهب العسكر ما بين واسط والبصرة والأهواز.

وأصعد السلطان إلى بغداد في صفر سنة اثنتين وخمسين [وأربعمائة] ومعه أبو الفتح بن ورّام، وهزارسب بن بنكير بن عياض، ودُبيس بن مَزْيد، وأبو عليّ ابن الملك أبي كاليجار، وصدقة بن منصور بن الحسين وغيرهم، واجتمع السلطان بالخليفة، وأمر الخليفة بعمل طعام كثير حضره السلطان والأمراء وأصحابهم، وعمل السلطان أيضاً سِماطاً أحضر فيه الجماعة، وخلع عليهم، وسار إلى بلاد الجبل في شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين وخمسين، وجعل ببغداد (٩/١٠) شحنة الأمير برسق، وضمنها أبو الفتح المظفّر بن الحسين ثلاث سنين بأربع مائة ألف دينار.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة عُزل أبو الحسين بن المهتدي من الخطابة بجامع المنصور لأنّه خطب للعلويّ ببغداد في الفتنة، وأقيم مقامه بهاء الشرف أبو علي الحسن بن عبد الودود بن المهتدي باللّه.

وفيها توفّي عليُّ بن محمود بن إبراهيم الزوْزنيُّ أبو الحسن، صحب أبا الحسن الحُصْريّ، وروى عن أبي عبد الرحمن السُّلميّ، وهو الذي نُسب إليه رباط الزوزنيّ المقابل لجامع المنصور.

وفيها، في جمادي الأولى، توفّي محمّد بن عليّ بن الفتح بن محمّد بن عليّ أبو طالب العُشاريُّ، ومولده في المحرّم سنة ستّ وستّين وثلاثمائة، وسمع الدارقطنيّ وغيره. (١٠/١٠)

سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة

ذكر عود وليّ العهد إلى بغداد مع أبي الغنائم بن المحلبان

في جمادى الآخرة ورد عُدّة الدين أبو القاسم المقتدي بأمر اللّه، وليُّ العهد، ومعه جدّته أمُّ الخليفة، وخرج الناس لاستقباله، وجلس في الزبزب على رأسه أبو الغنائم بن المحلبان، وقُدّم له بباب الغربة فرس، فحمله ابن المحلبان على كتفه وأركبه وسلّمه إلى مجلس الخليفة، فشكره، وخرج ابن المحلبان فركب في الزبزب، وانحدر إلى دار أُفردت له بباب المراتب، ودخل إلى الخليفة واجتمع به.

وكان سبب مصير وليّ العهد مع ابن المحلبان أنّه دخل داره، فوجد زوجة رئيس الرؤساء وأولاده بها، وهم مطلوبون من البساسيريّ، فعرّفوه أنّ رئيس الرؤساء أمرهم بقصده، فأدخلهم إلى أهله، وأقام لهم من حملهم إلى ميّافارقين، فساروا مع قرواش لمّا أصعد من بغداد، ولم يعلم بهم.

ثمّ لقيه أبو الفضل محمّد بن عامر الوكيل، وعرّفه ما عليه وليُّ العهد ومَنْ معه من إيثار الخروج من بغداد، وما هم عليه من تناقص الحال، فبعث ابن المحلبان زوجته، فأتته بهم سِرّاً، فتركهم عنده ثمانية أشهر، وكان يحضر ابن (١١/١٠) البساسيريّ وأصحابه، ويعمل لهم الدعوات، ووليُّ العهد ومن معه مستترون عنده، يسمعون ما يقول أولئك فيهم.

ثم اكترى لهم، وسار هو في صحبتهم إلى قريب سنجار، ثم حُملوا إلى حَرّان، وسار مع صاحبها أبي الزمام منيع بن وثّاب النُميريّ، حين قصد الرحبة، وفتح قَرقِيسيا، وعقد لعُدّة الدين على بنت منيع، وانحدروا إلى بغداد.

ذكر ملك محمود بن شِبْل الدولة حلب

في هذه السنة، في جمادى الآخرة، حصر محمود بن شبل الدولة بن صالح بن مرداس الكلابيُّ مدينة حلب، وضيّق عليها، واجتمع مع جمع كثير من العرب، فأقام عليها، فلم يتسهل له فتحها، فرحل عنها، ثم عاودها فحصرها، فملك المدينة عنوة في جمادى الآخرة، بعد أن حصرها، وامتنعت القلعة عليه.

وأرسل مَن بها إلى المستنصر باللّه، صاحب مصر ودمشق، يستنجدونه، فأمر ناصرَ الدولة أبا محمّد الحسين بن الحسن بن حمدان، الأمير بدمشق، أن يسير بمن عنده من العساكر إلى حلب يمنعها من محمود، فسار إلى حلب، فلمّا سمع محمود بقربه منه خرج من حلب، ودخلها عسكر ناصر الدولة فنهبوها. (١٢/١٠)

ثم إنّ الحرب وقعت بين محمود وناصر الدولة بظاهر حلب، واشتدّ القتال بينهم، فانهزم ناصر الدولة وعاد مقهوراً إلى مصر، وملك محمود حلب، وقتل عمّه معزّ الدولة، واستقام أمره بها، وهذه الوقعة تُعرف بوقعة الفُنَيْدِق، وهي مشهورة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة خلع السلطان طغرلبك على محمود بن الأخرم الخفاجيّ، ورُدّت إليه إمارة بني خفاجة، وولاية الكوفة، وسقي الفُرات، وضمن خواصّ السلطان هناك بأربعة آلاف دينار كلّ سنة، وصرف عنها رجب بن منيع.

وفيها توفّي أبو محمّد النَّسَويُّ، صاحب الشُّرطة ببغداد، وقد جاوز ثمانين سنة.

وفيها سدّ بنو ورّام بثق النَّهروانات، وشرع العميد أبو الفتح في عمارة بثوق الكَرْخ.

وفيها، في ذي القعدة، توفّيت خاتون زوجة السلطان طغرلبك بزَنجان، فوجد عليها وجداً شديداً، وحُمل تابوتها إلى الرَّيّ فدُفنت بها.

وفيها، ثالث جمادى الآخرة، انقضّ كوكب عظيم القدر عند طلوع الفجر من ناحية المغرب إلى ناحية المشرق، فطال لبثه.

وفيها جمع عطيّة بن صالح بن مرداس جمعاً وحصر الرحبة، وضيّق على أهلها، فملكها في صفر من هذه السنة. (١٣/١٠)

وفيها توفّيت والدة الخليفة القائم بأمر اللّه، واسمها قطر النَّدى، وقيل بدر الدُّجى، وقيل علَم، وهي جارية أرمينيّة.

وفيها توفّي محمّد بن الحسين بن محمّد بن الحسن أبو عليّ المعروف بالجازريّ النهروانيّ، وكان مكثِراً من الرواية، الجازريُّ بالجيم وبعد الألف زاي ثم راء.

وفيها توفّي باي أبو منصور الفقيه الجيليُّ، بالباء الموحّدة وبعد الألف ياء تحتها نقطتان، ومحمّد بن عبيد بن أحمد بن محمّد أبو عمرو بن أبي الفضل، الفقيه المالكيُّ. (١٤/١٠)

سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة

ذكر وزارة ابن دارست للخليفة

لمّا عاد الخليفة إلى بغداد استخدم أبا تراب الأثيريَّ في الإنهاء، وحضور المواكب، ولقّبه حاجب الحجّاب، وكان قد خدمه بالحديث، وقرب منه، فخاطب الشيخ أبو منصور بن يوسف في وزارة أبي الفتح منصور بن أحمد بن دارست، وقال إنه يخدم بغير إقطاع، ويحمل مالاً، فأُجيب إلى ذلك، فأُحضر من الأهواز إلى بغداد، وخُلع عليه خلعة الوزارة منتصف ربيع الآخر، وجلس في منصبه، ومدحه الشعراء، فممّن مدحه وهنّاه أبو الحسن الخبّاز بقصيدة منها:

أمِنَ المُلكُ بالأمينِ أبي الفَتْـ ... ـحِ وصُدّت عن صَفْوِهِ الأقذاءُ
دولةٌ أصبحتْ، وأنتَ وليُّ الـ ... ـرأيِ فيها، لَدَولةٌ غرّاءُ

وهي طويلة. وكان ابن دارست في أوّل أمره تاجراً للملك أبي كاليجار. (١٥/١٠)

ذكر موت المعزّ بن باديس وولاية ابنه تميم

في هذه السنة توفّي المعزُّ بن باديس، صاحب إفريقية، من مرض أصابه، وهو ضعف الكبد، وكانت مدّة ملكه سبعاً وأربعين سنة، وكان عمره لمّا ملك إحدى عشرة سنة، وقيل ثماني سنين وستّة أشهر.

وكان رقيق القلب، خاشعاً، متجنّباً لسفك الدماء إلاّ في حدّ، حليماً، يتجاوز عن الذنوب العظام، حسن الصُّحبة مع عبيده وأصحابه، مكرماً لأهل العلم، كثير العطاء لهم، كريماً، وهب مرّة مائة ألف دينار للمستنصر الزناتيّ وكان عنده وقد جاءه هذا المال، فاستكثرهُ، فأمر به فأُفرغ بين يَدَيْه، ثم وهبه له، فقيل له:لِمَ أمرتَ بإخراجه من أوعيته؟ قال:لئلاّ يقال لو رآه ما سمحت نفسه به؛ وكان له شعر حسنٌ.

ولّما مات رثاه الشعراء، فمنهم أبو الحسن بن رشيق فقال:

لكلّ حيّ وإن طالَ المدَى هُلُكُ ... لا عِزُّ مملكةٍ يبقى، ولا مَلِكُ
ولّى المُعِزُّ على أعقابِهِ فرَمَى ... أو كاد يَنهدُّ من أركانِهِ الفَلَكُ
مضى فقيداً، وأبقى في خزائنِهِ ... هامَ الملوكِ، وما أدراكَ ما ملكوا
ما كانَ إلاّ حُساماً سلّهُ قدَرٌ ... على الذين بغوا في الأرض وانهمكُوا
كأنّه لم يخُضْ للموتِ بحرَ وغىً ... خُضرُ البحارِ، إذا قِيسَتْ بهِ، بِرَكُ (١٦/١٠)
ولم يجُدْ بقَناطيرٍ مُقنطَرةٍ ... قد أرّخَتْ باسمِهِ إبريزَها السككُ
روحُ المُعزّ وروحُ الشّمسِ قد قُبضَا ... فانظُرْ بأيّ ضياءٍ يَصْعَدُ الفَلَكُ

ولما توفّي ملك بعده ابنه تميم، وكان مولدُ تميم بالمنصوريّة التي هي مقرّه، منتصف رجب سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وولاّه المهديّة في صفر سنة خمس وأربعين [وأربعمائة]، فأقام بها إلى أن وافاه أبوه المعزُّ، لمّا انتزح عن القَيروان من العرب، وقام بخدمة أبيه، وأظهر من طاعته وبِرّه ما بَانَ [به] كذب ما كان يُنسب إليه.

ولما استبدّ بالملك بعد أبيه سلك طريقه في حُسن السيرة، ومحبّة أهل العلم، إلاّ أنّه كان أصحاب البلاد قد طمعوا بسبب العرب، وزالت الهيبة والطاعة عنهم في أيّام المعزّ، فلمّا مات ازداد طمعهم، وأظهر كثير منهم الخلاف، فممّن أظهر الخلاف القائد حَمّو بن مليك، صاحب سَفَاقُسَ، واستعان بالعرب، وقصد المهديّة ليحاصرها، فخرج اليه تميم وصافّه، فاقتتلوا، فانهزم حَمّو وأصحابه، وكثر القتل فيهم، ومضى حمّو ونجا بنفسه، وتفرّقت خيله ورجاله، وكان ذلك سنة خمس وخمسين [وأربعمائة].

وسار تميم إلى سُوسَةَ، وكان أهلها قد خالفوا أباه المعزّ وعصوا عليه، فملكها وعفا عن أهلها. (١٠/ ١٧)

ذكر وفاة قُريش صاحب الموصل وإمارة ابنه شرف الدولة

في هذه السنة توفّي قُريش بن بدران صاحب الموصل ونَصيبين، أصابه خروج الدم من فيه وأنفه وعينَيْه وأذنَيْه، فحمله ابنه شرف الدولة إلى نَصيبين، حتّى حفظ خزانته بها، وتوفّي هناك.

وسمع فخر الدولة أبو نصر محمّد بن محمّد بن جُهير حاله، فسار من دارا إلى نَصيبين، وجمع بني عُقَيْل على أن يؤمّروا ابنه أبا المكارم مُسلِم بن قريش عليهم، وكان القائم بأمره جابر بن ناشب، فزوّجه فخر الدولة بأخت مسلِم، وزوّج مسلِماً بابنة نصر بن منصور.

ذكر وفاة نصر الدولة بن مروان

في هذه السنة توفّي نصر الدولة أحمد بن مروان الكرديُّ، صاحب ديار بَكر، ولقّبه القادر بالله نصر الدولة، وكان عمره نيّفاً وثمانين سنة، وإمارته اثنتين وخمسين سنة، واستولى على الأمور ببلاده استيلاء تامّاً، وعمر الثغور وضبطها، وتنعّم تنعّماً لم يُسمَعْ بمثله عن أحد من أهل زمانه.

وملك من الجواري المغنّيات ما اشترى بعضهنّ بخمسة آلاف دينار، وأكثر من ذلك، وملك خمسمائة سُرّيّة سوى توابعهن، وخمسمائة خادم.

وكان في مجلسه من الآلات ما تزيد قيمته على مائتَيْ ألف دينار، وتزوّج من بنات الملوك جملة، وأرسل طبّاخين إلى الديار المصريّة، وغرم على إرسالهم (١٨/١٠) جملة وافرة حتّى تعلّموا الطَّبخ من هناك.

وأرسل إلى السلطان طغرلبك هدايا عظيمة، من جملتها الجبل الياقوت الذي كان لبني بويه، اشتراه من الملك العزيز أبي منصور بن جلال الدولة، وأرسل معه مائة ألف دينار سوى ذلك.

ووزر له أبو القاسم بن المغربيّ، وفخر الدولة بن جُهير، ورخُصت الأسعار في أيّامه، وتظاهر الناس بالأموال، ووفد إليه الشعراء، وأقام عنده العلماء والزهّاد.

وبلغه أنّ الطيور في الشتاء تخرج من الجبال إلى القُرى فتُصاد، فأمر أن يُطرح لها الحبّ من الأهراء التي له، فكانت في ضيافته طول عمره.

ولمّا مات اتّفق وزيره فخر الدولة بن جُهير وابنه نصر، فرتّب نصراً في الملك بعد أبيه، وجرى بينه وبين أخيه سعيد حروب شديدة كان الظفر في آخرها لنصر، فاستقرّ في الإمارة بميّافارقين وغيرها، وملك أخوه سعيد آمِد.

ذكر عدّة حوادث

في رجب خُلع على الكامل أبي الفوارس طراد بن محمّد الزينبيّ، وقُلّد نقابة النقباء، ولُقّب الكامل ذا الشرفَيْن.

وفيها توفّي شمس الدين أُسامة بن أبي عبد الله بن عليّ [تولّى] نقابة العلويّين ببغداد، ولُقّب المرتضى. (١٩/١٠)

وفيها، في جمادى الأولى، انكسفت الشمس جميعها، فظهرت الكواكب، وأظلمت الدنيا، وسقطت الطيور الطائرة.

وفيها، في شهر رمضان، توفّي شكر العلويُّ الحسينيُّ، أمير مكّة، وله شعر حسن، فمنه:

قَوِّضْ خيامَك عن أرضٍ تُضامُ بها، وجانبِ الذُّلَّ، إنّ الذُّلَّ مُجْتَنَبُ
وارحَلْ إذا كان في الأوطان مَنْقَصَةٌ فالمَندَلُ الرَّطبُ في أوطانِه حطَبُ

وفيها توفّي أبو القاسم عليُّ بن محمّد بن يحيى الشمشاطيُّ بدمشق، وكان عالماً بالهندسة والرياضيّات من علوم الفلاسفة، وإليه يُنسب الرباط الذي عند جامع دمشق. (٢٠/١٠)

سنة أربع وخمسين وأربعمائة

ذكر نكاح السلطان طغرلبك ابنة الخليفة

في هذه السنة عُقد للسلطان طغرلبك على ابنة الخليفة القائم بأمر الله، وكانت الخطبة تقدّمت سنة ثلاث وخمسين [وأربعمائة] مع أبي سعد قاضي الرَّيّ، فانزعج الخليفة من ذلك، وأرسل في الجواب أبا محمّد التميميّ، وأمره أن يستعفي، فإن أعفي، وإلاّ تمّم الأمر على أن يحمل السلطان ثلاثمائة ألف دينار، ويسلّم واسطاً وأعمالها.

فلمّا وصل إلى السلطان ذَكَر لعميد الملك الوزير ما ورد فيه من الاستعفاء، فقال: لا يحسن أن يُرَدّ السلطان، وقد سأل وتضرّع، ولا يجوز مقابلته أيضاً بطلب الأموال والبلاد، فهو يفعل أضعاف ما طُلب منه.

فقال التميميُّ: الأمر لك، ومهما فعلتَهُ فهو الصواب؛ فبنى الوزير الأمر على الإجابة، وطالع به السلطان، فسُرّ به، وجمع الناس وعرّفهم أنّ همّته سمتْ به إلى الاتصال بهذه الجهة النبويّة، وبلغ من ذلك ما لم يبلغه سواه من الملوك. وتقدّم إلى عميد الملك الوزير أن يسير ومعه أرسلان خاتون، زوجة (٢١/١٠) الخليفة، وأن يصحبها مائة ألف دينار برسم الحمل، وما شاكلها من الجواهر وغيرها، ووجّه معه فرامرز بن كاكوَيْه، وغيره من وجوه الأمراء وأعيان الرَّيّ.

فلمّا وصل إلى الإمام القائم بأمر الله، وأوصل خاتون زوجة

الخليفة إلى دارها، وأنهى حضوره وحضور من معه، ذكر حال الوصلة، فامتنع الخليفة من الإجابة إليها وقال: إن أُعفينا، وإلاّ خرجنا من بغداد.

فقال عميد الملك : كان الواجب الامتناع من غير اقتراح، وعند الإجابة إلى ما طلب، فالامتناع سعيٌ على دمي، وأخرج خيامه إلى النَّهروان، فاستوقفه قاضي القضاة، والشيخ أبو منصور بن يوسف، وأنهيا إلى الخليفة عاقبة انصرافه على هذا الوجه، وصنع له ابن دارست وزير الخليفة دعوة، فحضر عنده، فرأى على مسجد مكتوباً: معاوية خال عليّ؛ فأمر بحكّه.

وكتب من الديوان إلى خمارتكين الطغرائيّ كتاباً يتضمّن الشكوى من عميد الملك، فورد الجواب عليه بالرفق، وكتب الخليفة إلى عميد الملك : نحن نردّ الأمر إلى رأيك: ونعوّل على أمانتك ودينك.

فحضر يوماً عند الخليفة، ومعه جماعة من الأمراء، والحجّاب، والقضاة والشهود، فأخذ المجلس لنفسه، ولم يتكلّم سواه، وقال للخليفة: أسأل مولانا أمير المؤمنين التطوّل بذكر ما شرّف به العبد المخلص شاهنشاه، ركن الدين، فيما رغب فيه ليعرفه الجماعة.

فغالطه، وقال: قد سُطّر في المعنى ما فيه كفاية. فانصرف عميد الملك مَغيظاً، ورحل في السادس والعشرين من جمادى الآخرة، وأخذ المال (٢٢/١٠) معه إلى همَذان، وعرّف السلطان أنّ السبب في اتّفاق الحال من خمارتكين الطغرائيّ، فتغيّر السلطان عليه، فهرب في ستّة غلمان.

وكتب السلطان إلى قاضي القضاة والشيخ أبي منصور بن يوسف يعتب ويقول: هذا جزاء من الخليفة الذي قتلتُ أخي في خدمته، وأنفقتُ أموالي في نصرته، وأهلكتُ خواصّي في محبّته. وأطال العتاب، وعاد الجواب إليه بالاعتذار.

وأمّا الطغرائيّ فإنّه أُدرك ببَرُوجرْدَ فقال أولاد إبراهيم ينّال للسلطان: إنّ هذا قتل أبانا، ونسأل أن نُمكّن من قتله؛ وأعانهم عميد الملك، فأذن لهم في قتله، فساروا إلى طريقه وقتلوه، وجعل مكانه ساوتكين، وبسط الكندريُّ لسانه. وطلب طغرلبك ابنة أخيه، زوجة الخليفة، لتعاد إليه، وجرى ما كاد يفضي إلى الفساد الكلّيّ.

فلمّا رأى الخليفة شدّة الأمر أذن في ذلك، وكتب الوكالة باسم عميد الملك، وسُيّرت الكتب مع أبي الغنائم بن المحلبان، وكان العقد في شعبان سنة أربع وخمسين [وأربعمائة] بظاهر تِبريز، وهذا ما لم يُجْرَ للخلفاء مثله، فإنّ بني بُوَيْه مع تحكّمهم ومخالفتهم لعقائد الخلفاء لم يطمعوا في مثل هذا ولا ساموهم فعله.

وحمل السلطان أموالاً كثيرة، وجواهر نفيسة للخليفة، ولولييّ العهد، وللجهة المطلوبة، ولوالدتها، وغيرهم، وجعل بَعْقُوبا وما كان بالعراق للخاتون زوجة السلطان التي توفّيت للسيدة ابنة الخليفة. (٢٣/١٠)

ذكر عزل ابن دارست ووزارة ابن جُهير

في هذه السنة عُزل أبو الفتح محمّد بن منصور بن دارست من وزارة الخليفة.

وسببه أنّه وصل معه إنسان يهوديٌ يقال له ابن علاّن، فضمن أعمال الوكلاء التي لخاصّ الخليفة بستّة آلاف كُرّ غلّة، ومائة ألف دينار، فصحّ منها ألفا كُرّ، وثلاثون ألف دينار، وانكسر الباقي، فظهر عجز ابن دارست ووهنه، فعُزل، وعاد إلى الأهواز، فتوفّي بها سنة سبع وستّين [وأربعمائة].

وكان فخر الدولة أبو نصر بن جُهير، وزير نصر الدولة بن مروان، قد أرسل يخطب الوزارة، وبذل فيها بذولاً كثيرة، فأجيب إليها، وأرسل كامل طراد الزينبيّ إلى ميّافارقين كأنّه رسولٌ، فلمّا عاد سار معه ابن جُهير كالمودّع له، فتمّم السير معه.

وخرج ابن مروان في أثره، فلم يدركه، فلمّا وصل إلى بغداد خرج الناس إلى استقباله، وخُلع عليه خِلَع الوزارة يوم عرَفة، ولُقّب فخر الدولة، واستقر في الوزارة، ومدحه وهنّأه ابن الفضل وغيره من الشعراء.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة عمّ الرخص جميع الأصقاع، فبيع بالبصرة ألف رطل من التمر بثمانية قراريط.

وفيها توفّي القاضي أبو عبد اللّه محمّد بن سلامة بن جعفر القضاعيُّ بمصر. (٢٤/١٠)

وفيها سار السلطان طغرلبك إلى قلعة الطّرْم من بلاد الديلم، وقرّر على مسافر ملكها مائة ألف دينار وألف ثوب.

وفيها مات أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس الملقّب معزّ الدولة بحلب، وقام أخوه عطية مقامه.

وتوفي الحسن بن عليّ بن محمّد أبو محمّد الجوهريُّ، ومولده سنة ثلاث وستّين وثلاثمائة، وكان من الأئمّة المكثرين من سماع الحديث وروايته، وهو آخر من حدّث عن أبي بكر القطيعي، والأبهريّ، وابن شاذان، وغيرهم. (٢٥/١٠)

سنة خمس وخمسين وأربعمائة

ذكر ورود السلطان بغداد ودخوله بابنة الخليفة

في هذه السنة، في المحرّم، توجّه السلطان طغرلبك من أرمينية إلى بغداد، وأراد الخليفة أن يستقبله، فاستعفاه من ذلك، وخرج الوزير ابن جُهير فاستقبله.

وكان مع السلطان من الأمراء: أبو عليّ ابن الملك أبي كاليجار، وسُرخاب بن بدر، وهزارسب، وأبو منصور فرامرز بن كاكويه، فنزل عسكره في الجانب الغربيّ، فزاد بهم أذى.

ووصل عميد الملك إلى الخليفة، وطالب بالجهة، وبات بالدار، فقيل له، خطّك موجود بالشرط، وإنّ المقصود بهذه الوصلة الشرف لا الاجتماع، وإنّه إن كانت مشاهدة فتكون في دار الخلافة؛ فقال السلطان: نفعل هذا، ولكن نفرد له من الدور والمساكن ما يكفيه، ومعه خواصّه، وحجّابه، ومماليكه، فإنّه لا يمكنه مفارقتهم، فحينئذ نُقلتُ إلى دار المملكة في منتصف صفر، فجلست على سرير ملبّس بالذهب، ودخل السلطان إليها، وقبّل الأرض وخدمها، ولم تكشف الخمار عن وجهها، ولا قامت هي له، وحمل لها شيئاً كثيراً من الجواهر وغيرها، وبقي كذلك يحضر كلّ يوم يخدم وينصرف.

وخلع على عميد الملك وعمل السّماط عدّة أيّام، وخلع على جميع الأمراء، وظهر عليه سرور عظيم، وعقد ضمان بغداد على أبي سعيد القايني بمائة وخمسين (٢٦/١٠) ألف دينار، فأعاد ما كان أطلقه رئيس العراقيّن من المواريث والمكوس، وقبض على الأعرابيّ سعد، ضامن البصرة، وعقد ضمان واسط على أبي جعفر ابن صقالب بمائتيْ ألف دينار.

ذكر وفاة السلطان طغرلبك

في هذه السنة سار السلطان من بغداد، في ربيع الأوّل، إلى بلد الجبل، فوصل إلى الرّيّ واستصحب معه أرسلان خاتون ابنة أخيه، زوجة الخليفة، لأنّها شكت اطّراح الخليفة لها، فأخذها معه، فمرض، وتوفّي يوم الجمعة ثامن شهر رمضان، وكان عمره سبعين سنة تقريباً، وكان عقيماً لم يلد ولداً.

وكان وزيره الكُندُريُّ على سبعين فرسخاً، فأتاه الخبر، فسار، ووصل إليه في يومَيْن وهو بعد لم يُدفن فدفنه. وجلس له الوزير فخر الدولة بن جُهير ببغداد للعزاء.

حكى عنه الكندريُّ أنّه قال: رأيتُ، وأنا بخراسان، في المنام كأنّني رُفعتُ إلى السماء، وأنا في ضبابٍ لا أبصر معه شيئاً، غير أنّي أشمّ رائحة طيّبة، وأنّني أُنادَى: إنّك قريبٌ من الباري، جلّت قدرته، فاسألْ حاجتك لتُقضى؛ فقلت في نفسي: أسأل طول العمر، فقيل: لك سبعون سنة؛ فقلت: يا ربّ ما يكفيني؛ فقيل: لك سبعون سنة؛ فقلت: يا ربّ لا يكفيني؛ فقيل: لك سبعون سنة. فلمّا مات حسب عميد الملك عمره، على التقريب، فكان سبعين سنة. وكانت مملكته، بحضرة الخلافة، سبع سنين وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً. (٢٧/١٠)

وأما الأحوال بالعراق، بعد وفاته، فإنّه كُتب من ديوان الخلافة إلى شرف الدولة مسلم بن قريش، صاحب الموصل، وإلى نور الدولة دُبَيس بن مَزْيد، وإلى هزارسب، وإلى بني ورّام، وإلى بدر بن المُهلهِل، بالاستدعاء إلى بغداد، وأُرسل لشرف الدولة تشريف، وعمل أبو سعد القايني، ضامن بغداد، سوراً على قصر عيسى، وجمع الغلاّت، فانحدر إبراهيم بن شرف الدولة إلى أوَانَا، وتسلّم أصحابه الأنبار، وانتشرت البادية في البلاد، وقطعوا الطرقات.

وقدم إلى بغداد دُبَيْس بن مزْيد، وخرج الوزير ابن جُهير لاستقباله، وقدم أيضاً ورّام.

وتوفي ببغداد أبو الفتح بن ورّام، مقدّم الأكراد الجاوانيّة، فحُمل إلى جَرْجَرَايا، وفارق شرف الدولة مسلم بغداد، ونهب النواحي، فسار نور الدولة، والأكراد، وبنو خفاجة إلى قتاله.

ثم أرسل إليه من ديوان الخلافة رسول معه خلعة له، وكوتب بالرضاء عنه، وانحدر إليه نور الدولة دُبَيْس، فعمل له شرف الدولة سِماطاً كثيراً، وكان في الجماعة الأشرف أبو الحسين بن فخر الملك أبي غالب بن خلف، كان قصد شرف الدولة مستجدياً، فمضغ لقمة، فمات من ساعته.

وحكى عنه بعض من صحبه أنّه سمعه ذلك اليوم يقول: اللهمّ اقبضني، فقد ضجرتُ من الإضافة! فلمّا توفّي ورُفع من السماط خاف شرف الدولة أن يظنّ مَنْ حضر أنّه تناول طعاماً مسموماً قصد به غيره، فقال: يا معشر العرب لا بَرح منكم أحد؛ ونهض وجلس مكان ابن فخر الملك المتوفّى، وجعل يأكل من الطعام الذي بين يدَيْه، فاستحسن الجماعة فعله، وعادوا عنه وخلع على دُبَيْس وولده منصور وعاد إلى حلّته.

ولما رأى الناس ببغداد انتشار الأعراب في البلاد ونهبها، حملوا السلاح لقتالهم، وكان ذلك سبباً لكثرة العيّارين وانتشار المفسدين. (٢٨/١٠)

ذكر شيء من سيرته

كان عاقلاً حليماً من أشدّ الناس احتمالاً، وأكثرهم كِتماناً لسيرّه، ظفر بملطّفات كتبها بعض خواصّه إلى الملك أبي كاليجار، فلم يطلعه على ذلك، ولا تغيّر عليه، حتى أظهره بعد مدّة طويلة

لغيره.

وحكى عنه أقضى القضاة الماورديُّ قال: لمّا أرسلني القائم بأمر اللّه إليه سنة ثلاث وثلاثين [وأربعمائة] كتبتُ كتاباً إلى بغداد أذكر فيه سيرته وخراب بلاده، وأطعن عليه بكلّ وجه، فوقع الكتاب من غلامي، فحُمل إليه، فوقف عليه وكتمه، ولم يحدّثني فيه بشيء، ولا تغيّرَ عمّا كان عليه من إكرامي.

وكان، رحمه اللّه، يحافظ على الصلوات، ويصوم الاثنَيْن، والخميس، وكان لبسه الثياب البياض، وكان ظلوماً، غشوماً، قاسياً، وكان عسكره يغصبون الناس أموالهم، وأيديهم مطلقة في ذلك نهاراً وليلاً.

وكان كريماً، فمن كرمه أنّ أخاه إبراهيم ينال أسر من الروم، لمّا غزاهم بعض ملوكهم فبذل في نفسه أربعمائة ألف دينار، فلم يقبل إبراهيم منه وحمله إلى طغرلبك، فأرسل ملك الروم إلى نصر الدولة بن مروان حتّى خاطب طغرلبك في فكاكه، فلمّا سمع طغرلبك رسالته أرسل الروميَّ إلى ابن مروان بغير فداء، وسيّر معه رجلاً علويّاً، فأنفذ ملك الروم إلى طغرلبك ما لم يُحمل في الزمان المتقدّم، وهو ألف ثوب ديباج، وخمسمائة ثوب أصناف، وخمسمائة رأس من الكراع إلى غير ذلك، وأنفذ مائتَيْ ألف دينار، ومائة لبنة فضّة، وثلاثمائة شهري، وثلاثمائة حمار مصريّة، وألف عنز بيض الشعور، سود العيون والقرون، وأنفذ إلى ابن مروان عشرة أمناء مسكاً، وعمر ملك الروم الجامع الذي بناه مسلمة بن عبد الملك بالقُسطنطينيّة، وعمر منارته، وعلّق فيه القناديل، وجعل في محرابه قوساً ونشابة، وأشاع المهادنة. (٢٩/١٠)

ذكر ملك السلطان ألب أرسلان

لمّا مات السلطان طغرلبك أجلس عميد الملك الكُنْدريُّ في السلطنة سليمان ابن داود جغري بك، أخي السلطان طغرلبك، وكان طغرلبك قد عهد إليه بالملك، وكانت والدة سليمان عند طغرلبك، فلمّا خُطب له بالسلطنة اختلف الأمراء، فمضى باغي سيان وأردم إلى قزوين، وخطبا لعضد الدولة ألْب أرسلان محمّد بن داود جغري بك، وهو حينئذ صاحب خراسان، ومعه نظام الملك وزيره، والناس مائلون إليه، فلمّا رأى عميد الملك الكُنْدُريُّ انعكاس الحال عليه أمر بالخطبة بالرّيّ للسلطان ألْب أرسلان، وبعده لأخيه سليمان.

ذكر خروج حمّو عن طاعة تميم بن المعزّ بإفريقية

في هذه السنة خالف حمّو بن مليك، صاحب مدينة سَفَاقس بإفريقية، على الأمير تميم بن المعزّ بن باديس، فجمع أصحابه، واستعان بالعرب، وسار إلى المهديّة، فسمع تميم الخبر، فسار إليه بعساكر ومعه أيضاً طائفة من العرب من زغبة، ووصل حمّو إلى سَلَقْطة، والتقى الفريقان بها، وكانت بينهما حرب شديدة فانهزم حمّو ومن معه، وأخذتهم السيوف، فقُتل أكثر حماته وأصحابه، ونجا بنفسه، وتفرّقت رجاله، وعاد تميم مظفّراً منصوراً. (٣٠/١٠)

ثم قصد، بعد هذه الحادثة، مدينة سُوسَة، وكان أهلها قد خالفوا عليه، فملكها، وعفا عنهم وحقن دماءهم.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في المحرّم، قُبض بمصر على الوزير أبي الفرج بن المغربيّ.

وفيها دخل الصليحيُّ، صاحب اليمن، إلى مكّة مالكاً لها، فأحسن السيرة فيها، وجلب إليها الأقوات، ورفع جورَ من تقدّم، وظهرت منه أفعال جميلة.

وفيها، في ربيع الآخر، انقضّ كوكب عظيم، وكان له ضوء كثير.

وفيها، في شعبان، كان بالشام زلزلة عظيمة خرب منها كثير من البلاد، وانهدم سور طرابلس.

وفيها ملك أمير الجيوش بدر دمشق للمستنصر، صاحب مصر، فوصل إليها في الثالث والعشرين من ربيع الآخر، وأقام بها، واختلف هو والجند، فثاروا به، ووافقهم العامّة، فضعف عنهم، ففارقها في رجب سنة ستّ وخمسين [وأربعمائة].

وفيها توفّي سعيد بن نصر الدولة بن مروان، صاحب آمِد، من ديار بكر، وزُهير بن الحسين بن عليّ أبو نصر الجذاميُّ، الفقيه الشافعيُّ، تفقّه على أبي حامد الأسفرايينيّ، وسمع الحديث الكثير ورواه، وكان موته بسَرْخَس. (٣١/١٠)

سنة سِت وخمسين وأربعمائة

ذكر القبض على عميد الملك وقتله

في هذه السنة قبض السلطان ألْب أرسلان على الوزير عميد الملك أبي نصر منصور بن محمّد الكندريّ وزير طغرلبك.

وسبب ذلك أن عميد الملك قصد خدمة نظام الملك، وزير ألب أرسلان، وقدّم بين يدَيْه خمسمائة دينار، واعتذر، وانصرف من عنده، فسار أكثر الناس معه، فخوّف السلطان من غائلة ذلك، فقبض عليه وأنفذه إلى مرو الرُّوذ، وأتت عليه سنة في الاعتقال، ثم نفّذ إليه غلامين فدخلا عليه وهو محموم، فقالا له: تُبْ ممّا أنت عليه؛ ففعل، ودخل فودّع أهله، وخرج إلى مسجد هناك فصلّى ركعتَيْن، وأراد الغلامان خنقه، فقال: لستُ بلصّ! وخرّق خرقة من طرف كمّه وعصب عينَيْه، فضربوه بالسيف، وكان قتله في ذي

الحجّة، ولُفّ في قميص دبيقيّ من ملابس الخليفة، وخرقة كانت البردة التي عند الخلفاء فيها، وحُملت جثّته إلى كُنْدُر، فدُفن عند أبيه، وكان عمره يوم قُتل نيّفاً وأربعين سنة.

وكان سبب اتّصاله بالسلطان طغرلبك أن السلطان لمّا ورد نَيسابور طلب رجلاً يكتب له، ويكون فصيحاً بالعربيّة، فدلّ عليه الموفّق، والد أبي (٣٢/١٠) سهل، وأعطته السعادة، وكان فصيحاً، فاضلاً، وانتشر من شعره ما قاله في غلام تركيّ صغير السنّ كان واقفاً على رأسه يقطع بالسكّين قصبةً، فقال عميد الملك فيه:

أنا مشغولٌ بحبّه، ... وهو مشغولٌ بلُعبِه
لو أرادَ اللّه خيراً، ... وصَلاحاً لمُحبّه
نُقِلَتْ رِقّةُ خَدّيـ ... ـهِ إلى قَسوةِ قَلْبِه
صانَه اللّه فما أكـ ... ـثَرَ إعجابي بعُجْبِه

ومن شعره:

إن كان بالناس ضيقٌ عن مُناقشتي، ... فالموتُ قد وسّع الدُّنيا على الناسِ
مضيتُ، والشامتُ المغبونُ يَتبعُني، ... كلٌّ لكاسِ المَنايا شاربٌ حاسِي

وقال أبو الحسن الباخرزيُّ يخاطب ألب أرسلان عند قتل الكُنْدُريّ:

وعَمُّك أدناه، وأعلَى مَحلّه، ... وبَوّأه من مُلكِه كَنَفاً رحْبا
قضَى كلُّ مولى منكُما حَقَّ عبدِهِ ... فخولَهُ الدُّنيا، وخولتَهُ العُقْبَى

وكان عميد الملك خصيّاً، قد خصاه طغرلبك لأنّه أرسله يخطب عليه امرأةً ليتزوّجها، فتزوّجها هو، وعصى عليه، فظفر به وخصاه، وأقرّه على خدمته.

وقيل بل أعداؤه أشاعوا عنه أنّه تزوّجها، فخصَى نفسه ليخلص من سياسة (٣٣/١٠) السلطنة، فقال فيه عليُّ بن الحسن الباخرزيُّ:

قالُوا: مَحا السلطانُ عنه بعِزّةٍ ... سِمَةَ الفحولِ، وكان قَرماً صائلاً
قلتُ: اسكتوا، فالآن زاد فحولةً ... لمّا اغتدى عن أُنثَيَيه عاطلاً
فالفحلُ يأنَفُ أن يسمّى بعضُهُ ... أُنثَى، لذلك جذّه مُستأصِلاً

يعني بالأنثى واحدة الأنثيين.

وكانت شديد التعصّب على الشافعيّة، كثير الوقيعة في الشافعيّ، رضي اللّه عنه، بلغ من تعصّبه أنه خاطب السلطان في لعن الرافضة على منابر خُراسان، فأذن في ذلك، فأمر بلعنهم، وأضاف إليهم الأشعريّة، فأنف من ذلك أئمّة خراسان، منهم: الإمام أبو القاسم القشيريُّ، والإمام أبو المعالي الجوينيُّ، وغيرهما، ففارقوا خراسان، وأقام إمام الحرمَيْن بمكّة أربع سنين إلى أن انقضت دولته، يدرّس، ويفتي، فلهذا لُقّب إمام الحرمَيْن، فلمّا جاءت الدولة النظاميّة أحضر من انتزح منهم وأكرمهم، وأحسن إليهم، وقيل إنّه تاب من الوقيعة في الشافعيّ، فإن صحّ فقد أفلح، وإلاّ فعلى نفسها براقش تجني.

ومن العجب أنّ ذكَره دُفن بخوارزم لمّا خُصي، ودمه مسفوح بمَرو، وجسده مدفون بكُنْدُر، ورأسه ما عدا قحفه مدفون بنَيسابور، ونُقل قحفه إلى كرْمان لأنّ نظام الملك كان هناك، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

ولمّا قُرّب للقتل قال للقاصد إليه: قُل لنظام الملك: بئس ما عوّدت الأتراك (٣٤/١٠) قتل الوزراء، وأصحاب الديوان، ومن حفر قَلِيباً وقع فيه، ولم يخلّف عميد الملك غيرَ بنت.

ذكر ملك ألب أرسلان ختّلان وهَراة وصَغَانيان

لمّا توفّي طغرلبك وملك ألب أرسلان عصى عليه أمير ختّلان بقلعتِه ومنع الخراج، فقصده السلطان، فرأى الحصن منيعاً على شاهق، فأقام عليه وقاتله، فلم يصل منه إلى مُراده.

ففي بعض الأيّام باشر ألب أرسلان القتال بنفسه، وترجّل، وصعد في الجبل، فتبعه الخلق، وتقدّموا عليه في الموقف، وألحّوا في الزحف والقتال، وكان صاحب القلعة على شرفةٍ من سورها يحرّض الناس على القتال، فأتته نُشّابة من العسكر فقتلته، وتسلّم ألب أرسلان القلعة وصارت في جملة ممالكه.

وكان عمّه فخر الملك بَيْغو بن ميكائيل في هَراة، فعصى أيضاً عليه، وطمع في الملك لنفسه، فسار إليه ألب أرسلان في العساكر العظيمة، فحصره وضيّق عليه، وأدام القتال ليلاً ونهاراً، فتسلّم المدينة، وخرج عمّه إليه، فأبقى عليه وأكرمه وأحسن صحبته.

وسار من هناك إلى صَغَانيان، وأميرها اسمه موسى، وكان قد عصى عليه، فلمّا قاربه ألب أرسلان صعد موسى إلى قلعة على رأس جبل شاهق، ومعه من الرجال الكماة جماعة كثيرة، فوصل السلطان إليه، وباشر الحرب لوقته، فلم ينتصف النهار حتّى صعد العسكر الجبل، وملكوا القلعة قهراً، وأُخذ موسى أسيراً، فأمر بقتله، فبذل في نفسه أموالاً كثيرة، فقال السلطان: ليس هذا أوان تجارة؛ واستولى على تلك الولاية بأسرها، وعاد إلى مَرو، ثم منها إلى نَيسابور. (٣٥/١٠)

ذكر عود ابنة الخليفة إلى بغداد والخطبة للسلطان ألب أرسلان ببغداد

في هذه السنة أمر السلطان ألب أرسلان السيّدة ابنة الخليفة بالعود إلى بغداد وأعلمها أنّه لم يقبض على عميد الملك إلاّ لما اعتمده من نقلها من بغداد إلى الرّيّ بغير رضاء الخليفة، وأمر الأمير ايتكين السليمانيُّ بالمسير في خدمتها إلى بغداد، والمقام بها شحنةً، وأنفذ أبا سهل محمّد بن هبة اللّه، المعروف بابن الموفق، للمسير في الصحبة، وأمره بالمخاطبة في إقامة الخطبة له، فمات في الطريق مُجدراً.

وهذا أبو سهل من رؤساء أصحاب الشافعيّ بنَيسابور، وكان يحضر طعامه في رمضان، كلّ ليلة، أربع مائة مُتَفَقّه، ويصلهم ليلة العيد بكسوة ودنانير تعمّهم، فلمّا سمع بموته أرسل العميد أبا الفتح المظفّر بن الحسين فمات أيضاً في الطريق، فألزم السلطان رئيس العراقَيْن بالمسير، فوصلوا بغداد منتصف ربيع الآخر، وخرج عميد الدولة ابن الوزير فخر الدولة بن جُهير لتلقّيهم، واقترح السلطان أن يخاطَب بالولد المؤيّد، فأُجيب إلى ذلك، ولُقّب ضياء الدين عضد الدولة.

وجلس الخليفة جلوساً عامّاً سابع جمادى الأولى، وشافه الرسل بتقليد ألْب أرسلان للسلطنة، وسُلّمت الخِلَع بمشهد من الخلق، وأرسل إليه من الديوان لأخذ البَيعة النقيب طِراداً الزينبيّ، فوصلوا إليه وهو بنَقْجُوانَ من أذربيجان، فلبس الخِلَع، وبايع للخليفة. (٣٦/١٠)

ذكر الحرب بين ألب أرسلان وقُتلمش

سمع ألْب أرسلان أنّ شهاب الدولة قُتلمش، وهو من السّلجوقيّة أيضاً، وهو جدّ الملوك أصحاب قُونيَة، وقَيصريّة، وأقصَرا، ومَلَطْيَة، يومنا هذا، قد عصى عليه، وجمع جموعاً كثيرة، وقصد الرّيّ ليستولي عليها، فجهّز ألْب أرسلان جيشاً عظيماً، وسيّرهم على المفازة إلى الرّيّ، فسبقوا قُتلمش إليها.

وسار ألْب أرسلان من نَيسابور أوّل المحرّم من هذه السنة، فلمّا وصل إلى دَامَغَان أرسل إلى قُتلمش يُنكر عليه فعله، وينهاه عن ارتكاب هذه الحال، ويأمره بتركها، فإنّه يرعى له القرابة والرحم، فأجاب قُتلمش جواب مُغترّ بمن معه من الجموع، ونهب قُرى الرّيّ، وأجرى الماء على وادي الملح، وهي سبخة، فتعذّر سلوكها، فقال نظام الملك: قد جعلتُ لك من خُراسان جنداً ينصرونك ولا يخذلونك، ويرمون دونك بسهام لا تخطئ، وهم العلماء والزُهّاد، فقد جعلتُهم بالإحسان إليهم من أعظم أعوانك.

وقرب السلطان من قُتلمش، فلبس نظام الملك السلاح، وعبّأ الكتائب، واصطفّ العسكران.

وكان قُتلمش يعلم علم النجوم، فوقّف ونظر، فرأى أنّ طالعه في ذلك اليوم قد قارنه نحوس لا يرى معها ظفراً، فقصد المحاجزة وجعل السبخة بينه وبين ألب أرسلان ليمتنع من اللقاء، فسلك ألب أرسلان طريقاً في الماء، وخاض غمرته، وتبعه العسكر، فطلع منه سالماً هو وعسكره، فصاروا مع (٣٧/١٠) قُتلمش، واقتتلوا، فلم يثبت عسكر قُتلمش لعسكر السلطان، وانهزموا لساعتهم، ومضى منهزماً إلى قلعة كَردكوه، وهي من جملة حصونه ومعاقله، واستولى القتل والأسر على عسكره، فأراد السلطان قتل الأسرى، فشفع فيهم نظام الملك فعفا عنهم وأطلقهم.

ولمّا سكن الغبار، ونزل العسكر، وُجد قُتلمش ميّتاً ملقىً على الأرض لا يُدرى كيف كان موته، قيل: إنّه مات من الخوف، واللّه أعلم، فبكى السلطان لموته، وقعد لعزائه، وعظم عليه فقده، فسلاّه نظام الملك، ودخل ألْب أرسلان إلى مدينة الرّيّ آخر المحرّم من السنة.

ومن العجب أنّ قُتلمش هذا كان يعلم علم النجوم، قد أتقنَهُ، مع أنّه تركيّ، ويعلم غيره من علوم القوم، ثم إنّ أولاده من بعده لم يزالوا يطلبون هذه العلوم الأوّليّة، ويقرّبون أهلها، فنالهم بهذا غضاضة في دينهم، وسيرد من أخبارهم ما يُعلم منه ذلك وغيرُه من أحوالهم.

ذكر فتح ألب أرسلان مدينة آني وغيرها من بلاد النصرانيّة

ثم سار السلطان من الرّيّ أوّل ربيع الأوّل، وسار إلى أذربيجان، فوصل إلى مَرَنْدَ عازماً على قتال الروم وغزوهم، فلمّا كان بمَرَنْدَ أتاه أمير من أمراء التركمان، كان يُكثر غزو الروم، اسمه طغدكين، ومعه من عشيرته خلق كثير، قد ألفوا الجهاد، وعرفوا تلك البلاد، وحثّه على قصد بلادهم، وضمن له سلوك الطريق المستقيم إليها، فسار معه، فسلك بالعساكر في مضايق (٣٨/١٠) تلك الأرض ومخارمها، فوصل إلى نَقْجُوان، فأمر بعمل السفن لعبور نهر أرَسَ، فقيل له إن سكّان خُوَيّ، وسَلْمَاسَ، من أذربيجان، لم يقوموا بواجب الطاعة، وإنّهم قد امتنعوا ببلادهم، فسيّر إليهم عميد خراسان، ودعاهم إلى الطاعة، وتهدّدهم إن امتنعوا، فأطاعوا، وصاروا من جملة حزبه وجنده، واجتمع عليه هناك من الملوك والعساكر مالا يحصى.

فلمّا فرغ من جمع العساكر والسفن سار إلى بلاد الكُرج، وجعل مكانه في عسكره ولدَهُ ملكشاه، ونظام الملك وزيره، فسار ملكشاه ونظام الملك إلى قلعة فيها جمع كثير من الروم، فنزل أهلها منها، وتخطّفوا من العسكر، وقتلوا منهم فئةً كثيرة، فنزل نظام الملك وملكشاه، وقاتلوا من بالقلعة، وزحفوا إليهم، فقُتل أمير القلعة وملكها المسلمون، وساروا منها إلى قلعة سُرماري، وهي قلعة فيها المياه الجارية والبساتين، فقاتلوها وملكوها، وأنزلوا منها أهلها، وكان بالقرب منها قلعة أخرى، ففتحها ملكشاه، وأراد تخريبها، فنهاه نظام الملك عن ذلك، وقال: هي ثغر للمسلمين؛ وشحنها بالرجال والذخائر والأموال والسلاح، وسلّم هذه القلاع إلى أمير نَقْجُوان.

وسار ملكشاه ونظام الملك إلى مدينة مريم نشين، وفيها كثير من الرهبان والقسّيسين وملوك النصارى وعامّتهم يتقرّبون إلى أهل هذه البلدة، وهي مدينة حصينة، سورها من الأحجار الكبار الصلبة، المشدودة بالرصاص والحديد، وعندها نهر كبير، فأعدّ نظام الملك

لقتالها ما يحتاج إليه من السفن وغيرها، وقاتلها، وواصل قتالها ليلاً ونهاراً، وجعل العساكر عليها يقاتلون (٣٩/١٠) بالنّوبة، فضجرالكفّار، وأخذهم الإعياء والكلال، فوصل المسلمون إلى سورها، ونصبوا عليه السلاليم، وصعدوا إلى أعلاه، لأنّ المعاول كلّتْ عن نقبه لقوّة حجره.

فلمّا رأى أهلُها المسلمين على السور فتّ ذلك في أعضادهم، وسُقط في أيديهم، ودخل ملكشاه البلد، ونظام الملك، وأحرقوا البيعَ، وخرّبوها، وقتلوا كثيراً من أهلها، وأسلم كثير فنجوا من القتل.

واستدعى ألب أرسلان إليه ابنه ونظام الملك، وفرح بما يسّره اللّه من الفتح على يد ولده، وفتح ملكشاه في طريقه عدّة من القلاع والحصون، وأسر من النصارى مالا يُحصون كثرةً، وساروا إلى سُبيذ شَهر، فجرى بين أهلها وبين المسلمين حروب شديدة استشهد فيها كثير من المسلمين، ثم إنّ اللّه تعالى يسّر فتحها فملكها ألب أرسلان.

وسار منها إلى مدينة أعآل لآل، وهي حصينة، عالية الأسوار، شاهقة البنيان، وهي من جهة الشرق والغرب على جبل عال، وعلى الجبل عدّة من الحصون، ومن الجانبَيْن الآخرَيْن نهر كبير لا يُخاض، فلمّا رآها المسلمون علموا عجزهم عن فتحها والاستيلاء عليها، وكان ملكها من الكُرج، وهكذا ما تقدّم من البلاد التي ذكرنا فتحها، وعقد السلطان جسراً على النهر عريضاً، واشتدّ القتال، وعظم الخطب، فخرج من المدينة رجلان يستغيثان، ويطلبان الأمان، والتمسا من السلطان أن يرسل معهما طائفة من العسكر، فسيّر جمعاً صالحاً، فلمّا جازوا الفصيل أحاط بهم الكُرج من أهل المدينة وقاتلوهم فأكثروا القتل فيهم، ولم يتمكّن المسلمون من الهزيمة لضيق المسلك. (٤٠/١٠)

وخرج الكُرج من البلد وقصدوا العسكر، واشتدّ القتال، وكان السلطان ذلك الوقت، يصلّي، فأتاه الصّريخ، فلم يبرح حتّى فرغ من صلاته، وركب، وتقدّم إلى الكفّار، فقاتلهم، وكبّر المسلمون عليهم، فولّوا منهزمين، فدخلوا البلد والمسلمون معهم، ودخلها السلطان وملكها، واعتصم جماعة من أهلها في برج من أبراج المدينة، فقاتلهم المسلمون فأمر السلطان بإلقاء الحطب حول البرج وإحراقه، ففُعل ذلك، وأُحرق البرج ومن فيه، وعاد السلطان إلى خيامه، وغنم المسلمون من المدينة مالا يُحدّ ولا يُحصى.

ولمّا جنّ الليل عصفت ريح شديدة، وكان قد بقي من تلك النار التي أُحرق بها البرج بقية كثيرة، فأطارتها الريح، فاحترقت المدينة بأسرها، وذلك في رجب سنة ستّ وخمسين [وأربعمائة]، وملك السلطان قلعة حصينة كانت إلى جانب تلك المدينة، وأخذها، وسار منها إلى ناحية قرس ومدينة آني وبالقرب منها ناحيتان يقال لهما سيَل ورده، ونُورة، فخرج أهلهما مذعِنين بالإسلام، وخرّبوا البيعَ، وبنوا المساجد.

وسار منها إلى مدينة آني فوصل إليها فرآها مدينة حصينة، شديدة الامتناع لا تُرام، ثلاثة أرباعها على نهر أرس، والربع الآخر نهر عميق شديد الجريَة، لو طرحتْ فيه الحجارة الكبار لدحاها وحملها، والطريق إليها على خندق عليه سور من الحجارة الصُّمّ، وهي بلدة كبيرة، عامرة، كثيرة الأهل، فيها ما يزيد على خمسمائة بيعة، فحصرها وضيّق عليها، إلاّ أنّ المسلمين قد أيسوا من فتحها لما رأوا من حصانتها، فعمل السلطان برجاً من خشب، وشحنه بالمقاتلة، ونصب عليه المنجنيق، ورُماة النشّاب، فكشفوا الروم عن السور (٤١/١٠) وتقدّم المسلمون إليه لينقبوه، فأتاهم من لطف اللّه مالم يكن في حسابهم، فانهدم قطعة كبيرة من السور بغير سبب، فدخلوا المدينة وقتلوا من أهلها مالا يُحصى بحيث أنّ كثيراً من المسلمين عجزوا عن دخول البلد من كثرة القتلى، وأسروا نحواً ممّا قتلوا.

وسارت البُشرى بهذه الفتوح في البلاد، فسُرّ المسلمون، وقُرئ كتاب الفتح ببغداد في دار الخلافة، فبرز خطّ الخليفة بالثناء على ألب أرسلان والدعاء له.

ورتّب [السُّلطان] فيها أميراً في عسكر جرّار، وعاد عنها، وقد راسله ملك الكُرج في الهدنة، فصالحه على أداء الجزية كلّ سنة، فقبل ذلك.

ولمّا رحل السلطان عائداً قصد أصبهان، ثم سار منها إلى كَرمان، فاستقبله أخوه قاورت بك بن جُغري بك داود، ثم سار منها إلى مَرْو، فزوّج ابنَه ملكشاه بابنة خاقان، ملك ما وراء النهر، وزُفّت إليه في هذا الوقت، وزوّج ابنَهُ أرسلانشاه بابنة صاحب غزنة، واتحد البيتان: البيت السلجوقيُّ، والبيت المحمودي، واتّفقت الكلمة.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، ظهر بالعراق وخُوزستان وكثير من البلاد جماعة من الأكراد، خرجوا يتصيّدون، فرأوا في البرّيّة خيماً سوداً، (٤٢/١٠) وسمعوا منها لطماً شديداً، وعويلاً كثيراً، وقائلاً يقول: قد مات سيّدوك ملك الجنّ، وأيّ بلد لم يلطم أهله عليه ويعملوا له العزاء قُلع أصله، وأُهلك أهله، فخرج كثير من النساء في البلاد إلى المقابر يلطمن، وينُحن، وينشرن شعورهنّ، وخرج رجال من سِفلة الناس يفعلون ذلك، وكان ذلك ضحكة عظيمة.

ولقد جرى في أيّامنا نحن في الموصل، وما والاها من البلاد

إلى العراق، وغيرها، نحو هذا، وذلك أنّ الناس سنة ستّمائة أصابهم وجع كثير في حلوقهم، ومات منه كثير من الناس، فظهر أنّ امرأة من الجنّ يقال لها أمّ عُنقود، مات ابنها عُنقود، وكلّ من لا يعمل له مأتماً أصابه هذا المرض، فكثر فعل ذلك، وكانوا يقولون: يا أمّ عُنقود اعذرينا، قد مات عنقود ما درينا؛ وكان النساء يلطمن، وكذلك الأوباش.

وفيها وليَ أبو الغنائم المعمّر بن محمّد بن عبيد اللّه العلويُّ نقابةَ العلويّين ببغداد، وإمارة الموسم، ولُقّب بالطاهر ذي المناقب، وكان المرتضى أبو الفتح أُسامة قد استعفى من النقابة، وصاهر بني خفاجة، وانتقل معهم إلى البرّيّة، وتوفّي أُسامة بمشهد أمير المؤمنين عليّ، عليه السلام، في رجب سنة اثنتين وسبعين [وأربعمائة].

وفيها في جمادي الآخرة توفّي أبو القاسم عبد الواحد بن عليّ بن برهان الأسديُّ النحويُّ المتكلّم، وكان له اختيار في الفقه، وكان عالماً بالنسب، (٤٣/١٠) ويمشي في الأسواق مكشوف الرأس، ولم يقبل من أحد شيئاً، وكان موته في جمادى الآخرة، وقد جاوز ثمانين سنة، وكان يميل إلى مذهب مُرْجِئة المعتزلة، ويعتقد أنّ الكفّار لا يخلّدون في النار.

وفيها انقضّ كوكب عظيم، وكثر نوره فصار أكثر من نور القمر، وسمع له دَويّ عظيم، ثمّ غاب. (٤٤/١٠)

سنة سبع وخمسين وأربعمائة

ذكر الحرب بين بني حمّاد والعرب

في هذه السنة كانت حرب بين الناصر بن علناس بن حمّاد ومن معه من رجال المغاربة من صِنهاجة ومن زناتة ومن العرب: عديّ والأثبج، وبين رياح، وزُغْبة، وسُلَيم، ومع هؤلاء المعزُّ بن زيري الزناتيُّ، على مدينة سَبَتة.

وكان سببها أنّ حمّاد بن بُلكّين جدّ الناصر كان بينه وبين باديس بن المنصور من الخلف، وموت باديس محاصراً قلعة حمّاد، ما هو مذكور، ولولا تلك القلعة لأُخذ سريعاً، وإنّما امتنع هو وأولاده بها بعده، وهي من أمنع الحصون، وكذلك ما استمرّ بين حمّاد والمعزّ بن باديس، ودخول حمّاد في طاعته ما تقدّم ذكره، وكذلك أيضاً ما كان بين القائد بن حمّاد وبين المعزّ، وكان القائد يُضمر الغدر وخلع طاعة المعزّ، والعجز يمنعه من ذلك، فلمّا رأى القائد قوّة العرب وما نال المعزّ منهم، خلع الطاعة، واستبدّ بالبلاد، وبعده ولده محسن، وبعده ابن عمّه بُلكّين بن محمّد بن حمّاد، وبعده ابن عمّه الناصر بن علناس بن محمّد بن حمّاد، وكلّ منهم متحصّن بالقلعة، وقد جعلوها دار ملكهم.

فلمّا رحل المعزُّ من القَيروان وصَبْرَة إلى المَهديّة تمكّنت العرب، (٤٥/١٠) ونهبت الناس، وخرّبت البلاد، فانتقل كثير من أهلها إلى بلاد بني حمّاد لكونها جبالاً وعرة يمكن الامتناع بها من العرب، فعمرت بلادهم، وكثرت أموالهم، وفي نفوسهم الضغائن والحقود من باديس، ومَن بعده من أولادهم، يَرِثه صغير عن كبير.

ووَليَ تميم بن المعزّ بعد أبيه، فاستبدّ كلّ من هو بِبَلَد وقلعة بمكانه وتميم صابر يداري ويتجلّد.

واتّصل بتميم أنّ الناصر بن علناس يقع فيه في مجلسه ويذمّه، وأنّه عزم على المسير إليه ليحاصره بالمهديّة، وأنّه قد حالف بعض صنهاجة، وزناتة، وبني هلال ليعينوه على حصار المهديّة. فلمّا صحّ ذلك عنده أرسل إلى أمراء بني رياح، فأحضرهم إليه وقال: أنتم تعلمون أنّ المهديّة حصن منيع، أكثره في البحر، لا يقاتل منه في البرّ غير أربعة أبراج يحميها أربعون رجلاً، وإنّما جمع الناصر هذه العساكر إليكم، فقالوا له: الذي تقوله حقّ، ونحبّ منك المعونة؛ فأعطاهم المال، والسلاح من الرماح والسيوف والدروع والدرق، فجمعوا قومهم، وتحالفوا، واتّفقوا على لقاء الناصر.

وأرسلوا إلى من مع الناصر من بني هلال يقبّحون عندهم مساعدتهم للناصر، ويخوّفونهم منه إن قوي، وأنّه يهلكهم بمن معه من زَناتة وصنهاجة، وأنّهم إنّما يستمرّ لهم المقام، والاستيلاء على البلاد، إذا تمّ الخلف وضعف السلطان، فأجابهم بنو هلال إلى الموافقة، وقالوا: اجعلوا أوّل حملة تحملونها علينا، فنحن ننهزم بالناس، ونعود عليهم، ويكون لنا ثُلث الغنيمة، فأجابوهم إلى ذلك، واستقرّ الأمر. (٤٦/١٠)

وأرسل المعزُّ بن زيري الزناتيُّ إلى من مع الناصر من زناتة بنحو ذلك، فوعدوه أيضاً أن ينهزموا، فحينئذ رحلت رياح وزناتة جميعها، وسار إليهم الناصر بصِنهاجة، وزناتة وبني هلال، فالتقت العساكر بمدينة سَبَتة، فحملت رياح على بني هلال، وحمل المعزُّ على زناتة، فانهزمت الطائفتان، وتبعهم عساكر الناصر منهزمين، ووقع فيهم القتل، فقُتل فيمن قُتل القاسم بن علناس، أخو الناصر، وكان مبلغ من قُتل من صِنهاجة وزَناتة أربعة وعشرين ألفاً، وسلم الناصر في نفر يسير، وغنمت العرب جميع ما كان في العسكر من مال وسلاح ودوابّ وغير ذلك، فاقتسموها على ما استقرّ بينهم، وبهذه الوقعة تمّ للعرب ملك البلاد، فإنّهم قدموها في ضيق وقلّة دوابّ فاستغنوا، وكثرت دوابّهم وسلاحهم، وقلّ المحامي عن البلاد، وأرسلوا الأولوية والطبول وخيم الناصر بدوابّها إلى تميم، فردّها وقال: يقبح بي أن آخذ سلب ابن عمّي! فأرضى العرب بذلك.

ذكر بناء مدينة بجاية

لمّا كانت هذه الوقعة بين بني حمّاد والعرب، وقويت العرب، اهتمّ تميم بن المعزّ لذلك، وأصابه حزن شديد، فبلغ ذلك الناصر، وكان له وزير اسمه أبو بكر بن أبي الفتوح، وكان رجلاً جيّداً يحبّ الاتفاق بينهم، ويهوى دولة تميم، فقال للناصر: ألم أشرْ عليك أن لا تقصد ابن عمّك، وأن تتّفقا (٤٧/١٠) على العرب، فإنّكما لو اتّفقتما لأخرجتما العربَ.

فقال الناصر: لقد صدقتَ، ولكن لا مردَّ لما قُدّر، فأصلح ذات بيننا، فأرسل الوزير رسولاً من عنده إلى تميم يعتذر، ويرغب في الإصلاح، فقبل تميم قوله، وأراد أن يرسل رسولاً إلى الناصر، فاستشار أصحابه، فاجتمع رأيهم على محمّد بن البعبع، وقالوا له: هذا رجل غريب، وقد أحسنتَ إليه، وحصل له منك الأموال والأملاك، فأحضَره، وأعطاه مالاً ودوابّ وعبيداً وأرسله، فسار مع الرسول حتّى وصل إلى بجَايةَ، وكانت حينئذ منزلاً فيه رعيّة من البربر، فنظر إليها محمّد بن البعبع، وقال في نفسه: إنّ هذا المكان يصلح أن يكون به مَرسى ومدينة؛ وسار حتّى وصل إلى الناصر فلمّا أوصل الكتاب وأدّى الرسالة قال للناصر: معي وصيّة إليك، وأُحبّ أن تخلّي المجلس؛ فقال الناصر: أنا لا أخفي عن وزيري شيئاً، فقال: بهذا أمرني الأمير تميم؛ فقام الوزير أبو بكر وانصرف، فلمّا خرج قال الرسول: يا مولاي إنّ الوزير مخامرٌ عليك، هواه مع الأمير تميم، لا يُخفي عنه من أمورك شيئاً، وتميم مشغول مع عبيده قد استبدّ بهم، واطّرح صنهاجة وغير هؤلاء، ولو وصلتَ بعسكرك ما بتّ إلاّ فيها لبُغض الجند والرعيّة لتميم، وأنا أشير عليك بما تملك به المهديّة وغيرها، وذكر له عمارة بجَايةَ، وأشار عليه أن يتّخذها دار ملك، ويقرب من بلاد إفريقية، وقال له: أنا أنتقل إليك بأهلي، وأدبّر دولتك؛ فأجابه الناصر إلى ذلك، وارتاب بوزيره، وسار مع الرسول إلى بجاية، وترك الوزير بالقلعة.

فلمّا وصل الناصر والرسول إلى بجَاية أراه موضع الميناء والبلد والدار (٤٨/١٠) السلطانيّة، وغير ذلك، فأمر الناصر من ساعته بالبناء والعمل، وسُرّ بذلك، وشكره، وعاهده على وزارته إذا عاد إليه، ورجعا إلى القلعة، فقال الناصر لوزيره: إنّ هذا الرسول محبٌّ لنا، وقد أشار ببناء بجاية، ويريد الانتقال إلينا، فاكتب له جواب كتبه؛ ففعل.

وسار الرسول، وقد ارتاب به تميم، حيث تجدّد بناء بجاية عُقَيْب مسيره إليهم، وحضوره مع الناصر فيها، وكان الرسول قد طلب من الناصر أن يرسل معه بعض ثقاته ليشاهد الأخبار ويعود بها، فأرسل معه رسولاً يثق به، فكتب معه: إنّني لمّا اجتمعتُ بتميم لم يسألني عن شيء قبل سؤاله عن بناء بجاية، وقد عظم أمرها عليه، واتّهمني، فانظر إلى من تثق به من العرب ترسلهم إلى موضع كذا، فإني سائر مسرعاً، وقد أخذتُ عهود زَويلة وغيرها على طاعتك، وسيّر الكتاب، فلمّا قرأه الناصر سلّمه إلى الوزير، فاستحسن الوزير ذلك، وشكره وأثنى عليه، وقال: لقد نصح وبالغ في الخدمة، فلا تؤخّر عنه إنفاذ العرب ليحضر معهم.

ومضى الوزير إلى داره، وكتب نسخة الكتاب، وأرسل الكتاب الذي بخطّ الرسول إلى تميم، وكتاباً منه يذكر له الحال من أوّله إلى آخره، فلمّا وقف تميم على الكتاب عجب من ذلك، وبقي يتوقّع له سبباً يأخذه به، إلاّ أنّه جعل عليه من يحرسُه في الليل والنهار من حيث لا يشعر، فأتى بعض أولئك الحرس إلى تميم، وأخبره أنّ الرسول صنع طعاماً، وأحضر عنده الشريف الفهريّ وكان هذا الشريف من رجال تميم وخواصّه، فأحضره تميم، فقال: كنتُ واصلاً إليك؛ وحدّثه أنّ ابن البعبع الرسول دعاني، فلمّا حضرتُ عنده قال: أنا في ذمامك، أُحبّ أن تعرّفني مع مَن أخرج من المهديّة؛ فمنعتُه من ذلك وهو خائف، فأوقفه تميم على الكتاب الذي بخطّه، وأمره بإحضاره، فأحضره الشريف (٤٩/١٠) فلمّا وصل إلى باب السلطان لقيه رجل بكتاب العرب الذين سيّرهم الناصر، ومعهم كتاب الناصر إليه يأمره بالحضور عنده، فأخذ الكتاب وخرج الأمير تميم، فلمّا رآه ابن البعبع سقطت الكتب منه، فإذا عنوان أحدها: من الناصر بن علناس إلى فلان، فقال له تميم: من أين هذه الكتب؟ فسكت، فأخذها وقرأها، فقال الرسول ابن البعبع: العفو يا مولانا! فقال: لا عفا اللّه عنك! وأمر به فقُتل وغُرّقت جثّته.

ذكر ملك ألب أرسلان جَنْد وصيْران

في هذه السنة عبر ألب أرسلان جَيحُون، وسار إلى جَنْد وصيْران، وهما عند بخارى، وقبر جدّه سلجوق بجند، فلمّا عبر النهر استقبله ملك جَنْد وأطاعه، وأهدى له هدايا جليلة، فلم يغيّر ألب أرسلان عليه شيئاً، وأقرّه على ما بيده، وعاد عنه بعد أن أحسن إليه وأكرمه، ووصل إلي كُرْكَانْج خُوارزم، وسار منها إلى مَرْو.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ابتُدئ بعمارة المدرسة النظاميّة ببغداد.

وفيها انقضّ كوكب عظيم، وصار له شُعاع كثير أكثر من شُعاع القمر، وسُمع له صوت مُفزع.

وفيها توفّي محمّد بن أحمد أبو الحسين بن الآبنوسيّ، روى عن الدارقطنيّ وغيره. (٥٠/١٠)

سنة ثمان وخمسين وأربعمائة

ذكر عهد ألب أرسلان بالسلطنة لابنه ملكشاه

في هذه السنة سار ألْب أرسلان من مرو إلى رايكان، فنزل بظاهرها، ومعه جماعة أمراء دولته، فأخذ عليهم العهود والمواثيق لولده ملكشاه بأنّه السلطان بعده، وأركبه، ومشى بين يدَيْه يحمل الغاشية.

وخلع السلطان على الأمراء، وأمرهم بالخطبة له في جميع البلاد التي يحكم عليهم، ففعل ذلك، وأقطعَ البلاد، فأقطع مَازَنْدَرَانَ للأمير إينانج بَيْغو؛ وبَلْخ لأخيه سليمان بن داود جُغري بك؛ وخُوارزم لأخيه أرسلان أرغو؛ ومَرْو لابنه الآخر أرسلان شاه؛ وصَغَانيان وطَخَارستان لأخيه إلياس؛ وولاية بَغْشُور ونواحيها لمسعود بن أرتاش، وهو من أقارب السلطان؛ وولاية أسفرار لمودود بن أرتاش.

ذكر استيلاء تميم على مدينة تونس

في هذه السنة سيّر تميم، صاحب إفريقية، عسكراً كثيفاً إلى مدينة تُونُس وبها أحمد بن خُراسان قد أظهر عليه الخلاف.

وسبب ذلك أنّ المعزّ بن باديس، أبا تميم، لمّا فارق القَيروان والمنصوريّة (٥١/١٠)ورحل إلى المَهديّة، على ما ذكرناه، استخلف على القَيروان وعلى قَابس قائد بن ميمون الصنهاجيّ، وأقام بها ثلاث سنين، ثم غلبته هوارة عليها، فسلّمها إليهم وخرج إلى المهديّة، فلمّا وليَ الملك تميم بن المعزّ بعد أبيه ردّه إليها، وأقام عليها إلى الآن، ثم أظهر الخلاف على تميم والتجأ إلى طاعة الناصر بن علناس بن حمّاد، فسيّر إليه تميم الآن عسكراً كثيراً، فلمّا سمع بهم قائد بن ميمون علم أنّه لا طاقة له بهم، فترك القَيروان وسار إلى الناصر، فدخل عسكر تميم القَيروان، وخرّبوا دور القائد، وسار العسكر إلى قَابس، وبها ابن خُراسان، فحصروه بها سنةً وشهرَيْن، ثم أطاع ابن خُراسان تميماً وصالحه.

وأمّا قائد فإنّه أقام عند الناصر، ثم أرسل إلى أمراء العرب، فاشترى منهم إمارة القَيروان، فأجابوه إلى ذلك، فعاد إليها فبنى سورها وحصّنها.

ذكر ملك شرف الدولة الأنبار وهَيْت وغيرهما

في هذه السنة سار شرف الدولة مسلم بن قريش بن بدران، صاحب الموصل، إلى السلطان ألْب أرسلان، فأقطعه الأنبار، وهَيْت وحَرْبَى، والسِّنّ، والبوازيجَ، ووصل إلى بغداد، فخرج الوزير فخر الدولة بن جُهير في الموكب، فلقيه، ونزل شرف الدولة بالحريم الطاهريّ، وخلع عليه الخليفة.

ذكر عدّة حوادث

في العشر الأوّل من جُمادى الأولى ظهر كوكب كبير، له ذؤابةٌ طويلة، بناحية المشرق، عرضها نحو ثلاث أذرع، وهي ممتدّة إلى وسط السماء، (٥٢/١٠) وبقي إلى السابع والعشرين من الشهر وغاب، ثم ظهر أيضاً آخر الشهر المذكور عند غروب الشمس، كوكب قد استدار نوره عليه كالقمر، فارتاع الناس وانزعجوا، ولمّا أظلم الليل صار له ذوائب نحو الجنوب، وبقي عشرة أيام ثم اضمحلّ.

وفيها، في جمادى الآخرة، كانت بخُراسان والجبال زلزلةٌ عظيمة، بقيت تتردّد أيّاماً، تصدّعت منها الجبال، وأهلكت خلقاً كثيراً، وانخسف منها عدّة قُرى، وخرج الناس إلى الصحراء فأقاموا هناك.

وفيها، في جمادى الأولى وقع حريق بنهر مُعَلّى، فاحترق من باب الجريد إلى آخر السوق الجديد من الجانبَيْن.

وفيها وَلدَت صبيّةٌ بباب الأزج ولداً برأسَيْن، ورقبتَيْن، ووجهَيْن، وأربع أيدٍ على بدن واحد.

وفي جمادى الآخرة توفّي الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقيُّ، ومولده سنة سبع وثمانين وثلاثمائة، وكان إماماً في الحديث والفقه على مذهب الشافعيّ، وله فيه مصنّفات أحدها السُّنن الكبير، عشرة مجلّدات، وغيره من التصانيف الحسنة، وكان عفيفاً، زاهداً، ومات بنَيسابور.

وفي شهر رمضان منها توفّي أبو يعلَى محمّد بن الحسين بن الفرّاء الحنبليُّ، ومولده سنة ثمانين وثلاثمائة، وعنه انتشر مذهب أحمد، رضي اللّه عنه، وكان إليه قضاء الحريم ببغداد بدار الخلافة، وهو مصنّف كتاب الصفات أتَى فيه بكلّ عجيبة، وترتيب أبوابه يدلّ على التجسيم المحض، تعالى اللّه عن ذلك؛ وكان ابن تميميّ الحنبليُّ يقول: لقد خَرئ أبو يعلى الفرّاء على الحنابلة خِرية لا يغسلها الماء. (٥٣/١٠)

سنة تسع وخمسين وأربعمائة

ذكر عصيان ملك كَرْمان على ألب أرسلان وعوده إلى طاعته

في هذه السنة عصى ملك كَرمان، وهو قرا أرسلان، على السلطان ألْب أرسلان.

وسبب ذلك أنّه كان له وزير جاهل سوّلت له نفسه الاستبداد بالبلاد عن السلطان،وأنّ صاحبه، إذا عصى، احتاج إلى التمسّك به، فحسّن لصاحبه الخلاف على السلطان، فأجاب إلى ذلك، وخلع

الطاعة، وقطع الخطبة.

فسمع ألْب أرسلان، فسار إلى كَرمان، فلمّا قاربها وقعتْ طليعته على طليعة قرا أرسلان، فانهزمت طليعة قرا أرسلان بعد قتال، فلمّا سمع قرا أرسلان وعسكره بانهزام طليعتهم، خافوا وتحيّروا، فانهزموا لا يلوي أحد على آخر، فدخل قرا أرسلان إلى جيرَفْت وامتنع بها، وأرسل إلى السلطان ألب أرسلان يظْهر الطاعة ويسأل العفو عن زلّته، فعفا عنه وحضر عند السلطان فأكرمه، وبكى وأبكى مَن عنده، فأعاده إلى مملكته، ولم يغيّر عليه شيئاً من حاله، فقال للسلطان: إنّ لي بنات تجهيزهنّ إليك، وأمورهنّ إليك؛ فأجابه إلى ذلك، وأعطى كلّ واحدة منهنّ مائة ألف دينار سوى الثياب والإقطاعات. (٥٤/١٠)

ثم سار منها إلى فارس فوصل إلى إصطَخْر، وفتح قلعتها، واستنزل واليها، فحمل إليه الوالي هدايا عظيمة جليلة المقدار، من جملتها قدح فيرُوزَج، فيه مَنَوان من المسك، مكتوب عليه اسم جَمشيد الملك، وأطاعه جميع حصون فارس، وبقي قلعة يقال لها بَهَنْزَاد، فسار نظام الملك إليها، وحصرها تحت جبلها، وأعطى كلّ من رمى بسهم وأصاب قبضة من الدنانير، ومن رمى حجراً ثوباً نفيساً، ففتح القلعة في اليوم السادس عشر من نزوله، ووصل السلطان إليه بعد الفتح، فعظم محلّ نظام الملك عنده، فأعلى منزلته، وزاد في تحكيمه.

ذكر عدّة حوادث

في المحرّم منها توفّي الأغرُّ أبو سعد، ضامن البصرة، على باب السلطان بالرَّيّ، وعقدت البصرة وواسط على هزارسب بثلاثمائة ألف دينار.

وفي صفر منها وصل إلى بغداد شرف الملك أبو سعد المستوفي، وبنى على مشهد أبي حنيفة، رضي اللّه عنه، مدرسة لأصحابه، وكتب الشريف أبو جعفر بن البياضيّ على القبّة التي أحدثها:

ألم تَر أنّ العِلمَ كانَ مشتّتاً ... فجمّعه هذا المُغيَّبُ في اللّحدِ
كذلك كانَت هذه الأرضُ مَيتةً ... فأنشَرَها فضلُ العَميدِ أبي سَعدِ

(٥٥/١٠) وفيها، في جمادي الأولى، وصلت أرسلان خاتون، أخت السلطان ألب أرسلان، وهي زوجة الخليفة، إلى بغداد، واستقبلها فخر الدولة بن جُهير الوزير على فراسخ.

وفيها، في ذي القعدة، احترقت تربة معروف الكرخيّ، رحمة اللّه عليه، وسبب حريقها أنّ قيّمها كان مريضاً، فطبخ لنفسه ماء الشعير، فاتّصلت النار بخشب وبواري كانت هناك، فأحرقته واتّصل الحريق، فأمر الخليفة أبا سعد الصوفيّ، شيخ الشيوخ، بعمارتها.

وفيها، في ذي القعدة، فرغت عمارة المدرسة النظاميّة، وتقرّر التدريس بها للشيخ أبي إسحاق الشيرازيّ، فلمّا اجتمع الناس لحضور الدرس، وانتظروا مجيئه، تأخّر، فطُلب، فلم يوجَدْ.

وكان سبب تأخّره أنّه لقيه صبيّ، فقال له: كيف تدرّس في مكان مغصوب؟ فتغيّرت نيّته عن التدريس بها، فلمّا ارتفع النهار، وأيس الناس من حضوره أشار الشيخ أبو منصور بن يوسف بأبي نصر بن الصبّاغ، صاحب كتاب الشامل وقال: لا يجوز أن ينفصل هذا الجمع إلاّ عن مدرّس، ولم يبق ببغداد من لم يحضر غير الوزير، فجلس أبو نصر للدرس، وظهر الشيخ أبو إسحاق بعد ذلك، ولمّا بلغ نظام الملك الخبر أقام القيامة على العميد أبي سعد، ولم يزل يرفق بالشيخ أبي إسحاق حتّى درّس بالمدرسة، وكانت مدّة تدريس ابن الصبّاغ عشرين يوماً.

وفيها، في ذي القعدة، قُتل الصُّليحيُّ، أمير اليمن، بمدينة المَهْجَم، قتله أحد أمرائها وأُقيمت الدعوة العبّاسيّة هناك، وكان قد ملك مكّة، على ما ذكرناه سنة خمس وخمسين [وأربعمائة]، وأمن الحجّاجُ في أيّامه، فأثنوا عليه خيراً، وكسا البيت بالحرير الأبيض الصينيّ، وردّ حُلى البيت إليه، (٥٦/١٠) وكان بنو حسن قد أخذوه وحملوه إلى اليمن، فابتاعه الصُّليحيُّ منهم.

وفيها توفّي عمر بن إسماعيل بن محمّد أبو عليّ الطوسيُّ، قاضيها، وكان يلقّب العراقيّ لطول مقامه ببغداد، وتفقّه على أبي طاهر الأسفراييني الشافعيّ، وأبي محمّد الشاشيّ وغيرهما. (٥٧/١٠)

سنة ستين وأربعمائة

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة كانت حرب بين شرف الدولة بن قريش وبين بني كلاب بالرَّحبة، وهم في طاعة العلويّ المصريّ، فكسرهم شرف الدولة، وأخذ أسلابهم، وأرسل أعلاماً كانت معهم، عليها سمات المصري، إلى بغداد وكُسرت، وطيف بها في البلد، وأُرسلت الخِلع إلى شرف الدولة.

وفيها، في جمادى الأولى، كانت بفِلَسْطِينَ ومصر زلزلة شديدة خربت الرَّملةَ، وطلع الماء من رؤوس الآبار، وهلك من أهلها خمسة وعشرون ألف نسمة، وانشقّت الصخرة بالبيت المقدّس، وعادت بإذن اللّه تعالى، وعاد البحر من الساحل مسيرة يوم، فنزل الناس إلى أرضه يلتقطون منه فرجع الماء عليهم فأهلك منهم خلقاً كثيراً.

وفيها، في رجب، ورد أبو العبّاس الخوافيُّ بغداد عميداً من

جهة السلطان، وفيها عُزل فخر الدولة بن جُهير من وزارة الخليفة، فخرج من بغداد إلى نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيد بالفَلُوجَةِ، وأرسل الخليفة إلى أبي يعلى والد (٥٨/١٠) الوزير أبي شجاع يستحضره ليولّيه الوزارة، وكان يكتب لهزارسب بن بنكير، فسار، فأدركه أجله في الطريق فمات، ثم شفع نور الدولة في فخر الدولة بن جُهير، فأُعيد إلى الوزارة سنة إحدى وستّين [وأربعمائة] في صفر.

وفيها كان بمصر غلاء شديد، وانقضت سنة إحدى وستّين وأربعمائة.

وفيها حاصر الناصر بن علناس مدينة الأربُس بإفريقية ففتحها وأمّن أهلها.

وفيها، في المحرّم، توفّي الشيخ أبو منصور بن عبد الملك بن يوسف، ورثاه ابن الفضل وغيره من الشعراء، وعمّ مصابه المسلمين، وكان من أعيان الزمان، فمن أفعاله أنّه تسلّم المارستان العضديّ، وكان قد دثر واستولى عليه الخراب، فجدّ في عمارته، وجعل فيه ثمانية وعشرين طبيباً، وثلاثة من الخُزّان، إلى غير ذلك، واشترى له الأملاك النفيسة، بعد أن كان ليس به طبيب ولا دواء، وكان كثير المعروف والصلات والخير، ولم يكن يلقّب في زمانه أحد بالشيخ الأجلّ سواه.

وفي المحرّم أيضاً توفّي أبو جعفر الطوسيُّ، فقيه الإماميّة، بمشهد أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، عليه السلام. (٥٩/١٠)

سنة إحدى وستين وأربعمائة

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في صفر، أُعيد فخر الدولة بن جُهير إلى وزارة الخليفة، على ما ذكرناه، فلمّا عاد مدحه ابن الفضل فقال:

قد رجَعَ الحقُّ إلى نِصابِهِ ... وأنتَ مِن كلّ الورَى أوْلَى بِهِ

ما كنتَ إلاّ السيفَ سلّته يدٌ ... ثمّ أعادتْه إلى قِرابِهِ

وهي طويلة.

وفي شعبان احترق جامع دمشق وكان سبب احتراقه أنّه وقع بدمشق حرب بين المغاربة أصحاب المصريّين والمشارقة، فضربوا داراً مجاورة للجامع بالنار، فاحترقت، واتّصلت بالجامع، وكانت العامّة تعين المغاربة، فتركوا القتال واشتغلوا بإطفاء النار من الجامع، فعظم الخطب واشتدّ الأمر، وأتى الحريق على الجامع، فدثرت محاسنه، وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة. (٦٠/١٠)

سنة اثنتين وستين وأربعمائة

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أقبل ملك الروم من القُسطنطينيّة في عسكر كثيف إلى الشام، ونزل على مدينة مَنْبج ونهبها وقتل أهلها، وهزم محمود بن صالح بن مرادس، وبني كلاب، وابن حسّان الطائيّ، ومن معهما من جموع العرب؛ ثمّ إنّ ملك الروم ارتحل وعاد إلى بلاده، ولم يُمكنه المقام لشدّة الجوع.

وفيها سار أمير الجيوش بدر من مصر في عساكر كثيرة إلى مدينة صور وحصرها، وكان قد تغلّب عليها القاضي عين الدولة بن أبي عُقَيل، فلمّا حصره أرسل القاضي إلى الأمير قَرْلُوا، مقدّم الأتراك المقيمين بالشام، يستنجده، فسار في اثني [عشر] ألف فارس، فحصر مدينة صيدا، وهي لأمير الجيوش بدر، فرحل حينئذ بدر، فعاد الأتراك، فعاود بدر حصر صور برّاً وبحراً سنةً، وضيّق على أهلها حتّى أكلوا الخبز كلّ رطل بنصف دينار، ولم يبلغ غرضه فرحل عنها.

وفيها صارت دار ضرب الدنانير ببغداد في يد وكلاء الخليفة، وسبب ذلك (٦١/١٠) أنّ البَهْرجَ كثر في أيدي الناس على السكك السلطانيّة، وضُرب اسم وليّ العهد على الدينار، وسُمّي الأميريّ، ومُنع من التعامل بسواه.

وفيها ورد رسول صاحب مكّة محمّد بن أبي هاشم، ومعه ولده، إلى السلطان ألْب أرسلان، يخبره بإقامة الخطبة للخليفة القائم بأمر الله وللسلطان بمكّة وإسقاط خطبة العلويّ، صاحب مصر، وترك الأذان بحيّ على خير العمل، فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار، وخِلعاً نفيسة، وأجرى له كلّ سنة عشرة آلاف دينار، وقال: إذا فعل أمير المدينة مُهنّا كذلك، أعطيناه عشرين ألف دينار، وكلّ سنة خمسة آلاف دينار.

وفيها تزوّج عميد الدولة بن جُهير بابنة نظام الملك بالرَّيّ وعاد إلى بغداد.

وفيها، في شهر رمضان، توفّي تاج الملوك هزارسب بن بنكير بن عياض بأصبهان وهو عائد من عند السلطان إلى خوزستان، وكان قد علا أمره، وتزوّج بأخت السلطان، وبغى على نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيد، وأغرى السلطان به ليأخذ بلاده، فلمّا مات سارَدُ بَيْس إلى السلطان، ومعه شرف الدولة مُسلم، صاحب الموصل، فخرج نظام الملك فلقيهما، وتزوّج شرف الدولة بأخت السلطان التي كانت امرأة هزارسب، وعادا إلى بلادهما من همذان.

وفيها كان بمصر غلاء شديد، ومجاعة عظيمة، حتّى أكل الناس

بعضهم بعضاً، وفارقوا الديار المصريّة، فورد بغداد منهم خلق كثير هرباً من الجوع، وورد التجار، ومعهم ثياب صاحب مصر وآلاته، نُهبت من الجوع، وكان فيها أشياء كثيرة نُهبت من دار الخلافة وقت القبض على الطائع للّه سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وممّا نُهب أيضاً في فتنة البساسيريّ وخرج من خزائنهم(٦٢/١٠) ثمانون ألف قطعة بلّور كبار، وخمسة وسبعون ألف قطعة من الديباج القديم، وأحد عشر ألف كزاغند، وعشرون ألف سيف محلّى، وقال ابنُ الفضل يمدح القائم بأمر اللّه، ويذكر الحال بقصيدة فيها:

قد عَلِمَ المصريُّ أنّ جُنودَه ... سَنُو يوسفٍ منها، وطاعونُ عمواسِ

أقامتْ به حتّى استرابَ بنفسِه، ... وأوجَسَ منه خِيفةً أيُّ إيجاسِ

في أبيات.

وفيها توفّي أبو الجوائز الحسن بن عليّ بن محمّد الواسطيُّ، كان أديباً شاعراً، حسن القول، فمن قوله:

واحَسْرتي مِن قولِها: ... خانَ عُهودي ولَهَا

وحَقِّ مَن صَيّرَني ... وَقفاً عليها ولَهَا

ما خطَرَت بخاطري، ... إلاّ كَسَتني ولَهَا

وتوفّي محمّد بن أحمد أبو غالب بن بشران الواسطيُّ الأديب، وانتهت الرحلة إليه في الأدب، وله شعر، فمنه في الزهد:

يا شائداً للقصورِ مَهلاً ... أقصِر، فقَصْرُ الفتى المماتُ

لم يجتمع شَملُ أهلِ قصرٍ، ... إلاّ قُصاراهمُ الشّتاتُ

وإنّما العيشُ مثلُ ظِلٍّ، ... مُنتقلٍ ما لهُ ثَباتُ

وفيها توفّي القاضي أبو الحسين محمّد بن إبراهيم بن حزم، قاضي دمشق؛ وأبو محمّد عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أبي العجائز، الخطيب بدمشق. (٦٣/١٠)

سنة ثلاث وستين وأربعمائة

ذكر الخطبة للقائم بأمر اللّه والسلطان بحلب

في هذه السنة خطب محمود بن صالح بن مرداس بحلب لأمير المؤمنين القائم بأمر اللّه، وللسلطان ألب أرسلان.

وسبب ذلك أنّه رأى إقبال دولة السلطان، وقوّتها، وانتشار دعوتها، فجمع أهل حلب وقال: هذه دولة جديدة، ومملكة شديدة، ونحن تحت الخوف منهم، وهم يستحلّون دماءكم لأجل مذاهبكم، والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعنا فيه قول ولا بذل، فأجاب المشايخ [إلى] ذلك، ولبس المؤذّنون السواد، وخطبوا للقائم بأمر اللّه والسلطان، فأخذت العامّة حُصُرَ الجامع، وقالوا: هذه حُصر عليّ بن أبي طالب، فليأت أبو بكر بِحُصرٍ يصلّي عليها بالناس.

وأرسل الخليفة إلى محمود الخلع مع نقيب النقباء طِراد بن محمّد الزينيّ، فلبسها، ومدحه ابن سنان الخفاجيُّ، وأبو الفتيان بن حَيّوس، وقال أبو عبد اللّه بن عطيّة يمدح القائم بأمر اللّه، ويذكر الخطبة بحلب ومكّة والمدينة:

كم طائعٍ لكَ لم تجلِبْ عليه، ولم ... تَعرِفْ لطاعتِه غيرَ التُّقى سَبَبا

هذا البشيرُ بإذعانِ الحجازِ، وذا ... داعي دمشقَ وذا المبعوثُ من حَلَبا

(٦٤/١٠)

ذكر استيلاء السلطان ألب أرسلان على حلب

في هذه السنة سار السلطان ألْب أرسلان إلى حلب، وجعل طريقه على ديار بكر، فخرج إليه صاحبها، نصر بن مروان، وخدمه بمائة ألف دينار، وحمل إليه إقامة عرف السلطان أنّه قسّطها على البلاد، فأمر بردّها.

ووصل إلى آمِد فرآها ثغراً منيعاً، فتبرّك به، وجعل يمرّ يده على السور ويمسح بها صدره.

وسار إلى الرُّها فحصرها فلم يظفر منها بطائل، فسار إلى حلب وقد وصلها نقيب النقباء أبو الفوارس طِراد بالرسالة القائمية، والخِلع، فقال له محمود، صاحب حلب: أسألك الخروج إلى السلطان، والاستعفاء لي من الحضور عنده؛ فخرج نقيب النقباء، وأخبر السلطان بأنّه قد لبس الخِلع القائميّة وخطب فقال: أيّ شيء تساوي خطبتهم وهم يؤذّنون حيّ على خير العمل؟ ولا بدّ من الحضور، ودوس بساطي؛ فامتنع محمود من ذلك.

فاشتد الحصار على البلد، وغلت الأسعار، وعظم القتال، وزحف السلطان يوماً وقرب من البلد، فوقع حجر مِنجنيق في فرسه، فلمّا عظم الأمر من محمود خرج ليلاً، ومعه والدته منيعةُ بنت وثّاب النُّميريّ، فدخلا على السلطان وقالت له: هذا ولدي، فافعل به ما تحبّ. فتلقّاهما بالجميل، وخلع على محمود وأعاده إلى بلده، فأنفذ إلى السلطان مالاً جزيلاً. (٦٥/١٠)

ذكر خروج ملك الروم إلى خِلاط وأسره

في هذه السنة خرج أرمانوس ملك الروم في مائتي ألفٍ من الروم، والفرنج، والغرب، والروس، والبجناك، والكُرج، وغيرهم، من طوائف تلك البلاد، فجاؤوا في تجمّل كثير، وزيّ عظيم، وقصد بلاد الإسلام، فوصل إلى ملازكرد من أعمال خِلاط، فبلغ السلطان ألْب أرسلان الخبر، وهو بمدينة خُوَيّ من أذربيجان، قد عاد من حلب، وسمع ما هو ملك الروم فيه من كثرة الجموع، فلم يتمكّن من جمع العساكر لبُعدها وقُرب العدوّ، فسيّر الأثقال مع زوجته ونظام الملك إلى همذان، وسار هو فيمن عنده من العساكر، وهم خمسة عشر ألف فارس، وجدّ في السير، وقال لهم: إنّني

أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمتُ فنعمة من اللّه تعالى، وإن كانت الشهادة فإنّ ابني ملكشاه وليّ عهدي؛ وساروا.

فلمّا قارب العدوّ جعل له مقدّمة، فصادفت مقدّمته، عند خِلاط، مقدّم الروسيّة في نحو عشرة آلاف من الروم، فاقتتلوا، فانهزمت الروسيّة، وأُسر مقدّمهم، وحُمل إلى السلطان، فجدع أنفه، وأنفذ بالسلب إلى نظام الملك، وأمره أن يرسله إلى بغداد، فلمّا تقارب العسكران أرسل السلطان إلى ملك الروم يطلب منه المُهادنة، فقال: لا هدنة إلاّ بالرّيّ، فانزعج السلطان لذلك، فقال له إمامه وفقيهه أبو نصر محمّد بن عبد الملك البخاري، الحنفيُّ: إنّك تقاتل عن دين وعد اللّه بنصره وإظهاره على سائر الأديان، وأرجو أن يكون (٦٦/١٠) اللّه تعالى قد كتب باسمك هذا الفتح، فالقَهم يوم الجُمعة، بعد الزوال، في الساعة التي تكون الخطباء على المنابر، فإنّهم يدعون للمجاهدين بالنصر، والدعاء مقرون بالإجابة.

فلمّا كانت تلك الساعة صلّى بهم، وبكى السلطان، فبكى الناس لبكائه، ودعا ودعوا معه، وقال لهم: من أراد الانصراف فلينصرف، فما هاهنا سلطان يأمر وينهى، وألقى القوس والنُّشّاب، وأخذ السيف والدبّوس، وعقد ذنب فرسه بيده، وفعل عسكره مثله، وليس البياض، وتحنّط، وقال: إن قُتلت فهذا كفني.

وزحف إلى الروم، وزحفوا إليه، فلمّا قاربهم ترجل وعفّر وجهه على التراب، وبكى، وأكثر الدعاء، ثم ركب وحمل، وحملت العساكر معه، فحصل المسلمون في وسطهم وحجز الغبار بينهم، فقتل المسلمون فيهم كيف شاؤوا، وأنزل اللّه نصره عليهم، فانهزم الروم، وقُتل منهم ما لا يُحصى، حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى، وأُسر ملك الروم، أسره بعض غلمان كوهرائين، أراد قتله ولم يعرفه، فقال له خادم مع الملك: لا تقتله، فإنّه الملك.

وكان هذا الغلام قد عرضه كوهرائين على نظام الملك، فردّه استحقاراً له، فأثنى عليه كوهرائين، فقال نظام الملك: عسى أن يأتينا بملك الروم أسيراً؛ فكان كذلك.

فلمّا أسر الغلام الملك أحضره عند كوهرائين، فقصد السلطان وأخبره بأسر الملك، فأمر بإحضاره، فلمّا أُحضر ضربه السلطان ألْب أرسلان ثلاث مقارع بيده وقال له: ألم أُرسل إليك في الهُدنة فأبيتَ؟ فقال: دعني من (٦٧/١٠) التوبيخ، وافعل ما تريد! فقال السلطان: ما عزمتَ أن تفعل بي إن أسرتَني؟ فقال: أفعل القبيح. قال له: فما تظنُّ أنّني أفعل بك؟ قال: إمّا أن تقتلني، وإمّا أن تشهرني في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة، وهي العفو، وقبول الأموال، واصطناعي نائباً عنك. قال: ما عزمتُ على غير هذا.

ففداه بألف ألف دينار وخمس مائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عساكر الروم أيّ وقت طلبها، وأن يطلق كلّ أسير في بلاد الروم، واستقرّ الأمر على ذلك، وأنزله في خيمة، وأرسل إليه عشرة آلاف دينار يتجهّز بها، فأطلق له جماعة من البطارقة، وخلع عليه من الغد، فقال ملك الروم: أين جهة الخليفة؟ فدُلّ عليها، فقام وكشف رأسه وأومأ إلى الأرض بالخدمة، وهادنه السلطان خمسين سنة، وسيّره إلى بلاده، وسيّر معه عسكراً أوصلوه إلى مأمنه، وشيّعه السلطان فرسخاً.

وأمّا الروم فلمّا بلغهم خبر الوقعة وثب ميخائيل على المملكة فملك البلاد، فلمّا وصل أرمانوس الملك إلى قلعة دُوقِية بلغه الخبر، فلبس الصوف وأظهر الزهد، وأرسل إلى ميخائيل يعرّفه ما تقرّر مع السلطان، وقال: إن شئتَ أن تفعل ما استقرّ، وإن شئتَ أمسكتَ؛ فأجابه ميخائيل بإيثار ما استقرّ، وطلب وساطته، وسؤال السلطان في ذلك.

وجمع أرمانوس ما عنده من المال فكان مائتَيْ ألف دينار، فأرسله إلى السلطان، وطبق ذهب عليه جواهر بتسعين ألف دينار، وحلف له أنّه لا يقدر على غير ذلك، ثم إنّ أرمانوس استولى على أعمال الأرمن وبلادهم. ومدح الشعراء السلطان، وذكروا هذا الفتح، فأكثروا. (٦٨/١٠)

ذكر ملك أتسيز الرملة وبيت المقدس

في هذه السنة قصد أتسيز بن أوق الخوارزميُّ، وهو من أمراء السلطان ملكشاه، بلد الشام، فجمع الأتراك وسار إلى فِلَسْطِين، ففتح مدينة الرَّملة، وسار منها إلى البيت المقدّس وحصره، وفيه عساكر المصريّين، ففتحه، وملك ما يجاورهما من البلاد، ما عدا عَسْقَلان، وقصد دمشق فحصرها، وتابع النهب لأعمالها حتّى خرّبها، وقطع الميرة عنها، فضاق الأمر بالناس، فصبروا، ولم يمكنوه من ملك البلد، فعاد عنه، وأدام قصد أعماله وتخريبها حتى قلّت الأقوات عندهم.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّي أبو القاسم عبد الرحمن بن محمّد بن أحمد بن فوران الفورانيُّ، الفقيه الشافعيُّ، مصنّف كتاب الإبانة وغيره.

وفي هذه السنة، في ذي الحجّة، توفّي الخطيب أبو بكر أحمد بن عليّ ابن ثابت البغداديُّ، صاحب التاريخ والمصنفات الكثيرة ببغداد، وكان إمام الدنيا في زمانه، وممّن حمل جنازته الشيخ أبو إسحاق الشيرازيُّ.

وتوفي أيضاً فيها، في شهر رمضان، أبو يعلى محمّد بن الحسين بن (٦٩/١٠) حمزة الجعفريُّ، فقيه الإماميّة، وحسّان بن سعيد بن حسّان بن محمّد بن عبد اللّه المنيعيُّ المخزوميُّ من أهل مرو الرُّوذ، كان كثير الصدقة والمعروف، والعبادة، والقنوع بالقليل

من القوت، والإعراض عن زينة الدنيا وبهجتها، وكان السلاطين يزورونه ويتبرّكون به، وأكثر من بناء المساجد والخانقاهات والقناطر، وغير ذلك من مصالح المسلمين.

وتوفّيت أيضاً كريمة بنت أحمد بن محمّد المَروزيّة، وهي التي تروي صحيح البخاري، توفّيت بمكّة، وإليها انتهى علوّ الإسناد للصحيح إلى أن جاء أبو الوقت. (٧٠/١٠)

سنة أربع وستين وأربعمائة

ذكر ولاية سعد الدولة كوهرائين شحنكيّة بغداد

في ربيع الأول من هذه السنة ورد إيتكين السليمانيُّ شحنة بغداد من عند السلطان إلى بغداد، فقصد دار الخلافة، وسأل العفو عنه، وأقام أياماً، فلم يُجَبْ إلى ذلك.

وكان سبب غضب الخليفة عليه أنّه كان قد استخلف ابنَهُ عند مسيره إلى السلطان، وجعله شحنةً ببغداد، فقتل أحد المماليك الداريّة، فأنفذ قميصه من الديوان إلى السلطان، ووقع الخطاب في عزله.

وكان نظام الملك يعني بالسليمانيّ، فأضاف إلى إقطاعه تكريت، فكوتب واليها، من ديوان الخلافة، بالتوقّف عن تسليمها. فلمّا رأى نظام الملك والسلطان إصرار الخليفة على الاستقالة من ولايته شحنكيّة بغداد، سيّر سعد الدولة كوهرائين إلى بغداد شحنةً، وعزل السليمانيُّ عنها، اتّباعاً لما أمر به الخليفة القائم بأمر اللّه، ولمّا ورد سعد الدولة خرج الناس لتلقيّه، وجلس له الخليفة.

ذكر ترويج وليّ العهد بابنة السلطان

في هذه السنة أرسل الإمام القائم بأمر اللّه عميدَ الدولة بن جُهير، ومعه الخلع للسلطان ولولده ملكشاه؛ وكان السلطان قد أرسل يطلب من الخليفة أن يأذنَ (٧١/١٠) في أن يجعل ولده ملكشاه وليّ عهده، فأذن، وسُيّرت له الخِلع مع عميد الدولة، وأمر عميد الدولة أن يخطب ابنة السلطان ألب أرسلان من سفري خاتون لوليّ العهد المقتدي بأمر اللّه، فلمّا حضر عند السلطان خطب ابنته، فأُجيب إلى ذلك.

وعقد النكاح بظاهر نَيسابور، وكان عميد الدولة الوكيل في قبول النكاح، ونظام الملك الوكيل من جهة السلطان في العقد، وكان النثار جواهر، وعاد عميد الدولة من عند السلطان إلي ملكشاه، وكان ببلاد فارس، فلقيه بأصبهان، فأفاض عليه الخِلع، فلبسها وسار إلى والده، وعاد عميد الدولة إلى بغداد، فدخلها في ذي الحجّة.

ذكر ولاية أبي الحسن بن عمّار طرابلس

في هذه السنة، في رجب، توفّي القاضي أبو طالب بن عمّار، قاضي طرابلس، وكان قد استولى عليها، واستبدّ بالأمر فيها، فلمّا توفّي قام مكانه ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن بن عمّار، فضبط البلد أحسن ضبطٍ، ولم يظهر لفقد عمّه أثر لكفايته.

ذكر ملك السلطان ألب أرسلان قلعة فضلون بفارس

في هذه السنة سيّر السلطان ألْب أرسلان وزيرَهُ نظام الملك في عسكر إلى بلاد فارس، وكان بها حصن من أمنع الحصون والمعاقل، وفيه صاحبه فضلون، (٧٢/١٠) وهو لا يُعطي الطاعة، فنازله وحصره، ودعاه إلى طاعة السلطان فامتنع، فقاتله فلم يبلغ بقتاله غرضاً لعلوّ الحصن وارتفاعه، فلم يطل مقامهم عليه حتّى نادى أهل القلعة بطلب الأمان ليسلّموا الحصن إليه، فعجب الناس من ذلك.

وكان السبب فيه أنّ جميع الآبار التي بالقلعة غارت مياهها في ليلة واحدة فقادتهم ضرورة العطش إلى التسليم، فلمّا طلبوا الأمان أمّنهم نظام الملك، وتسلّم الحصن، والتجأ فضلون إلى قُلّة القلعة، وهي أعلى موضع فيها، وفيه بناء مرتفع، فاحتمى فيها، فسيّر نظام الملك طائفة من العسكر إلى الموضع الذي فيه أهل فضلون وأقاربه ليحملوهم إليه وينهبوا مالهم، فسمع فضلون الخبر، ففارق موضعه مستخفياً فيمن عنده من الجند، وسار ليمنع عن أهله، فاستقبلته طلائع نظام الملك، فخافهم، فتفرّق مَن معه، واختفى في نبات الأرض، فوقع فيه بعض العسكر، فأخذه أسيراً، وحمله إلى نظام الملك، فأخذه وسار به إلى السلطان فأمّنه وأطلقه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة توفّي القاضي أبو الحسين محمّد بن أحمد بن عبد الصمد بن المهتدي باللّه الخطيب بجامع المنصور، وكان قد أضرّ، ومولده سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وكان إليه قضاء واسط، وخليفته عليها أبو محمّد بن السّمال. (٧٣/١٠)

سنة خمس وستين وأربعمائة

ذكر قتل السلطان ألب أرسلان

في أوّل هذه السنة قصد السلطان ألْب أرسلان، واسمه محمّد، وإنّما غلب عليه ألْب أرسلان ما وراء النهر، وصاحبه شمس الملك تكين، فعقد على جيحون جسراً وعبر عليه في نيّف وعشرين يوماً، وعسكره يزيد على مائتَي ألف فارس، فأتاه أصحابه بمستحفظ قلعة يُعرف بيوسف الخوارزميّ، في سادس شهر ربيع الأوّل، وحُمل إلى قرب سريره مع غلامَيْن، فتقدّم أن تُضرب له أربعة أوتاد وتُشدّ

أطرافه إليها، فقال له يوسف: يا مخنّث! مثلي يُقتل هذه القتلة؟ فغضب السلطان ألب أرسلان، وأخذ القوس والنشّاب، وقال للغلامَيْن: خليّاه! ورماه السلطان بسهم فأخطأه، ولم يكن يخطىء سهمه، فوثب يوسف يريده، والسلطان على سُدّة، فلمّا رأى يوسف يقصده قام عن السُّدّة ونزل عنها، فعثر، فوقع على وجهه، فبرك عليه يوسف وضربه بسكّين كانت معه في خاصرته، وكان سعد الدولة واقفاً، فجرحه يوسف أيضاً جراحات، ونهض السلطان فدخل إلى خيمة أخرى، وضرب بعض الفرّاشين يوسفَ بمرزبّة على رأسه، فقتله وقطّعه الأتراك.

وكان أهل سمرقند لمّا بلغهم عبور السلطان النهر، وما فعل عسكره بتلك البلاد لا سيّما بخارى، اجتمعوا، وختموا ختماتٍ، وسألوا اللّه أن يكفيهم (٧٤/١٠) أمره، فاستجاب لهم.

ولمّا جُرح السلطان قال: ما من وجه قصدتُه، وعدوّ أردتُه، إلا استعنتُ باللّه عليه، ولما كان أمسِ صعدتُ على تلّ، فارتجّت الأرض تحتي من عظم الجيش وكثرة العسكر، فقلتُ في نفسي: أنا ملك الدنيا، وما يقدر أحدٌ عليّ، فعجّزني اللّه تعالى بأضعف خلقه، وأنا أستغفر اللّه تعالى، وأستقيله من ذلك الخاطر، فتوفّي عاشر ربيع الأوّل من السنة، فحُمل إلى مرو ودُفن عند أبيه.

ومولده سنة أربع وعشرين وأربعمائة، وبلغ من العمر أربعين سنة وشهوراً، وقيل كان مولده سنة عشرين وأربعمائة، وكانت مدّة ملكه منذ خُطب له بالسلطنة إلى أن قُتل تسع سنين وستّة أشهر وأياماً، ولمّا وصل خبر موته إلى بغداد جلس الوزير فخر الدولة بن جُهير للعزاء به في صحن السلام.

ذكر نسب ألب أرسلان وبعض سيرته

هو ألب أرسلان محمّد بن داود جُغري بك بن ميكائيل بن سلجوق، وكان كريماً، عادلاً، عاقلاً، لا يسمع السعايات، واتّسع ملكه جدّاً، ودان له العالم، وبحقّ قيل له سلطان العالم.

وكان رحيم القلب رفيقاً بالفقراء، كثير الدعاء بدوام ما أنعم اللّه به عليه. اجتاز يوماً بمرو على فقراء الخرائين، فبكى، وسأل اللّه تعالى أن يغنيه من فضله. (٧٥/١٠)

وكان يكثر الصدقة، فيتصدّق في رمضان بخمسة عشر ألف دينار، وكان في ديوانه أسماء خلق كثير من الفقراء في جميع ممالكه، عليهم الإدرارات والصلات، ولم يكن في جميع بلاده جناية ولا مصادرة، قد قنع من الرعايا بالخراج الأصليّ يؤخذ منهم كلّ سنة دفعتَيْن رفقاً بهم.

وكتب إليه بعض السُّعاة سعاية في نظام الملك وزيره، وذكر ما له في ممالكه من الرسوم والأموال، وتُركتْ على مصلاّه، فأخذها فقرأها، ثم سلّمها إلى نظام الملك وقال له: خذ هذا الكتاب، فإن صدقوا في الذي كتبوه فهذّبْ أخلاقك، وأصلح أحوالك، وإن كذبوا فاغفر لهم زلّتهم واشغلهم بمهمّ يشتغلون به عن السعاية بالناس.

وهذه حالة لا يُذكر عن أحد من الملوك أحسن منها.

وكان كثيراً ما يُقرأ عليه تواريخ الملوك وآدابهم، وأحكام الشريعة، ولّما اشتهر بين الملوك حُسن سيرته، ومحافظته على عهوده، أذعنوا له بالطاعة والموافقة بعد الامتناع، وحضروا عنده من أقاصي ما وراء النهر إلى أقصى الشام.

وكان شديد العناية بكفّ الجند عن أموال الرعيّة، بلغه أنّ بعض خواصّ مماليكه سلب من بعض الرستاقيّة إزاراً، فأخذ المملوك وصلبه، فارتدع الناس عن التعرّض إلى مال غيرهم.

ومناقبه كثيرة لا يليق بهذا الكتاب أكثر من هذا القدر منها. وخلّف ألب أرسلان من الأولاد: ملكشاه، وهو صار السلطان بعده، وإياز، وتكش، وبوري برش، وتُتُش، وأرسلان أرغو، وعائشة، وبنتاً أخرى. (٧٦/١٠)

ذكر ملك السلطان ملكشاه

لمّا جُرح السلطان ألب أرسلان أوصى بالسلطنة لابنه ملكشاه، وكان معه، وأمر أن يحلف له العسكر، فحلفوا جميعهم، وكان المتولّي للأمر في ذلك نظام الملك، وأرسل ملكشاه إلى بغداد يطلب الخطبة له، فخُطب له على منابرها، وأوصى ألب أرسلان ابنَهُ ملكشاه أيضاً أن يعطي أخاه قاورت بك بن داود أعمال فارس وكَرمان، وشيئاً عيّنه من المال، وأن يُزوّج بزوجته؛ وكان قاورت بك بكَرمان، وأوصى أن يعطى ابنه إياز بن ألب أرسلان ما كان لأبيه داود، وهو خمسمائة ألف دينار، وقال: كلّ من لم يرض بما أوصيتُ له فقاتلوه، واستعينوا بما جعلته له على حربه.

وعاد ملكشاه من بلاد ما وراء النهر، فعبر العسكر الذي قطع النهر في نيّف وعشرين يوماً في ثلاثة أيام، وقام بوزارة ملكشاه نظام الملك، وزاد الأجناد في معايشهم سبع مائة ألف دينار، وعادوا إلى خُراسان، وقصدوا نَيسابور؛ وراسل ملكشاه جماعة الملوك أصحاب الأطراف يدعوهم إلى الخطبة له والانقياد إليه، وأقام إياز أرسلان ببَلْخ وسار السلطان ملكشاه في عساكره من نَيسابور إلى الرَّيّ. (٧٧/١٠)

ذكر ملك صاحب سَمَرْقَنْد مدينة تِرمِذ

في هذه السنة في ربيع الآخر، ملك التكين صاحب سَمَرْقَنْد مدينة تِرمِذ.

وسبب ذلك أنّه لما بلغه وفاة ألْب أرسلان، وعود ابنه ملكشاه عن خُراسان، طمع في البلاد المجاورة له، فقصد تِرمِذ أوّل ربيع الآخر، وفتحها، ونقل ما فيها من ذخائر وغيرها إلى سَمَرقند.

وكان إياز بن ألب أرسلان قد سار عن بَلخ إلى الجُوزَجان، فخاف أهل بَلخ، فأرسلوا إلى التكين يطلبون منه الأمان، فأمّنهم، فخطبوا له فيها، وورد إليها، فنهب عسكره شيئاً من أموال الناس، وعاد إلى تِرمِذ، فثار أوباش بَلْخ بجماعة من أصحابه فقتلوهم، فعاد إليهم وأمر بإحراق المدينة، فخرج إليه أعيان أهلها وسألوه الصفح، واعتذروا، فعفا عنهم، لكنّه أخذ أموال التجار فغنم شيئاً عظيماً.

فلمّا وصل الخبر إلى إياز عاد من الجُوزَجان إلى بلخ، فوصل غرّة جمادى الأولى، فأطاعه أهلُها، وسار عنها إلى تِرمِذ في عشرة آلاف فارس في الثالث والعشرين من جمادى الآخرة، فلقيهم عسكر التكين، فانهزم إياز، فغرق من عسكره في جَيْحون أكثرهم، وقُتل كثير منهم، ولم ينج إلاّ القليل. (٧٨/١٠)

ذكر قصد صاحب غزنة سَكْلَكَنْد

وفي هذه السنة أيضاً، في جمادى الأولى، وردت طائفة كثيرة من عسكر غزنة إلى سَكْلَكَنْدَ، وبها عثمان عم السلطان ملكشاه، ويلقّب بأمير الأمراء، فأخذوه أسيراً، وعادوا به إلى غَزنة مع خزائنه وحشمه، فسمع الأمير كُمشْتكين بلكابك، وهو من أكابر الأمراء، فتبع آثارهم، وكان معه أنوشتكين جدّ ملوك خُوارزم في زماننا، فنهبوا مدينة سَكْلَكَنْدَ.

ذكر الحرب بين السلطان ملكشاه وعمّه قاورت بك

لمّا بلغ قاورت بك، وهو بكَرمان، وفاة أخيه ألْب أرسلان سار طالباً للرَّيّ يريد الاستيلاء على الممالك، فسبقه إليها السلطان ملكشاه ونظام الملك، وسارا منها إليه، فالتقوا بالقرب من هَمَذان في شعبان، وكان العسكر يميلون إلى قاورت بك، فحملت ميسرة قاورت على ميمنة ملكشاه، فهزموها، وحمل شرف الدولة مسلم بن قُريش، وبهاء الدولة منصور بن دُبَيْس بن مَزْيد، وهما مع ملكشاه، ومن معهما من العرب والأكراد، على ميمنة قاورت بك فهزموها، وتمّت الهزيمة على أصحاب قاورت بك، ومضى المنهزمون من أصحاب السلطان ملكشاه إلى حلل شرف الدولة، وبهاء الدولة، فنهبوها غيظاً منهم، حيث هزموا عسكر قاورت بك، ونهبوا أيضاً ما كان لنقيب النقباء طِراد بن محمّد الزينبيّ رسول الخليفة. (٧٩/١٠)

وجاء رجل سواديّ إلى السلطان ملكشاه، فأخبره أنّ عمّه قاورت بك في بعض القُرى، فأرسل مَنْ أخذه وأحضره، فأمر سعد الدولة كوهرائين فخنقه، وأقرّ كرمان بيد أولاده، وسيّر إليهم الخِلَع، وأقطع العرب والأكراد إقطاعات كثيرة لما فعلوه في الوقعة.

وكان السبب في حضور شرف الدولة، وبهاء الدولة، عند ملكشاه، أنّ السلطان ألب أرسلان كان ساخطاً على شرف الدولة، فأرسل الخليفة نقيب النقباء طِراد بن محمّد الزينبيّ إلى شرف الدولة بالموصل، فأخذه وسار به إلى ألب أرسلان ليشفع فيه عند الخليفة، فلمّا بلغ الزاب وقف على ملطّفات كتبها وزيره أبو جابر بن صقلاب، فأخذه شرف الدولة فغرّقه، وسار مع طِراد، فبلغهما الخبر بوفاة ألْب أرسلان، ومسير ابنه ملكشاه، فتمّما إليه.

وأمّا بهاء الدولة فإنّه كان قد سار بمال أرسله به أبوه إلى السلطان، فحضر الحرب بهذا السبب.

ذكر تفويض الأمور إلى نظام الملك

ثم إنّ عسكر ملكشاه بسطوا ومدّوا أيديهم في أموال الرعيّة، وقالوا: ما يمنع السلطان أن يعطينا الأموال إلاّ نظام الملك، فنال الرعيّة أذى شديدٌ، فذكر ذلك نظام الملك للسلطان، فبيّن له ما في هذا الفعل من الوهن، وخراب البلاد، وذهاب السياسة، فقال له: افعلْ في هذا ما تراه مصلحة! فقال له (٨٠/١٠) نظام الملك: ما يمكنني أن أفعل إلاّ بأمرك.

فقال السلطان: قد رددتُ الأمور كلّها كبيرها وصغيرها إليك، فأنت الوالد؛ وحلف له، وأقطعه إقطاعاً زائداً على ما كان، من جملته طُوس مدينة نظام الملك، وخلع عليه، ولقّبه ألقاباً من جملتها: أتابك، ومعناه الأمير الوالد، فظهر من كفايته، وشجاعته، وحسن سيرته ما هو مشهور، فمن ذلك أنّ امرأة ضعيفة استغاثت به، فوقف يكلّمها وتكلّمه، فدفعه بعض حجّابه، فأنكر ذلك عليه وقال: إنّما استخدمتُك لأمثال هذه، فإنّ الأمراء والأعيان لا حاجة بهم إليك؛ ثم صرفه عن حجابته.

ذكر قتل ناصر الدولة بن حمدان

في هذه السنة قُتل ناصر الدولة أبو عليّ الحسن بن حمدان، وهو من أولاده ناصر الدولة بن حمدان، بمصر، وكان قد تقدّم فيها تقدّماً عظيماً.

ونذكر هاهنا الأسباب الموجبة لقتله، فإنّها تتبع بعضها بعضاً، وفي حروب وتجارب، وكان أوّل ذلك انحلال أمر الخلافة، وفساد أحوال المستنصر باللّه العلويّ، صاحبها، وسببه أنّ والدته كانت غالبةً على أمره، وقد اصطنعتْ أبا سعيد إبراهيم التُّستَريّ، الهوديّ، وصار وزيراً لها، فأشار عليها بوزارة أبي نصر الفلاحيّ، فولّته الوزارة، واتّفقا مدّةً، ثم صار الفلاحيُّ ينفرد بالتدبير، فوقع بينهما وحشة، فخافه الفلاحيُّ أن يُفسد أمرَه مع أمّ المستنصر، (٨١/١٠) فاصطنع الغلمان الأتراك، واستمالهم، وزاد في أرزاقهم، فلمّا وثق

بهم وضعهم على قتل اليهوديّ، فقتلوه، فعظم الأمر على أمّ المستنصر، وأغرت به ولدها، فقبض عليه، وأرسلت من قتله تلك الليلة، وكان بينهما في القتل تسعة أشهر.

ووزر بعده أبو البركات حسن بن محمّد، فوضعه على الغلمان الأتراك فأفسد أحوالهم، وشرع يشتري العبيد للمستنصر، واستكثر منهم، فوضعته أمّ المستنصر ليغري العبيد المجردين بالأتراك، فخاف عاقبة ذلك، وعلم أنّه يورث شراً وفساداً، فلم يفعل، فتنكّرت له، وعزلته عن الوزارة.

ووليَ بعده الوزارة أبو محمّد اليازوري من قرية من قرى الرملة اسمُها يازور، فأمرته أيضاً بذلك، فلم يفعل، وأصلح الأمور إلى أن قُتل.

ووزر بعده أبو عبد اللّه الحسين بن البابليّ، فأمرته بما أمرتْ غيره من الوزراء من إغراء العبيد بالأتراك، ففعل، فتغيّرتْ نيّاتهم.

ثم إنّ المستنصر ركب ليشيّع الحجّاج، فأجرى بعض الأتراك فرسه، فوصل به إلى جماعة العبيد المحدثين، وكانوا يحيطون بالمستنصر، فضربه أحدهم فجرحه، فعظم ذلك على الأتراك ونشبت بينهم الحرب، ثمّ اصطلحوا على تسليم الجارح إليهم، واستحكمت العداوة، فقال الوزير للعبيد: خذوا حذركم؛ فاجتمعوا في محلّتهم.

وعرف الأتراك ذلك، فاجتمعوا إلى مقدّميهم، وقصدوا ناصر الدولة ابن حمدان، وهو أكبر قائد بمصر، وشكوا إليه، واستمالوا المصامدة، وكتامة، وتعاهدوا، وتعاقدوا، فقوي الأتراك، وضعف العبيد المحدثون، فخرجوا من القاهرة إلى الصعيد ليجتمعوا هناك، فانضاف إليهم خلق كثير يزيدون على خمسين ألف فارس وراجل، فخاف الأتراك وشكوا إلى المستنصر، فأعاد (٨٢/١٠) الجواب أنّه لا علم له بما فعل العبيد، وأنّه لا حقيقة له، فظنّوا قوله حيلة عليهم.

ثم قوي الخبر بقرب العبيد منهم بكثرتهم، فأجفل الأتراك، وكتامة، والمصامدة، وكانت عدّتهم ستّة آلاف، فالتقوا بموضع يُعرف بكَوْمِ الريشِ، واقتتلوا، فانهزم الأتراك ومن معهم إلى القاهرة، وكان بعضهم قد كمن في خمسمائة فارس، فلمّا انهزم الأتراك خرج الكمين على ساقة العبيد ومن معهم، وحملوا عليهم حملة منكرة، وضربت البوقات، فارتاع العبيد، وظنّوها مكيدةً من المستنصر، وأنّه قد ركب في باقي العسكر، فانهزموا، وعاد عليهم الأتراك وحكّموا فيهم السيوف، فقتل منهم وغرق نحو أربعين ألفاً وكان يوماً مشهوداً.

وقويت نفوس الأتراك، وعرفوا حسن رأي المستنصر فيهم، وتجمّعوا، وحشدوا، فتضاعفت عدّتهم، وزادت واجباتهم للإنفاق فيهم، فخلت الخزائن، واضطربت الأمور، وتجمّع باقي العسكر من الشام وغيره إلى الصعيد، فاجتمعوا مع العبيد، فصاروا خمسة عشر ألف فارس وراجل، وساروا إلى الجيزة، فخرج عليهم الأتراك ومن معهم، واقتتلوا في الماء عدّة أيّام، ثم عبر الأتراك النيل إليهم مع ناصر الدولة بن حمدان، فاقتتلوا، فانهزم العبيد إلى الصعيد، وعاد ناصر الدولة والأتراك منصورين.

ثم إنّ العبيد اجتمعوا بالصعيد في خمسة عشر ألف فارس وراجل، فقلق الأتراك لذلك، فحضر مقدّموهم دار المستنصر لشكوى حالهم، فأمرتْ أمّ المستنصر مَنْ عندها من العبيد بالهجوم على المقدّمين والفتك بهم، ففعلوا ذلك، وسمع ناصر الدولة الخبر، فهرب إلى ظاهر البلد، واجتمع الأتراك إليه، (٨٣/١٠) ووقعت الحرب بينهم وبين العبيد، ومن تبعهم من مصر والقاهرة، وحلف الأمير ناصر الدولة بن حمدان أنّه لا ينزل عن فرسه ولا يذوق طعاماً، حتّى ينفصل الحال بينهم، فبقيت الحرب ثلاثة أيّام، ثم ظفر بهم ناصر الدولة، وأكثر القتل فيهم، ومن سلم هرب، وزالت دولتهم من القاهرة.

وكان بالإسكندرية جماعة كثيرة من العبيد، فلمّا كانت هذه الحادثة طلبوا الأمان، فأُمّنوا وأُخذت منهم الإسكندرية، وبقي العبيد الذين بالصعيد.

فلمّا خلت الدولة للأتراك طمعوا في المستنصر، وقلّ ناموسه عندهم، وطلبوا الأموال، فخلت الخزائن، فلم يبق فيها شيء البتّة، واختلّ ارتفاع الأعمال، وهم يطالبون، واعتذر المستنصر بعدم الأموال عنده، فطلب ناصر الدولة العروض، فأُخرجت إليهم، وقُوّمت بالثمن البخس، وصُرفت إلى الجند، قيل إنّ واجب الأتراك كان في الشهر عشرين ألف دينار، فصار الآن في الشهر أربعمائة ألف دينار.

وأمّا العبيد بالصعيد فإنّهم أفسدوا، وقطعوا الطريق، وأخافوا السبيل، فسار إليهم ناصر الدولة في عسكر كثير، فمضى العبيد من بين يدَيْه إلى الصعيد الأعلى، فأدركهم، فقاتلهم، وقاتلوه، فانهزم ناصر الدولة منهم وعاد إلى الجيزة بمصر، واجتمع إليه مَن سلم من أصحابه، وشغبوا على المستنصر، واتّهموه بتقوية العبيد والميل إليهم، ثم جهّزوا جيشاً وسيّروه إلى طائفة من العبيد بالصعيد، وقاتلوهم، فقُتلت تلك الطائفة من العبيد، فوهن الباقون، وزالت دولتهم. (٨٤/١٠)

وعظم أمر ناصر الدولة، وقويت شوكته، وتفرّد بالأمر دون الأتراك، فامتنعوا من ذلك، وعظم عليهم، وفسدت نيّاتهم له، فشكوا ذلك إلى الوزير، وقالوا: كلّما خرج من الخليفة مال أخذ أكثره له ولحاشيته، ولا يصل إلينا منه إلاّ القليل. فقال الوزير: إنّما

وصل إلى هذا وغيره بكم، فلو فارقتموه لم يتمّ له أمر. فاتّفق رأيهم على مفارقة ناصر الدولة، وإخراجه من مصر، فاجتمعوا، وشكوا إلى المستنصر، وسألوه أن يخرج عنهم ناصر الدولة، فأرسل إليه يأمره بالخروج، ويتهدّده إن لم يفعل، فخرج من القاهرة إلى الجيزة، ونُهبت داره ودور حواشيه وأصحابه.

فلمّا كان الليل دخل ناصر الدولة مستخفياً إلى القائد المعروف بتاج الملوك شاذي، فقبّل رجله، وقال: اصطنعني! فقال: أفعل؛ فحالفه على قتل مقدمّ من الأتراك اسمه الدكز، والوزير الخطير، وقال ناصر الدولة لشاذي: تركب في أصحابك، وتسير بين القصرَيْن، فإذا أمكنتك الفرصة فيهما فاقتلهما.

وعاد ناصر الدولة إلى موضعه إلى الجيزة. وفعل شاذي ما أمره، فركب الدكز إلى القصر، فرأى شاذي في جمعه، فأنكره، وأسرع فدخل القصر، ففاته، ثم أقبل الوزير في موكبه، فقتله شاذي، وأرسل إلى ناصر الدولة يأمره بالركوب، فركب إلى باب القاهرة، فقال الدكز للمستنصر : إن لم تركب، وإلاّ هلكتَ أنت ونحن. فركب، ولبس سلاحه، وتبعه خلق عظيم من العامّة والجند، واصطفّوا للقتال، فحمل الأتراك على ناصر الدولة فانهزم، وقُتل من أصحابه خلق كثير، ومضى منهزماً على وجهه لا يلوي على شيء، وتبعه فلُّ أصحابه، فوصل إلى بني سِنبِس، فأقام عندهم وصاهرهم فقوي بهم.

وتجهّزت العساكر إليه ليبعدوه، فساروا حتّى قربوا منه، وكانوا ثلاث (٨٥/١٠)طوائف، فأراد أحد المقدّمين أن يفوز بالظفر وحده دون أصحابه، فعبر فيمن معه إلى ناصر الدولة، وحمل عليه فقاتله، فظفر به ناصر الدولة، فأخذه أسيراً، وأكثر القتل في أصحابه، وعبر العسكر الثاني، ولم يشعروا بما جرى على أصحابهم، فحمل ناصر الدولة عليهم، ورفع رؤوس القتلى على الرماح، فوقع الرعب في قلوبهم، فانهزموا وقُتل أكثرهم، وقويت نفس ناصر الدولة.

وعبر العسكر الثالث، فهزمه وأكثر القتل فيهم، وأسر مقدّمهم، وعظم أمره، ونهب الريف فأقطعه، وقطع الميرة عن مصر برّاً وبحراً، فغلت الأسعار بها، وكثر الموت بالجوع، وامتدّت أيدي الجند بالقاهرة إلى النهب والقتل، وعظم الوباء حتى إن أهل البيت الواحد كانوا يموتون كلّهم في ليلة واحدة.

واشتدّ الغلاء، حتّى حكي أنّ امرأة أكلت رغيفاً بألف دينار، فاستُبعد ذلك، فقيل: إنّها باعت عروضاً قيمتها ألف دينار بثلاثمائة دينار، واشترت بها حنطة، وحملها الحمّال على ظهره، فنُهبت الحنطة في الطريق، فنُهبت هي مع الناس، فكان الذي حصل لها ما عملته رغيفاً واحداً.

وقطع ناصر الدولة الطريق برّاً وبحراً، فهلك العالم، ومات أكثر أصحاب المستنصر، وتفرّق كثير منهم، فراسل الأتراك من القاهرة ناصر الدولة في الصُلح، فاصطلحوا على أن يكون تاج الملوك شاذي نائباً عن ناصر الدولة بالقاهرة، يحمل المال إليه، ولا يبقى معه لأحدٍ حكم.

فلمّا دخل تاج الملوك إلى القاهرة تغيّر عن القاعدة، واستبدّ بالأموال دون ناصر الدولة، ولم يرسل إليه منها شيئاً، فسار ناصر الدولة إلى الجيزة، واستدعى إليه شاذي وغيره من مقدّمي الأتراك، فخرجوا إليه إلاّ أقلّهم، فقبض عليهم (٨٦/١٠) كلّهم، ونهب ناحيَتْي مصر، وأحرق كثيراً منهما، فسيّر إليه المستنصر عسكراً فكبسوه، فانهزم منهم ومضى هارباً، فجمع جمعاً، وعاد إليهم فقاتلهم فهزمهم، وقطع خطبة المستنصر بالإسكندريّة ودمياط، وكانا معه، وكذلك جميع الريف، وأرسل إلى الخليفة ببغداد يطلب خِلعاً ليخطب له بمصر.

واضمحل أمر المستنصر، وبطل ذكره، وتفرّق الناس من القاهرة، وأرسل ناصر الدولة إليه أيضاً يطلب المال، فرآه الرسول جالساً على حصير، وليس حوله غير ثلاثة خدم، ولم ير الرسول شيئاً من آثار المملكة، فلمّا أدّى الرسالة قال:أما يكفي ناصر الدولة أن أجلس في مثل هذا البيت على مثل هذا الحصير؟ فبكى الرسول، وعاد إلى ناصر الدولة فأخبره الخبر، فأجرى له كلّ يوم مائة دينار، وعاد إلى القاهرة، وحكم فيها، وأذلّ السلطان وأصحابه.

وكان الذي حمله على ذلك أنّه كان يُظهر التسنّن من بين أهله، ويعيب المستنصر، وكان المغاربة كذلك فأعانوه على ما أراد، وقبض على أمّ المستنصر، وصادرها بخمسين ألف دينار، وتفرّق عن المستنصر أولاده وكثير من أهله إلى الغرب، وغيره من البلاد، فمات كثير منهم جوعاً.

وانقضت سنة أربع وستين [وأربعمائة] وما قبلها بالفتن، وانحطّ السعر سنة خمس وستّين، ورخصت الأسعار، وبالغ ناصر الدولة في إهانة المستنصر، وفرّق عنه عامّة أصحابه، وكان يقول لأحدهم: إنّني أُريد أن أولّيك عمل كذا؛ فيسير إليه، فلا يمكّنه من العمل ويمنعه من العود، وكان غرضه بذلك (٨٧/١٠) أن يخطب للخليفة القائم بأمر الله، ولا يمكنه مع وجودهم، ففطن لفعله قائد كبير من الأتراك اسمه الدكز، وعلم أنّه متى ما تمّ ما أراد تمكّن منه ومن أصحابه، فأطْلع على ذلك غيره من قوّاد الأتراك، فاتّفقوا على قتل ناصر الدولة، وكان قد أمن لقوّته، وعدم عدوّه، فتواعدوا ليلة على ذلك، فلمّا كان سَحَر الليلة التي تواعدوا فيها على قتله جاؤوا إلى باب داره، وهي التي تُعرف بمنازل العزّ، وهي على النيل، فدخلوا، من غير استئذان، إلى صحن داره، فخرج إليهم ناصر الدولة في رداء لأنّه كان آمناً منهم، فلمّا دنا منهم ضربوه

بالسيوف، فسبّهم، وهرب منهم يريد الحرم، فلحقوه فضربوه حتّى قتلوه، وأخذوا رأسه.

ومضى رجل منهم، يُعرف بكوكب الدولة، إلى فخر العرب، أخي ناصر الدولة، وكان فخر العرب كثير الإحسان إليه، فقال للحاجب: استأذن لي على فخر العرب، وقُلْ صنيعتك فلان على الباب، فاستأذن له؛ فأذن له وقال: لعلّه قد دهمه أمر. فلمّا دخل عليه أسرع نحوه كأنّه يريد السلام عليه، وضربه بالسيف على كتفه، فسقط إلى الأرض، فقطع رأسه، وأخذ سيفه، وكان ذا قيمة وافرة، وأخذ جاريةً له أردفها خلفه، وتوجّه إلى القاهرة، وقُتل أخوهما تاج المعالي، وانقطع ذكر الحمدانيّة بمصر بالكلّيّة.

فلمّا كان سنة ستّ وستّين وأربعمائة وليَ الأمر بمصر بدر الجمالي، أمير الجيوش، وقتل الدكزّ والوزير ابن كدينة، وجماعة من المسلحية، وتمكّن من الدولة إلى أن مات، ووليَ بعده ابنه الأفضل، وسيرد ذكرهم إن شاء اللّه تعالى. (٨٨/١٠)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة أُقيمت الدعوة العبّاسيّة بالبيت المقدّس.

وفيها توفّي الأمير ليث بن منصور صدقة بن الحسين بالدامغان، والشريف أبو الغنائم عبد الصمد بن عليّ بن محمد بن المأمون ببغداد، وكان موته في شوّال، ومولده سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، وكان عالي الإسناد في الحديث.

وفيها، في ذي الحجّة، توفّي الشريف أبو الحسين محمّد بن عليّ بن عبد اللّه بن عبد الصمد بن المهتدي باللّه، المعروف بابن الغريق، وكان يسمّى راهب بني العباس، وهو آخر من حدّث عن الدارقطني وابن شاهين وغيرهما، وكان موته ببغداد.

وفيها قُتل ناصر الدولة أبو عليّ الحسين بن حمدان بمصر، قتله الدكز التركيُّ، وقد تقدم شرحه مستوفىً.

وفيها توفّي الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القُشيريُّ، النيسابوريُّ، مصنّف الرسالة وغيرها، وكان إماماً، فقيهاً، أصوليّاً، مفسّراً، كاتباً، ذا فضائل جمّة، وكان له فرس قد أُهدي إليه، فركبه نحو عشرين سنة، فلمّا مات الشيخ لم يأكل الفرس شيئاً فعاش أسبوعاً ومات.

وفيها أيضاً توفّي عليّ بن الحسن بن عليّ بن الفضل أبو منصور، الكاتب المعروف بابن صُرّبَعْر، وكان نظام الملك قال له أنت ابن صُرّدُرّ، لا صُرّ بعر، فبقي ذلك عليه، وهو من الشعراء المجيدين، وهجاه ابن البياضيّ فقال:

لئن نَبَزَ الناسُ قِدماً أباكَ ... فسمّوه من شعره صُرّبَعْرا

(٨٩/١٠)

فإنّك تَنظِمُ ما صَرّهُ ... عُقوقاً لهُ، وتُسمّيه شِعْرا

وهذا ظلمٌ من ابن البياضيّ، فإنّه كان شاعراً محسناً، ومن شعر ابن صرّ دُرّ قوله:

تزاوَرْن عن أذرِعاتٍ يمينا، ... نواشِزَ ليسَ يُطِقْنَ البُرينَا

كُلِّفْنَ بنَجدٍ، كأنّ الرِّياضَ ... أخذْنَ لنَجدٍ عليها يمينَا

وأقسَمنَ يَحمِلنَ إلاّ نحيلاً ... إليه، ويُبلِغنَ إلاّ حزينَا

فلمّا استمعْنَ زفيرَ المَشوقِ ... ونوحَ الحَمامِ، تركْنَ الحَنينَا

إذا جئتُما بانَةَ الواديينِ ... فأرخوا النُسوعَ، وحُلّوا الوَضينَا

فثَمّ علائقُ من أجلهنّ ... مُلاءُ الدُّجى والضُّحى قد طُوينا

وقد أنبأتهم مِياهُ الجُفونِ ... بأنّ بقلبِكَ داءً دَفينَا

(٩٠/١٠)

سنة ست وستين وأربعمائة

ذكر تقليد السلطان ملكشاه السلطنة والخلع عليه

في هذه السنة، في صفر، ورد كوهرائين إلى بغداد من عسكر السلطان، وجلس له الخليفة القائم بأمر اللّه، ووقف على رأسه وليُّ العهد المقتدي بأمر اللّه، وسلّم الخليفة إلى كوهرائين عهد السلطان ملكشاه بالسلطنة، وقرأ الوزير أوّله، وسلّم إليه أيضاً لواء عقده الخليفة بيده، ولم يُمنع يومئذ أحد من الدخول إلى دار الخلافة، فامتلأ صحن السلام بالعامّة، حتّى كان الإنسان تُهمّه نفسه ليتخلّص، وهنّأ الناس بعضهم بعضاً بالسلامة.

ذكر غرق بغداد

في هذه السنة غرق الجانب الشرقيّ وبعض الغربيّ من بغداد.

وسببه أنّ دجلة زادت زيادة عظيمة، وانفتح القورج عند المُسنّاة المُعزّيّة، وجاء في الليل سيل عظيم، وطفح الماء من البرّيّة مع ريح شديدة، وجاء الماء إلى المنازل من فوق،ونبع من البلاليع والآبار بالجانب الشرقيّ، وهلك خلق كثير تحت الهدم، وشُدّت الزواريق تحت التاج خوف الغرق.

وقام الخليفة يتضرّع ويصلّي، وعليه البُردة، وبيده القضيب، وأتى ايتكين السليمانيُّ من عُكبَرا، فقال للوزير: إنّ الملاّحين يؤذون الناس في (٩١/١٠) المعابر فأحضرهم، وتهدّدهم بالقتل، وأمر بأخذ ما جرت به العادة.

وجُمع الناس، وأقيمت الخطبة للجمعة في الطيّار مرتين، وغرق من الجانب الغربيّ مقبرة أحمد، ومشهد باب التبن، وتهدّم سوره، فأطلق شرف الدولة ألف دينار تُصرف في عمارته، ودخل الماء من شبابيك البيمارستان العضديّ.

ومن عجيب ما يحكى في هذا الغرق أنّ الناس، في العام الماضي، كانوا قد أنكروا كثرة المغنّيات والخمور، فقطع بعضهم أوتار عود مغنّية كانت عند جنديّ، فشار به الجندي الذي كانت عنده، فضربه، فاجتمعت العامّة ومعهم كثير من الأئمة منهم أبو إسحاق الشيرازيُّ، واستغاثوا بالخليفة، وطلبوا هدم المواخير والحانات وتبطيلها، فوعدهم أن يكاتب السلطانَ في ذلك، فسكنوا وتفرّقوا.

ولازم كثير من الصالحين الدعاء بكشفه، فاتّفق أن غرقت بغداد، ونال الخليفة والجند من ذلك أمر عظيم، وعمّت مصيبته الناس كافّة، فرأى الشريف أبو جعفر بن أبي موسى بعض الحجّاب الذين يقولون: نحن نكاتب السلطان، ونسعى في تفريق الناس، ويقول: اسكنوا إلى أن يرد الجواب. فقال له أبو جعفر: قد كتبنا، وكتبتم، فجاء جوابنا قبل جوابكم، يعني أنّهم شكوا ما حلّ بهم إلى اللّه تعالى، وقد أجابهم بالغرق، قبل ورود جواب السلطان. (٩٢/١٠)

ذكر ملك السلطان ملكشاه تِرمِذ والهدنة بينه وبين صاحب سَمَرْقَنْد

قد ذكرنا أنّ خاقان التكين صاحب سَمَرْقَنْد ملك تِرمِذ بعد قتل السلطان ألْب أرسلان، فلمّا استقامت الأمور للسلطان ملكشاه سار إلى تِرمِذ وحصرها، وطمّ العسكر خندقها، ورماها بالمجانيق، فخاف من بها، فطلبوا الأمان فأمّنهم، وخرجوا منها وسلّموها.

وكان بها أخٌ لخاقان التكين، فأكرمه السلطان، وخلع عليه، وأحسن إليه، وأطلقه، وسلّم قلعة تِرمِذ إلى الأمير ساوتكين، وأمره بعمارتها وتحصينها وعمارة سورها بالحجر المحكم، وحفْر خندقها وتعميقه، ففعل ذلك.

وسار السلطان ملكشاه يريد سَمَرْقَند، ففارقها صاحبها، وأنفذ يطلب المصالحة، ويضرع إلى نظام الملك في إجابته إلى ذلك، ويعتذر من تعرّضه إلى تِرمِذ، فأُجيب إلى ذلك، واصطلحوا، وعاد ملكشاه عنه إلى خُراسان، ثم منها إلى الرَّيّ، وأقطع بلخ وطُخارِستان لأخيه شهاب الدين تكش.

ذكر عدّة حوادث

فيها توفّي زعيم الدولة أبو الحسن بن عبد الرحيم بالنَّيْل فجأةً، وله سبعون سنة، وقد تقدّم من أخباره ما فيه كفاية.

وفيها توفّي إياز أخو السلطان ملكشاه، وكُفي شرّه كما كُفي شرّ عمّه (٩٣/١٠) قاورت بك.

وفيها، في ربيع الأوّل، توفّي القاضي أبو الحسين بن أبي جعفر السِّمنانيُّ حمو قاضي القضاة أبي عبد اللّه الدامغانيّ، ووليَ ابنه أبو الحسن ما كان إليه من القضاء بالعراق والموصل، وكان مولده سنة أربع وثمانين وثلاثمائة بسمنان، وكان هو وأبوه من المغالين في مذهب الأشعريّ، ولأبيه فيه تصانيف كثيرة، وهذا ممّا يُستطرف أن يكون حنفيّ أشعريّاً.

وفيها، في جمادى الآخرة، توفّي عبد العزيز أحمد بن محمّد بن عليّ أبو محمد الكتّانيُّ، الدمشقيُّ، الحافظ وكان مكثراً في الحديث، ثقة، وممّن سمع منه الخطيب أبو بكر البغداديُّ. (٩٤/١٠)

سنة سبع وستين وأربعمائة

ذكر وفاة القائم بأمر اللّه وذكر بعض سيرته

في هذه السنة، ليلة الخميس ثالث عشر شعبان، توفّي القائم بأمر اللّه أمير المؤمنين، رضي اللّه عنه، واسمه عبد اللّه أبو جعفر بن القادر باللّه أبي العبّاس أحمد ابن الأمير إسحاق بن المقتدر باللّه أبي الفضل جعفر بن المعتضد باللّه أبي العبّاس أحمد.

وكان سبب موته أنّه كان قد أصابه ثَرَى، فافتصد، ونام منفرداً، فانفجر فصاده، وخرج منه دم كثير ولم يشعر، فاستيقظ وقد ضعف وسقطت قوّته، فأيقن بالموت، فأحضر وليَّ العهد، ووصّاه بوصايا، وأحضر النقيبَيْن وقاضي القضاة وغيرهم مع الوزير ابن جُهير، وأشهدهم على نفسه أنّه جعل ابن ابنه أبا القاسم عبد اللّه بن محمّد بن القائم بأمر اللّه وليَّ عهده.

ولمّا توفّي غسله الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشميُّ، وصلّى عليه المقتدي بأمر اللّه.

وكان عمره ستاً وسبعين سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام، وخلافته أربعاً (٩٥/١٠) وأربعين سنة وثمانية أشهر وأياماً؛ وقيل كان مولده ثامن عشر ذي الحجّة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة وعلى هذا يكون عمره ستّاً وسبعين سنة وتسعة أشهر وخمسة وعشرين يوماً.

وأمّه أمّ ولد تُسمّى قَطر النّدى، أرمنيّة، وقيل رُوميّة، أدركت خلافته، وقيل اسمها عَلَم، وماتت في رجب سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة.

وكان القائم جميلاً، مليح الوجه، أبيض، مشرباً حُمرةً، حسن الجسم، زرعاً، ديّناً، زاهداً، عالماً، قويّ اليقين باللّه تعالى، كثير الصبر، وكان للقائم عناية بالأدب، ومعرفةٌ حسنة بالكتابة، ولم يكن يرتضي أكثر ما يكتب من الديوان، فكان يُصلح فيه أشياء، وكان مؤثراً للعدل والإنصاف يريد قضاء حوائج الناس، لا يرى المنع من شيء يُطْلب منه.

قال محمّد بن عليّ بن عامر الوكيل: دخلتُ يوماً إلى المخزن، فلم يبق أحدٌ إلاّ أعطاني قصّةً، فامتلأت أكمامي منها، فقلتُ في نفسي: لو كان الخليفة أخي لأعرض عن هذه كلّها، فألقيتها في بركة، والقائم ينظر ولا أشعر، فلمّا دخلتُ إليه أمر الخدم بإخراج الرقاع من البركة، فأُخرجت، ووقف عليها، ووقع فيها بأغراض أصحابها، ثم قال لي: يا عامّي! ما حملك على هذا؟ فقلتُ: خوف الضجر منها؛ فقال: لا تَعُدْ إلى مثلها! فإنّا ما أعطيناهم من أموالِنا شيئاً، إنّما نحن وكلاء.

ووزر للقائم أبو طالب محمّد بن أيّوب، وأبو الفتح بن دارست، ورئيس الرؤساء، وأبو نصر بن جُهير، وكان قاضيه ابن ماكولا، وأبو عبد اللّه الدامغانيُّ. (٩٦/١٠)

ذكر خلافة المقتدي بأمر اللّه

لمّا توفّي القائم بأمر اللّه بويع المقتدي بأمر اللّه عبد اللّه بن محمّد بن القائم بالخلافة، وحضر مؤيّد الملك بن نظام الملك، والوزير فخر الدولة بن جُهير وابنه عميد الدولة، والشيخ أبو إسحاق، وأبو نصر بن الصبّاغ، ونقيب النقباء طِراد، والنقيب الطاهر المعمّر بن محمّد، وقاضي القضاة أبو عبد اللّه الدامغانيُّ، وغيرهم من الأعيان والأماثل، فبايعوه.

وقيل: كان أوّل من بايعه الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشميُّ، فإنّه لمّا فرغ من غسل القائم بايعه، وأنشده:

إذا سيّدٌ منّا مضى قامَ سيدٌ

ثم أربّج عليه، فقال المقتدي:

قَؤولٌ بما قال الكِرامُ فَعولُ

فلمّا فرغوا من البَيعة صلّى بهم العصر.

ولم يكن للقائم من أعقابه ذَكر سواه، فإنّ الذخيرة أبا العبّاس محمّد بن القائم توفّي أيّام أبيه، ولم يكن له غيره، فأيقن الناس بانقراض نسله، وانتقال الخلافة من البيت القادريّ إلى غيره، ولم يشكّوا في اختلال الأحوال بعد القائم، لأنّ من عدا البيت القادريّ كانوا يخالطون العامّة في البلد، ويَجرون مَجرى السوقة، فلو اضطرّ الناس إلى خلافة أحدهم لم يكن له ذلك القبول، ولا تلك الهيبة، فقدّر اللّه تعالى أنّ الذخيرة أبا العبّاس كان له جارية اسمها أُرجُوان، وكان يُلمّ بها، فلمّا توفّي ورأت ما نال القائم من المصيبة واستعظمه من انقراض عقبه، ذكرتْ أنّها حامل، فتعلّقت النفوس بذلك، فولدت بعد (٩٧/١٠) موت سيّدها بستّة أشهر المقتدي، فاشتدّ فرح القائم، وعظم سروره، وبالغ [في] الإشفاق عليه والمحبّة له.

فلمّا كانت حادثة البساسيريّ كان للمقتدي قريب أربع سنين، فأخفاه أهله، وحمله أبو الغنائم بن المحلبان إلى حَرّان، كما ذكرنا، ولمّا عاد القائم إلى بغداد أُعيد المقتدي إليه. فلمّا بلغ الحلم جعله وليَّ عهد، ولمّا وليَ الخلافة أقرّ فخرَ الدولة بن جُهير على وزارته بوصيّةٍ من القائم بذلك، وسيّر عميد الدولة بن فخر الدولة بن جهير إلى السلطان ملكشاه لأخذ البيعة، وكان مسيره في شهر رمضان، وأرسل معه من أنواع الهدايا ما يجلّ عن الوصف.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في شوّال، وقعت نار ببغداد في دكّان خبّاز بنهر المعلّى، فاحترقت من السوق مائة وثمانون دكّاناً سوى الدور، ثمّ وقعت نار في المأمونيّة، ثم في الظفريّة، ثم في درب المطبخ، ثم في دار الخليفة، ثم في حمّام السمرقنديّ، ثم في باب الأزج ودَرب خُراسان، ثمّ في الجانب الغربيّ في نهر طابق، ونهر القلائين، والقطيعة، وباب البصرة، واحترق ما لا يُحْصى.

وفيها أرسل المستنصر باللّه العلويُّ، صاحب مصر، إلى صاحب مكّة ابن أبي (٩٨/١٠) هاشم، رسالة وهدية جليلة، وطلب منه أن يُعيد له الخطبة بمكّة، حرسها اللّه تعالى، وقال: إن أيمانك وعهودك كانت للقائم، وللسلطان ألْب أرسلان، وقد ماتا؛ فخطب له بمكّة وقطع خطبة المقتدي، وكانت مدّة الخطبة العبّاسيّة بمكّة أربع سنين وخمسة أشهر، ثم أُعيدت في ذي الحجة سنة ثمان وستّين [وأربعمائة].

وفيها كانت حرب شديدة بين بني رياح وزُغبة ببلاد إفريقية، فقويت بنو رياح على زُغبة فهزموهم وأخرجوهم عن البلاد.

وفيها جمع نظام الملك، والسلطان ملكشاه، جماعة من أعيان المنجّمين، وجعلوا النَّيروز أوّل نُقطة من الحمَل، وكان النَّيروز قبل ذلك عند حلول الشمس نصف الحوت وصار ما فعله السلطان مبدأ التقاويم.

وفيها أيضاً عُمل الرَّصد للسلطان ملكشاه، واجتمع جماعة من أعيان المنجّمين في عمله منهم: عمر بسن إبراهيم الخيّاميُّ، وأبو المظفّر الإسفزاريُّ، وميمون ابن النجيب الواسطيُّ، وغيرهم، وخرج عليه من الأموال شيء عظيم، وبقي الرصد دائراً إلى أن مات السلطان سنة خمس وثمانين وأربعمائة، فبطل بعد موته. (٩٩/١٠)

سنة ثمان وستين وأربعمائة

ذكر ملك أقسيس دمشق

قد ذكرنا سنة ثلاث وستّين [وأربعمائة] ملك أقسيس الرملة، والبيت المقدّس، وحصره مدينة دمشق، فلمّا عاد عنها جعل يقصد

أعمالها كلّ سنة عند إدراك الغلاّت فيأخذها، فيقوى هو وعسكره، ويضعف أهل دمشق وجندها، فلمّا كان رمضان سنة سبع وستّين سار إلى دمشق فحصرها، وأميرها المعلّى بن حَيْدرة من قِبَل الخليفة المستنصر، فلم يقدر عليها، فانصرف عنها في شوّال، فهرب أميرها المعلّى في ذي الحجّة.

وكان سبب هربه أنّه أساء السيرة مع الجند والرعيّة وظلمهم، فكثر الدعاء عليه، وثار به العسكر، وأعانهم العامّة، فهرب منها إلى بانياس، ثم منها إلى صور، ثم أُخذ إلى مصر فحُبس بها، فمات محبوساً.

فلمّا هرب من دمشق اجتمعت المَصامدة، وولّوا عليهم انتصار بن يحيى المصموديّ، المعروف برزين الدولة، وغلت الأسعار بها حتى أكل الناس بعضهم بعضاً.

ووقع الخلف بين المصامدة وأحداث البلد، وعرف أقسيس ذلك، فعاد إلى دمشق، فنزل عليها في شعبان من هذه السنة، فحصرها، فعُدمت الأقوات، (١٠/١٠٠) فبيعت الغرارة، إذا وُجدتْ، بأكثر من عشرين ديناراً، فسلّموها إليه بأمان، وعُوّض انتصارٌ عنها بقلعة بانياس، ومدينة يافا من الساحل، ودخلها هو وعسكره في ذي القعدة، وخطب بها يوم الجمعة لِخمسٍ بقين من ذي القعدة، للمقتدي بأمر اللّه الخليفة العبّاسيّ، وكان آخر ما خطب فيها للعلويّين المصريّين، وتغلّب على أكثر الشام، ومنع الأذان بحيّ على خير العمل، ففرح أهلها فرحاً عظيماً، وظلم أهلها، وأساء السيرة فيهم.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ملك نصر بن محمود بن مرداس مدينة مَنْبج وأخذها من الروم.

وفيها قدم سعد الدولة كوهرائين شِحنةً إلى بغداد من عسكر السلطان، ومعه العميد أبو نصر ناظراً في أعمال بغداد.

وفيها وثب الجند بالبطيحة على أميرها أبي نصر بن الهَيْشم، وخالفوا عليه، فهرب منهم، وخرج من ملكه والذخائر والأموال التي جمعها في المدّة الطويلة، ولم يصحبه من ذلك جميعه شيء، وصار نزيلاً على كوهرائين شحنة العراق.

وفيها انفجر البثوق بالفَلّوجة، وانقطع الماء من النِّيل وغيره من تلك الأعمال من بلاد دُبَيْس بن مَزْيد، فجلا أهل البلاد، ووقع الوباء فيهم، ولم (١٠/١٠١)يزل كذلك إلى أن سدّه عميد الدولة بن جُهير سنة اثنتين وسبعين[وأربعمائة].

وفي هذه السنة توفّي أبو عليّ الحسن بن القاسم بن محمّد المقري، المعروف بغلام الهرّاس الواسطيّ، بها، وكان محدّثاً علاّمةً في كثير من العلوم.

وفي شعبان توفّي القاضي أبو الحسين محمّد بن محمّد بن البيضاويّ الفقيه الشافعيُّ، وكان يدرّس الفقه بدرب السلوليّ بالكرخ، وهو زوج ابنة القاضي أبي الطيّب الطبريّ؛ وعبد الرحمن بن محمّد بن محمّد بن المظفر بن محمّد ابن داود أبو الحسن بن أبي طلحة الداوديُّ، راوي صحيح البخاريّ، وُلد سنة أربع وسبعين وثلاثمائة، وسمع الحديث وتفقّه للشافعيّ على أبي بكر القفّال، وأبي حامد الأسفرايينّي، وصحب أبا عليّ الدقّاق، وأبا عبد الرحمن السُّلميّ، وكان عابداً خيّراً، قصده نظام الملك، فجلس بين يدَيْه، فوعظه، وكان في قوله: إنّ اللّه تعالى سلّطك على عباده، فانظر كيف تجيبه إذا سألك عنهم؛ فبكى، وكان موته بِبُوشَنْج.

وفيها توفّي أبو الحسن عليُّ بن أحمد بن محمّد بن متويه الواحديُّ المفسّر مصنّف الوسيط، والوجيز، في التفسير، وهو نَيسابوريٌّ، إمام مشهور؛ وأبو الفتح منصور بن أحمد بن دارست، وزير القائم، توفيّ بالأهواز؛ ومحمّد بن القاسم بن حبيب بن عبدوس أبو بكر الصَّفّار النَّيسابوريُّ، الفقيه الشافعيُّ، تفقّه على أبي محمّد الجوينيّ، وسمع من الحاكم أبي عبد اللّه وأبي عبد الرحمن السُّلميّ وغيرهما.

وفيها توفّي مسعود بن المحسن بن الحسن بن عبد الرزّاق أبو جعفر البياضيُّ (١٠/١٠٢) الشاعر، له شعر مطبوع، فمنه قوله:

يا من لبستُ لِبُعدِه ثوبَ الضّنى، حتّى خَفِيتُ به عن العُوّادِ
وأنِستُ بالسَّهَر الطويل، فأُنسِيَتْ أجفانُ عيني كيفَ كان رُقادِي
إن كان يوسفُ بالجَمالِ مُقطِّعَ الـ أيدي، فأنتَ مُفتِّتُ الأكبادِ

(١٠/١٠٣)

سنة تسع وستين وأربعمائة

ذكر حصر أقسيس مصر وعوده عنها

في هذه السنة سار أقسيس من دمشق إلى مصر، وحصرها، وضيّق على أهلها، ولم يبق غير أن يملكها، فاجتمع أهلها مع ابن الجوهريّ الواعظ في الجامع، وبكوا وتضرّعوا ودعَوا، فقبل اللّه دعاءهم، فانهزم أقسيس من غير قتال، وعاد على أقبح صورة بغير سبب، فوصل إلى دمشق وقد تفرّق أصحابه، فرأى أهلها قد صانوا مخلّفيه وأمواله، فشكرهم، ورفع عنهم الخراج تلك السنة.

وأتى البيتَ المقدّس، فرأى أهله قد قبّحوا على أصحابه ومخلّفيه، وحصروهم في محراب داود، عليه السلام، فلمّا قارب البلد تحصّن أهله منه وسبّوه، فقاتلهم، ففتح البلد عنوةً ونهبه، وقتل من أهله فأكثر حتّى قتل مَن التجأ إلى المسجد الأقصى، وكفّ عمّن كان عند الصخرة وحدها، هكذا يذكر الشاميّون هذا

الاسم أقسيس، والصحيح أنّه أتسِزُ، وهو اسم تركيّ، وقد ذكر بعض مؤرّخي الشام أنّ أتسِز لمّا وصل إلى مصر جمع أمير الجيوش بدر العساكر، واستمدّ العرب وغيرهم من أهل البلاد، فاجتمع (١٠/١٠٤)معه خلق كثير، واقتتلوا، فانهزم أتسِز، وقُتل أكثر أصحابه، وقُتل أخ له، وقُطعت يد أخ آخر، وعاد منهزماً إلى الشام في نفر قليل من عسكره، فوصل إلى الرَّملة، ثم سار منها إلى دمشق.

وحكى لي من أثق به عن جماعة من فضلاء مصر: أنّ أتسِز لمّا وصل إلى مصر ونزل بظاهر القاهرة أساء أصحابه السيرة في الناس، وظلموهم، وأخذوا أموالهم، وفعلوا الأفاعيل القبيحة، فأرسل رؤساء القُرى ومقدّموها إلى الخليفة المستنصر باللّه العلويّ يشكون إليه ما نزل بهم، فأعاد الجواب بأنّه عاجز عن دفع هذا العدوّ، فقالوا له: نحن نرسل إليك مَنْ عندنا من الرجال المقاتلة يكونون معك، ومن ليس له سلاح تعطيه من عندك سلاحاً، وعسكر هذا العدوّ قد أمنوا، وتفرّقوا في البلاد، فنثور بهم في ليلة واحدة ونقتلهم، وتخرج أنت إليه فيمن اجتمع عندك من الرجال، فلا يكون له بك قوّة. فأجابهم إلى ذلك.

وأرسلوا إليه الرجال، وثاروا كلّهم في ليلة واحدة بمن عندهم، فأوقعوا بهم، وقتلوهم عن آخرهم، ولم يسلم منهم إلاّ من كان عنده في عسكره، وخرج إليه العسكر الذي عند المستنصر بالقاهرة، فلم يقدر على الثبات لهم، فولّى منهزماً، وعاد إلى الشام، وكُفي أهل مصر شرّه وظلمه.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ورد بغداد أبو نصر ابن الأستاذ أبي القاسم القُشيري حاجّاً، وجلس في المدرسة النظاميّة يعظ الناس، وفي رباط شيخ الشيوخ، وجرى له مع الحنابلة فتن لأنّه تكلّم على مذهب الأشعريّ، ونصره، وكثر أتباعه والمتعصّبون له، وقصد خصومه من الحنابلة، ومن تبعهم، سوق المدرسة النظاميّة وقتلوا جماعة. (١٠/١٠٥)

وكان من المتعصّبين للقشيري الشيخ أبو إسحاق، وشيخ الشيوخ، وغيرهما من الأعيان، وجرت بين الطائفتين أمور عظيمة.

وفيها تزوّج الأمير علي بن أبي منصور بن فرامرز بن علاء الدولة أبي جعفر بن كاكويْه أرسلان خاتون بنت داود عمّة السلطان ملكشاه التي كانت زوجة القائم بأمر اللّه.

وفيها كان بالجزيرة، والعراق، والشام وباء عظيم، وموت كثير، حتّى بقي كثير [من] الغلاّت ليس لها من يعملها لكثرة الموت في الناس.

وفيها مات محمود بن مرداس، صاحب حلب، وملك بعده ابنه نصر، فمدحه ابن حيّوس بقصيدة يقول فيها:

ثمانيةٌ لم تفترقْ مُذْ جَمَعْتَها ... فلا افترقتْ ما ذَبَّ عن ناظرٍ شَعْرُ
ضميرُك والتّقوى وَجُودكَ والغِنى ... ولَفظُكَ والمَعنى وعَزمُكَ والنّصرُ
وكان لمحمودِ بن نصرٍ سَجيّةٌ ... وغالبُ ظَنّي أنْ سيُخلِفُها نَصْرُ

فقال:واللّه لو قال سيضعفها نصر لأضعفتها له. وأمر له بما كان يعطيه أبوه، وهو ألف دينار، في طبق فضّة.

وكان على بابه جماعة من الشعراء، فقال بعضهم:

على بابِكَ المعمورِ مِنّا عِصابةٌ ... مَفَاليسُ فانظُر في أُمورِ المفَاليسِ
وقد قَنِعَتْ منكَ العِصابةُ كلّها ... بعُشرِ الذي أعطيتَهُ لابنِ حَيُّوسِ
وما بيننا هذا التقاربُ كلّه ... ولكن سعيدٌ لا يُقاسُ بمَنحوسِ

(١٠/١٠٦) فقال لو قال: بمثل الذي أعطيته، لأعطيتُهم ذلك؛ وأمر لهم بمثل نصفه.

وفيها توفّي اسبهدوست بن محمّد بن الحسن أبو منصور الديلميُّ الشاعر، وكان قد لقي ابن الحجّاج، وابن نُباتة، وغيرهما، وكان يتشيّع، وتركه، وقال في ذلك:

وإذا سُئِلتُ عن اعتقادي قلتُ:ما ... كانت عليه مذاهبُ الأبرارِ
وأقولُ: خيرُ الناس بعدَ محمّدٍ ... صدّيقُهُ وأنيسُهُ في الغارِ

وفيها توفّي رئيس العِراقَين أبو أحمد النهاونديُّ الذي كان عميد بغداد، والشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشميُّ الحنبليُّ؛ ورزق اللّه بن محمّد بن أحمد ابن علي أبو سعد الأنباريُّ الخطيب، الفقيه، الحنفيّ، سمع الحديث الكثير، وكان ثقةً حافظاً؛ وطاهر بن أحمد بابشاذ النحوي، المصريُّ، توفّي في رجب، سقط من سطح جامع عمرو بن العاص بمصر فمات لوقته؛ وعبد اللّه بن محمّد بن عبد اللّه بن عمر بن أحمد المعروف بابن هزارمرد، الصَّريفينيّ، راوية أحاديث عليّ بن الجعد، وهو آخر من رواها، وكان ثقةً، صالحاً، ومن طريقه سمعناها. (١٠/١٠٧)

سنة سبعين وأربعمائة

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة ورد مؤيّد الملك بن نظام الملك إلى بغداد من العسكر.

وفيها اصطلح تميم بن المعزّ بن باديس، صاحب إفريقية، مع الناصر بن علناس، وهو من بني حمّاد، عمّ جدّه، وزوّجه تميم ابنته بلارة، وسيّرها إليه من المهديّة في عسكر، وأصحبها من الحُلي والجهاز ما لا يُحدّ، وحمل الناصر ثلاثين ألف دينار، فأخذ منها تميم ديناراً واحداً وردّ الباقي.

وفيها استعمل تميم ابنه مُقلّداً على مدينة طرابلس الغرب.

وكان ببغداد، في هذه السنة، فتنة بين أهل سوق المدرسة وسوق الثلاثاء بسبب الاعتقاد، فنهب بعضهم بعضاً، وكان مؤيّد الملك بن نظام الملك ببغداد بالدار التي عند المدرسة، فأرسل إلى العميد والشحنة فحضرا ومعهما الجند. فضربوا الناس، فقُتل بينهم جماعة وانفصلوا.

وفي هذه السنة، في ربيع الأوّل، توفّي القاضي أبو عبد اللّه محمّد بن محمّد ابن محمّد بن البيضاويّ، الفقيه الشافعيّ، وكان القاضي أبو الطيّب الطبريّ جدّه لأمّه.

وفيها توفّي محمد بن محمّد بن محمّد بن أحمد بن عبد اللّه بن النقور أبو (١٠٨/١٠)الحسين البزّاز في رجب، وكان مكثراً من الحديث، ثقةً في الرواية، وأحمد ابن عبد الملك بن عليّ أبو صالح المؤذّن النَّيسابوريُّ، كان يعظ ويؤذّن، وكان كثير الرواية، حافظاً، ومولده سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، وعبد الرحمن بن محمّد بن إسحاق بن محمّد بن يحيى بن مندة الأصبهانيُّ أبو القاسم بن أبي عبد اللّه الحافظ، له تصانيف كثيرة، منها: تاريخ أصبهان، وله طائفة يتمون إليه في الاعتقاد من أهل أصبهان، يقال لهم العبدرحمانيّة.

وفي شوّال منها توفّيت ابنة نظام الملك زوجة عميد الدولة بن جُهير، نُفساء بولد مات من يومه، ودُفنا بدار الخلافة، ولم تجر بذلك عادة لأحد، فُعِل ذلك إكراماً لأبيها، وجلس الوزير فخر الدولة بن جُهير، وابنه عميد الدولة زوجها، للعزاء في دار بباب العامّة ثلاثة أيام. (١٠٩/١٠)

سنة إحدى وسبعين وأربعمائة

ذكر عزل ابن جُهير من وزارة الخليفة

في هذه السنة عُزل فخر الدولة أبو نصر بن جُهير من وزارة الخليفة المقتدي بأمر اللّه، ووزر بعده أبو شجاع محمّد بن الحسين.

وكان السبب في ذلك أنّ أبا نصر بن القُشَيريّ ورد إلى بغداد، على ما تقدّم ذكره، وجرى له الفتن مع الحنابلة، لمّا ذكر مذهب الأشعريّة، ونصره، وعاب من سواهم، وفعلت الحنابلة ومن معهم ما ذكرناه، نسب أصحاب نظام الملك ما جرى إلى الوزير فخر الدولة، وإلى الخدم، وكتب أبو الحسن محمّد بن عليّ بن أبي الصقر الواسطيُّ الفقيه الشافعيُّ إلى نظام الملك:

يا نظامَ المُلك قد حلَّ ... ببغداد النِّظامُ
وابنكَ القاطنُ فيها ... مستهانٌ مستضامُ
وبها أودى له قتـ ... ـلى غلامٌ، وغلامُ
والذي منهم تبقّى ... سالماً فيه سِهامُ
(١١٠/١٠)
يا قِوامَ الدين لم يبـ ... ـقَ ببغداد مَقامُ
عظُم الخطبُ، وللحر ... بِ اتّصالٌ، ودَوامُ
فمتى لم تحسِم الدا ... ءَ أياديك الحسامُ
ويكفّ القوم في بغـ ... ـداذ قتلٌ، وانتقامُ
فعلى مدرسة فيـ ... ـها، ومن فيها السلامُ
واعتِصامٌ بحَريمٍ لـ ... ـكَ من بَعدُ حَرامُ

فلمّا سمع نظام الملك ما جرى من الفتن، وقصْد مدرسته، والقتْل بجوارها، مع أنّ ابنه مؤيد الملك فيها، عظُم عليه، فأعاد كوهرائين إلى شحنكيّة العراق، وحمّله رسالةً إلي الخليفة المقتدي بأمر اللّه تتضمّن الشكوي من بني جُهير، وسأل عزْل فخر الدولة من الوزارة، وأمر كوهرائين بأخذ أصحاب بني جُهير، وإيصال المكروه إليهم وإلى حواشيهم.

فسمع بنو جُهير الخبر، فسار عميد الدولة إلى المعسكر يريد نظام الملك ليستعطفه، وتجنّب الطريق، وسلك الجبال خوفاً أن يلقاه كوهرائين وينالَه فيها أذىً، فلمّا وصل كوهرائين إلى بغداد اجتمع بالخليفة وأبلغه رسالة نظام الملك، فأمر فخر الدولة بلزوم منزله.

ووصل عميد الدولة إلى المعسكر السلطانّي، ولم يزل يستصلح نظام الملك حتّى عاد إلى ما ألفه منه، وزوّجه بابنة بنتٍ له، وعاد إلى بغداد في العشرين من جمادى الأولى، فلم يردّ الخليفة أباه إلى وزارته، وأمرهما بملازمة منازلهما، واستوزر أبا شجاع محمّد بن الحسين. (١١١/١٠)

ثم إنّ نظام الملك راسل الخليفة في إعادة بني جُهير إلى الوزارة، وشفع في ذلك، فأُعيد عميد الدولة إلى الوزارة، وأُذن لأبيه فخر الدولة في فتح بابه، وكان ذلك في صفر سنة اثنتين وسبعين [وأربعمائة].

ذكر استيلاء تُتُش على دمشق

في هذه السنة ملك تاج الدولة تُتُش بن ألب أرسلان دمشق.

وسبب ذلك أنّ أخاه السلطان ملكشاه أقطعه الشام، وما يفتحه في تلك النواحي، سنة سبعين وأربعمائة، فأتى حلبَ وحصرها، ولحق أهلَها مجاعة شديدة، وكان معه جمع كثير من التركمان، فأنفذ إليه أقسيس، صاحب دمشق، يستنجده، ويعرّفه أنّ عساكر مصر قد حصرته بدمشق.

وكان أمير الجيوش بدر قد سيّر عسكراً من مصر، ومقدّمهم قائد يُعرف بنصر الدولة، فحصر دمشق، فأرسل أقسيس إلى تاج الدولة تُتُش يستنصره، فسار إلى نصرة أقسيس، فلمّا سمع

المصريّون بقربه أجفلوا من بين يدَيْه شبه المنهزمين، وخرج أقسيس إليه يلتقيه عند سور البلد، فاغتاظ منه تُتُش حيث لم يبعد في تلقّيه، وعاتبه على ذلك، فاعتذر بأمور لم يقبلها تُتُش، فقبض عليه في الحال، وقتله من ساعته، وملك البلد، وأحسن السيرة في أهله، وعدل فيهم.

قد ذكر ابن الهمذانيّ وغيره من العراقيّين أنّ مُلك تُتُش دمشق كان هذه السنة، وذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر الدمشقيُّ في كتاب تاريخ دمشق أن ملكه إيّاها كان سنة اثنتين وسبعين [وأربعمائة] (١١٢/١٠)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وُلد الملك بركيارق ابن السلطان ملكشاه.

وفيها، في المحرّم، وصل سعد الدولة كوهرائين إلى بغداد، وضُرب الطبل على باب داره، أوقاتَ الصّلوات، وكان قد طلب ذلك من قبلُ، فلم يُجَبْ إليه لأنّه لم تجر به عادة.

وفيها توفّي سيف الدولة أبو النجم بدر بن ورّام الكرديُّ الجاوانيُّ، في شهر ربيع الأول، ودُفن بطَسْفُونَج.

وفي رجب توفّي أبو عليّ بن البنّا المقري الحنبليُّ، وله مصنّفات كثيرة، وسُليم الجُوريُّ بناحية جُور من دُجَيْل، وكان زاهداً، يعمل، ويأكل من كسبه، ولم يكلّف أحداً حاجةً، وأقام بطَنْزَة من ديار بكر، وهي كثيرة الفواكه، فلم يأكل بها فاكهة البتّة. (١١٣/١٠)

سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة

ذكر فتوح إبراهيم صاحب غزنة في بلاد الهند

في هذه السنة غزا الملك إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين بلاد الهند، فحصر قلعة أجود، وهي على مائة وعشرين فرسخاً من لَهَاوُور، وهي قلعة حصينة، في غاية الحصانة، كبيرة، تحوي عشرة آلاف رجل من المقاتلة، فقاتلوه، وصبروا تحت الحصر، وزحف إليهم غير مرّة، فرأوا من شدّة حربه ما ملأ قلوبهم خوفاً ورعباً، فسلّموا القلعة إليه في الحادي والعشرين من صفر هذه السنة.

وكان في نواحي الهند قلعة يقال لها قلعة روبال، على رأس جبل شاهق، وتحتها غياض أشِبَة، وخلفها البحر، وليس عليها قتال إلاّ من مكان ضيّق، وهو مملوء بالفِيَلة المقاتلة، وبها من رجال الحرب ألوف كثيرة، فتابع عليهم الوقائع، وألحّ عليهم بالقتال بجميع أنواع الحرب، وملك القلعة، واستنزلهم منها، وفي موضع يقال له دره نوره أقوام من أولاد الخراسانيّين الذين جعل أجدادهم فيها أفراسياب التركيُّ من قديم الزمان، ولم يتعرّض إليهم أحد من (١١٤/١٠) الملوك، فسار إليهم إبراهيم، ودعاهم إلى الاسلام أوّلاً، فامتنعوا من إجابته، وقاتلوه، فظفر بهم، وأكثر القتل فيهم، وتفرّق من سلم في البلاد، وسبى واسترقّ من النسوان والصبيان مائة ألف، وفي هذه القلعة حوض للماء يكون قطره نحو نصف فرسخ لا يُدرَك قعره، يشرب منه أهل القلعة وجميع ما عندهم من دابّة، ولا يظهر فيه نقص.

وفي بلاد الهند موضع يقال له وره، وهو برّ بين خليجَيْن، فقصده الملك إبراهيم، فوصل إليه في جمادى الأولى، وفي طريقه عقبات كثيرة، وفيها أشجار ملتفّة، فأقام هناك ثلاثة أشهر ولقي الناس من الشتاء شدّة، ولم يفارق الغزوة حتّى أنزل اللّه نصره على أوليائه، وذلّه على أعدائه، وعاد إلى غزنة سالماً مظفّراً.

هذه الغزوات لم أعرف تاريخها، وأمّا الأولى فكانت هذه السنة، فلهذا أوردتُها متتابعة في هذه السنة.

ذكر ملك شرف الدولة مُسلم مدينة حلب

في هذه السنة ملك شرف الدولة مُسلم بن قُريش العُقيليُّ، صاحب الموصل، مدينة حلب.

وسبب ذلك أنّ تاج الدولة تُتُش بن ألْب أرسلان حصرها مرّة بعد أخرى، فاشتدّ الحصار بأهلها، وكان شرف الدولة يواصلهم بالغلاّت وغيرها. (١١٥/١٠)

ثم إنّ تُتُش حصرها هذه السنة، وأقام عليها أياماً، ورحل عنها وملك بُزاعَةَ والبِيرَة، وأحرق رَبَضَ عَزَاز، وعاد إلى دمشق.

فلمّا رحل عنها تاج الدولة استدعى أهلها شرف الدولة ليسلّموها إليه، فلمّا قاربها امتنعوا من ذلك، وكان مقدّمهم يُعرف بابن الحُتَيْتيّ العبّاسيّ، فاتّفق أنّ ولده خرج يتصيّد بضيعة له، فأسره أحد التركمان، وهو صاحب حصن بنواحي حلب، وأرسله إلى شرف الدولة، فقرّر معه أن يسلّم البلد إليه إذا أطلقه، فأجاب إلى ذلك، فأطلقه، فعاد إلى حلب، واجتمع بأبيه، وعرّفه ما استقرّ، فأذعن إلى تسليم البلد، ونادى بشعار شرف الدولة، وسلّم البلد إليه، فدخله سنة ثلاث وسبعين [وأربعمائة]، وحصر القلعة، واستنزل منها سابقاً ووثّاباً ابنَيْ محمود بن مرداس، فلمّا ملك البلد أرسل ولدَهُ، وهو ابن عمّه السلطان، إلى السلطان يخبره بملك البلد، وأنفذ معه شهادةً فيها خطوط المعدّلين بحلب بضمانها، وسأل أن يقرّر عليه الضمان، فأجابه السلطان إلى ما طلب، وأقطع ابن عمّته مدينة بالس.

ذكر مسير ملكشاه إلى كرمان

في أوّل هذه السنة سار السلطان ملكشاه إلى بلاد كرمان، فلمّا سمع صاحبها سلطانشاه بن قاورت بك، وهو ابن عمّ السلطان،

بوصوله إليها خرج إلى طريقه ولقيه وحمل له الهدايا الكثيرة، وخدمه، وبالغ في الخدمة، فاقرّه السلطان على البلاد، وأحسن إليه، وعاد عنه في المحرّم سنة ثلاث وسبعين [وأربعمائة] إلى أصبهان. (١٠/١١٦)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة وُلد للخليفة المقتدي بأمر اللّه أمير المؤمنين ولد سمّاه موسى، وكناه أبا جعفر، وزُيّنت بغداد سبعة أيّام.

وفيها وصل السلطان ملكشاه إلى خُوزستان متصيّداً، فوصل معه خمارتكين وكوهرائين [وكانا يسعيان] في قتل ابن علّان اليهوديّ، ضامن البصرة، وكان ملتجئاً إلى نظام الملك، وكان بين نظام الملك وبين خمارتكين الشرابيّ وكوهرائين عداوة، فسعيا باليهوديّ لذلك، فأمر السلطان بتغريقه فغُرّق، وانقطع نظام الملك عن الركوب ثلاثة أيّام، وأغلق بابه، ثم أشير عليه بالركوب فركب، وعمل للسلطان دعوة عظيمة قدّم له فيها أشياء كثيرة، وعاتبه على فعله، فاعتذر إليه.

وكان أمر اليهوديّ قد عظم إلى حدّ أنّ زوجته توفّيت، فمشى خلف جنازتها كلّ من في البصرة، إلاّ القاضي، وكان له نعمة عظيمة، وأموال كثيرة، فأخذ السلطان منه مائة ألف دينار، وضمن خمارتكين البصرة كلّ سنة بمائة ألف دينار ومائة فرس.

وفيها زادت [مياه] الفرات تسع أذرع، فخربت بعض دواليب هَيْت، وخربت فوهة نهر عيسى، وزادت تامرّا نيّفاً وثلاثين ذراعاً، وعلا على قنطرتَيْ طَرَاستان وخَانِقين الكسرويّتَيْن فقطعهما.

وفيها، في ذي الحجّة، توفّي نصر بن مروان، صاحب ديار بكر، وملك (١٠/١١٧) بعده ابنه منصور، ودبّر دولته ابن الأنباريّ.

وفيها توفّي أبو منصور محمّد بن عبد العزيز العُكبَريُّ، ومولده سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، وهو من المحدّثين المعروفين، وكان صدوقاً؛ ومحمّد ابن هبة اللّه بن الحسن بن منصور أبو بكر بن أبي القاسم الطَّبريُّ اللالكائيُّ ووُلد سنة تسع وأربعمائة، وحدّث عن هلال الحفّار وغيره، وتوفّي في جمادى الأولى.

وفيها توفّي أبو الفتيان محمّد بن سلطان بن حيّوس الشاعر المشهور، وحدّث عن جدّه، لأمّه القاضي أبي نصر محمّد بن هارون بن الجنديّ. (١٠/١١٨)

سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة

ذكر استيلاء تكش على بعض خراسان وأخذها منه

في هذه السنة، في شعبان، سار السلطان ملكشاه إلى الريّ، وعرض العسكر، فأسقط منهم سبعة آلاف رجل لم يرض حالهم، فمضوا إلى أخيه تكش، وهو بُوشَنج، فقوي بهم، وأظهر العصيان على أخيه ملكشاه، واستولى على مرو الروذ، ومرو الشاهجان، وتِرمِذ، وغيرها، وسار إلى نَيسابور طامعاً في ملك خراسان.

وقيل إنّ نظام الملك قال للسلطان لمّا أمر بإسقاطهم: إنّ هؤلاء ليس فيهم كاتب، ولا تاجر، ولا خيّاط، ولا مَنْ له صنعة غير الجنديّة، فإذا أُسقطوا لا نأمن أن يقيموا منهم رجلاً ويقولوا هذا السلطان، فيكون لنا منهم شغل، ويخرج عن أيدينا أضعاف مالهم من الجاري إلى أن نظفر بهم. فلم يقبل السلطان قوله، فلمّا مضوا إلى أخيه وأظهر العصيان ندم على مخالفة وزيره حيث لم ينفع الندم.

واتّصل خبره بالسلطان ملكشاه، فسار مجدّاً إلى خُراسان، فوصل إلى (١٠/١١٩) نَيسابور قبل أن يستولي تكش عليها، فلمّا سمع تكش بقربه منها سار عنها، وتحصّن بِترمِذ، وقصده السلطان، فحصره بها، وكان تكش قد أسر جماعة من أصحاب السلطان، فأطلقهم، واستقرّ الصلح بينهما، ونزل تكش إلى أخيه السلطان ملكشاه، ونزل عن تِرمِذ.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة تسلّم مؤيّد الملك بن نظام الملك تَكريت من صاحبها المهرباط.

وفيها توفّي أبو عليّ بن شِبل الشاعر المشهور، ومن شعره في الزهد:

أهُمُّ بتَرْكِ الذّنبِ ثمّ يردُّني طُموحُ شبابي بالغَرامِ مُوكَّلُ
فمن لي إذا أخّرتُ ذا اليوم تَوبةً بأنّ المَنايا لي إلى الشّيبِ تُمهِلُ
أأعجَزُ ضعفاً عن أدا حقّ خالقي، وأحمِلُ وِزراً فوقَ ما يُتَحمّلُ

وفيها أيضاً توفّي العميد أبو منصور بالبصرة.

وفيها توفّي عبد السلام بن أحمد بن محمّد بن جعفر أبو الفتح الصوفيُّ من أهل فارس، سافر الكثير، وسمع الحديث بالعراق، والشام، ومصر، وأصبهان وغيرها، وكانت وفاته بفارس؛ ويوسف بن الحسن بن محمّد بن الحسن أبو الهيثم التفكريُّ، الزنجانيُّ، وُلد سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، وسمع من أبي نعيم الحافظ وغيره، وتفقّه على أبي إسحاق الشيرازيّ وأدرك أبا الطيّب الطبريّ، وكان من العلماء العاملين، المشتغلين بالعبادة. (١٠/١٢٠)

سنة أربع وسبعين وأربعمائة

ذكر خطبة الخليفة ابنة السلطان ملكشاه

في هذه السنة أرسل الخليفة الوزير فخر الدولة أبا نصر بن جُهير إلى السلطان يخطب ابنته لنفسه، فسار فخر الدولة إلى

أصبهان، إلى السلطان يخطب ابنته، فأمر نظام الملك أن يمضي معه إلى خاتون زوجة السلطان في المعنى، فمضيا إليها فخاطباها، فقالت إن ملك غَزنة وملوك الخانيّة بما وراء النهر طلبوها، وخطبوها لأولادهم، وبذلوا أربع مائة ألف دينار، فإن حمل الخليفة هذا المال فهو أحقّ منهم، فعرّفتها أرسلان خاتون التي كانت زوجة القائم بأمر اللّه ما يحصل لها من الشرف والفخر بالاتّصال بالخليفة، وأنّ هؤلاء كلّهم عبيده وخدمه، ومثل الخليفة لا يُطلب منه المال، فأجابت إلى ذلك، وشرطت أن يكون الحمل المعجّل خمسين ألف دينار، وأنّه لا يبقي له سُرّيّة ولا زوجة غيرها، ولا يكون مبيته إلاّ عندها، فأجيبت إلى ذلك، فأعطى السلطان يده، وعاد فخر الدولة إلى بغداد. (١٢١/١٠)

ذكر وفاة نور الدولة بن مَزْيَد وإمارة ولده منصور

في هذه السنة، في شوّال، توفّي نور الدولة أبو الأغرّ دُبَيْس بن عليّ ابن مَزيد الأسديُّ بمطيراباذ، وكان عمره ثمانين سنة، وإمارته سبعاً وخمسين سنة، وما زال مُمدّحاً في كلّ زمان مذكوراً بالتفضّل والإحسان، ورثاه الشعراء فأكثروا، ووليَ بعده ما كان إليه ابنه أبو كامل منصور، ولقبه بهاء الدولة، فأحسن السيرة، واعتمد الجميل، وسار إلى السلطان ملكشاه في ذي القعدة، واستقرّ له الأمر، وعاد في صفر سنة خمس وسبعين [وأربعمائة]، وخلع الخليفة أيضاً عليه.

ذكر محاصرة تميم بن المعزّ مدينة قابس

في هذه السنة حصر الأمير تميم بن المعزّ بن باديس، صاحب إفريقية، مدينة قابس حصاراً شديداً، وضيّق على أهلها، وعاث عساكره في بساتينها المعروفة بالغابة، فأفسدوها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة سار تُتُش، بعد عود شرف الدولة عن دمشق، وقصد الساحل الشاميّ، فافتتح أَنْطَرطُوسَ، وبعضاً من الحصون، وعاد إلى دمشق. (١٢٢/١٠)

وفيها ملك شرف الدولة، صاحب الموصل، مدينة حَرّان، وأخذها من بني وثّاب النُميريّين، وصالحه صاحب الرُها، ونقش السكّة باسمه.

وفيها سد ظفَر القائميُّ بثق نهر عيسى، وكان خراباً منذ ثلاث وعشرين سنة، وسُدّ مراراً، وتخرّب إلى أن سدّه ظفر.

فيها أرسل السلطان إلى بغداد ليُخْرِج الوزير أبو شجاع الذي وزَر للخليفة بعد بني جُهير، فأرسله الخليفة إلى نظام الملك، وسيّر معه رسولاً، وكتب معه إلى نظام الملك كتاباً بخطّه، يأمره بالرضا عن أبي شجاع، فرضي عنه وأعاده إلى بغداد.

وفيها مات ابن السلطان ملكشاه، واسمه داود، فجزع عليه جزعاً شديداً، وحزن حزناً عظيماً، ومنع من أخْذه وغسْله، حتّى تغيّرت رائحته، وأراد قتل نفسه مرّات، فمنعه خواصّه، ولمّا دُفن لم يُطِق المقام، فخرج يتصيّد، وأمر بالنياحة عليه في البلد، ففُعل ذلك عدّة أيّام، وجلس له وزير الخليفة في العزاء ببغداد.

وفيها توفّي عبد اللّه بن أحمد بن رضوان أبو القاسم، وهو من أعيان أهل بغداد، وكان مرضه شقيقة، وبقي ثلاث سنين في بيت مظلم لا يقدر يسمع صوتاً ولا يبصر ضوءاً.

وفيها، في ذي الحجّة، توفّي أبو محمّد بن أبي عثمان المحدّث، وكان صالحاً، يُقرئ القرآن بمسجده بنهر القلائين.

وتوفّي عليُّ بن أحمد بن عليّ أبو القاسم البُسْريُّ البندار، ومولده سنة ستّ وثمانين وثلاثمائة، سمع المخلص وغيره، وكان ثقةً صلحاً.

وفيها توفّي أبو إسحاق إبراهيم بن عُقَيل بن حبش القُرَشيّ، النحويُّ. (١٢٣/١٠)

سنة خمس وسبعين وأربعمائة

ذكر وفاة جمال الملك بن نظام الملك

في هذه السنة، في رجب، توفّي جمال الملك منصور بن نظام الملك، وورد الخبر بوفاته إلى بغداد في شعبان، فجلس أخوه مؤيّد الملك للعزاء، وحضر فخر الدولة بن جُهير، وابنه عميد الملك، معزّيين، وأرسل الخليفة إليه في اليوم الثالث فأقامه من العزاء.

وكان سبب موته أنّ مسخرةً كان للسلطان ملكشاه يُعرف بجعفرك يحاكي نظام الملك، ويذكره في خلواته مع السلطان، فبلغ ذلك جمال الملك، وكان يتولّى مدينة بَلخ وأعمالها، فسار من وقته يطوي المراحل إلى والده والسلطان، وهما بأصبهان، فاستقبله أخواه، فخر الملك ومؤيّد الملك، فأغلظ لهما القول في إغضائهما على ما بلغه عن جعفرك، فلمّا وصل إلى حضرة السلطان رأى جعفرك يسارُّه، فانتهره وقال: مثلك يقف هذا الموقف، وينبسط بحضرة السلطان في هذا الجمع! فلمّا خرج من عند السلطان أمر بالقَبض على جعفرك، وأمر بإخراج لسانه من قفاه وقطعه فمات.

ثم سار مع السلطان وأبيه إلى خُراسان، وأقاموا بنَيسابور مدّة، ثم أرادوا (١٢٤/١٠) العود إلى أصبهان، وتقدّمهم نظام الملك، فأحضر السلطان عميد خُراسان، وقال له: أيّما أحبّ لك رأسك أم رأس جمال الملك؟ فقال: بل رأسي، فقال: لئن لم تعمل في قتله لأقتلنّك، فاجتمع بخادم يختصّ بخدمة جمال الملك، وقال له سرّاً: الأولى أن تحفظوا نعمتكم، ومناصبكم، وتدبّر في قتل جمال

الملك، فإنّ السلطان يريد أن يأخذه ويقتله، ولأن تقتلوه انتم سرّاً أصلح لكم من أن يقتله السلطان ظاهراً، فظنّ الخادم أنّ ذلك صحيح، فجعل له سمّاً في كوز فقّاع، فطلب جمال الملك فقّاعاً، فأعطاه الخادم ذلك الكوز، فشربه فمات، فلمّا علم السلطان بموته سار مجدّاً، حتّى لحق نظام الملك، فأعلمه بموت ابنه، وعزّاه، وقال: أنا ابنك، وأنت أولى مَنْ صبر واحتسب.

ذكر الفتنة ببغداد بين الشافعية والحنابلة

ورد إلى بغداد، هذه السنة، الشريف أبو القاسم البكريُّ، المغربيُّ، الواعظ وكان أشعريَّ المذهب، وكان قد قصد نظام الملك، فأحبّه ومال إليه، وسيّره إلى بغداد، وأجرى عليه الجراية الوافرة، فوعظ بالمدرسة النظاميّة، وكان يذكر الحنابلة ويعيبهم، ويقول﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾، واللّه ما كفر أحمد ولكن أصحابه كفروا.

ثمّ إنّه قصد يوماً دار قاضي القضاة أبي عبد اللّه الدامغانيّ بنهر القلائين، فجرى بين بعض أصحابه وبين قوم من الحنابلة مشاجرة أدّت إلى الفتنة، وكثر (١٢٥/١٠) جمعه، فكبس دور بني الفرّاء، وأخذ كتبهم، وأخذ منها كتاب الصفات، لأبي يَعلَى، فكان يُقرأ بين يدَيْه وهو جالس على الكرسيّ للوعظ، فيشنّع به عليهم، وجرى له معهم خصومات وفتن، ولُقّبَ البكريُّ من الديوان بعلم السنّة، ومات ببغداد، ودُفن عند قبر أبي الحسن الأشعريّ.

ذكر مسير الشيخ أبي إسحاق إلى السلطان في رسالة

في هذه السنة، في ذي الحجّة، أوصل الخليفة المقتدي بأمر اللّه الشيخ أبا إسحاق الشيرازيَّ إلى حضرته، وحمّله رسالةً إلى السلطان ملكشاه، ونظام الملك، تتضمّن الشكوى من العميد أبي الفتح بن أبي الليث، عميد العراق، وأمره أن ينهي ما يجري على البلاد من النظار، فسار فكان كلّما وصل إلى مدينة من بلاد العجم يخرج أهلها إليه بنسائهم وأولادهم يتمسّحون بركابه، ويأخذون تراب بغلته للبركة.

وكان في صحبته جماعة من أعيان بغداد منهم الإمام أبو بكر الشاشيُّ وغيره.

ولمّا وصل إلى ساوة خرج جميع أهلها، وسأله فقهاؤها كلّ منهم أن يدخل بيته، فلم يفعل، ولقيه أصحاب الصناعات، ومعهم ما ينثرونه على محفّته، (١٢٦/١٠) فخرج الخبّازون ينثرون الخبز، وهو ينهاهم، فلم ينتهوا، وكذلك أصحاب الفاكهة، والحلواء، وغيرهم، وخرج إليه الأساكفة، وقد عملوا مداسات لِطافاً تصلح لأرجل الأطفال، ونثروها، فكانت تسقط على رؤوس الناس، فكان الشيخ يتعجّب، ويذكر ذلك لأصحابه بعد رجوعه، ويقول: ما كان حظّكم من ذلك النثار؟ فقال له بعضهم: ما كان حظّ سيّدنا منه، فقال: [أمّا] أنا فغُطّيتُ بالمحفّة؛ وهو يضحك، فأكرمه السلطان ونظام الملك، وجرى بينه وبين إمام الحرمَيْن أبي المعالي الجوَينيّ مناظرة بحضرة نظام الملك، وأجيب إلى جميع ما التمسه، ولمّا عاد أُهين العميد، وكُسِر عمّا كان يعتمده، ورُفعت يده عن جميع ما يتعلّق بحواشي الخليفة.

ولمّا وصل الشيخ إلى بسطام خرج إليه السهلكيُّ، شيخ الصوفيّة بها، وهو شيخ كبير، فلمّا سمع الشيخ أبو إسحاق بوصوله خرج إليه ماشياً، فلمّا رآه السهلكيُّ ألقى نفسه من دابّة كان عليها، وقبّل يد الشيخ أبي إسحاق، فقبّل أبو إسحاق رجله، وأقعده موضعه، وجلس أبو إسحاق بين يدَيْه، وأظهر كلّ واحد منهما من تعظيم صاحبه كثيراً، وأعطاه شيئاً من حنطة ذُكر أنّها من عهد أبي يزيد البِسطاميّ، ففرح بها أبو إسحاق.

ذكر حصر شرف الدولة دمشق وعوده عنها

في هذه السنة جمع تاج الدولة تُتُش جمعاً كثيراً، وسار عن بغداد، وقصد بلاد الروم: أنطاكية وما جاورها، فسمع شرف الدولة، صاحب حلب (١٢٧/١٠) الخبر، فخافه، فجمع أيضاً العرب من عُقَيْل، والأكراد، وغيرهم، فاجتمع معه جمع كثير، فراسل الخليفةَ بمصر يطلب منه إرسال نجدة إليه ليحصر دمشق، فوعده ذلك فسار إليها، فلمّا سمع تُتُش الخبر عاد إلى دمشق، فوصلها أوّل المحرّم سنة ستّ وسبعين [وأربعمائة]، ووصل شرف الدولة أواخر المحرّم، وحصر المدينة وقاتله أهلها.

وفي بعض الأيّام خرج إليه عسكر دمشق وقاتلوه، وحملوا على عسكره حملة صادقة، فانكشفوا وتضعضعوا، وانهزمت العرب، وثبت شرف الدولة، وأشرف على الأسر، وتراجع إليه أصحابه، فلمّا رأى شرف الدولة ذلك ورأى أيضاً أنّ مصرَ لم يصل إليه منها عسكر، وأتاه عن بلاده الخبر أنّ أهل حَرّان عصَوا عليه رحل عن دمشق إلى بلاده، وأظهر أنّه يريد البلاد بفِلَسطين فرحل أوّلاً إلى مَرْج الصُفّر، فارتاع أهل دمشق وتُتُش واضطربوا، ثمّ إنّه رحل من مَرْج الصُفّر مشرّقاً في البريّة وجدّ في مسيره، فهلك من المواشي الكثير مع عسكره، ومن الدوابّ شيء كثير، وانقطع خلق كثير.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة قدم مؤيّد الملك بن نظام الملك إلى بغداد من أصبهان، فخرج عميد الدولة بن جُهير إلى لقائه، ونزل بالمدرسة النظاميّة، وضرب على بابه (١٢٨/١٠) الطبول، أوقات الصلوات الثلاث، فأُعطي مالاً جليلاً حتّى قطعه، وأرسل الطبول إلى تكريت.

وفيها توفّي أبو عمرو عبد الوهّاب بن محمّد بن إسحاق بن مندة، الأصبهانيُّ، في جمادى الآخرة، بأصبهان، وكان حافظاً فاضلاً؛ والأمير أبو نصر عليّ ابن الوزير أبي القاسم هبة اللّه بن عليّ بن جعفر بن ماكولا، مصنّف كتاب الإكمال، ومولده سنة عشرين وأربعمائة، وكان فاضلاً حافظاً، قتله مماليكه الأتراك بكَرمان، وأخذوا ماله. (١٢٩/١٠)

سنة ست وسبعين وأربعمائة

ذكر عزل عميد الدولة بن جُهير عن وزارة الخليفة ومسير والده فخر الدولة إلى ديار بكر

في هذه السنة، في صفر، عُزل عميد الدولة بن جُهير عن وزارة الخليفة ووصل يوم عُزل رسول من السلطان، ونظام الملك، إلى الخليفة يطلبان أن يُرسَل إليهما بنو جُهير، فأذن لهما في ذلك، وساروا بجميع أهلهم ونسائهم إلى السلطان، فصادفوا منه، ومن نظام الملك، الإكرام والاحترام، وعقد السلطان على فخر الدولة بن جُهير ديار بكر، وخلع عليه، وأعطاه الكوسات، وسيّر معه العساكر، وأمره أن يقصدها ويأخذها من بني مروان، وأن يخطب لنفسه، ويذكر اسمه على السكّة، فسار إليها.

ولمّا فارق بنو جُهير بغداد رُتّب في الديوان أبو الفتح المظفّر ابن رئيس الرؤساء، وكان قبل ذلك على أبنية الدار وغيرها.

ذكر عصيان أهل حرّان على شرف الدولة وفتحها

في هذه السنة عصى أهل حرّان على شرف الدولة مُسلم بن قُريش، وأطاعوا قاضيهم ابن حلبة، وأرادوا هم وابن عُطَير النُّميريُّ تسليم البلد إلى (١٣٠/١٠) جُبُق، أمير التركمان، وكان شرف الدولة على دمشق، يحاصر تاجَ الدولة تُتُش بها، فبلغه الخبر، فعاد إلى حرّان وصالحَ ابن مُلاعب، صاحب حِمص، وأعطاه سَلَمِيّةَ ورَفَنِيّةَ، وبادر بالمسير إلى حَرّان، فحصرها، ورماها بالمنجنيق، فخرّب من سورها بدنة، وفتح البلد في جُمادى الأولى، وأخذ القاضي ومعه ابنان له، فصلبهم على السور.

ذكر وزارة أبي شجاع محمّد بن الحسين للخليفة

في هذه السنة عزل الخليفة أبا الفتح ابن رئيس الرؤساء من النيابة في الديوان، واستوزر أبا شجاع محمّد بن الحسين، وخلع عليه خِلعَ الوزارة في شعبان، ولقّبه ظهير الدين، ومدحه الشعراء فأكثروا، فممّن مدحه وهنّاه أبو المظفّر محمّد بن العبّاس الأبيورديُّ بالقصيدة المشهورة التي أوّلها:

هـا إنّها مُقَلُ الظِّباء العينِ ... فتكتْ بِسِرّ فُؤادِيَ المكنونِ

ومنها:

فانهلّ أسرابُ الدموعِ كأنّها ... مِنَحٌ يتابعُها ظَهيرُ الدِّينِ

(١٣١/١٠)

ذكر قتل أبي المحاسن بن أبي الرضا

في هذه السنة، في شوّال، قُتل سيّد الرؤساء أبو المحاسن بن كمال الملك أبي الرضا، وكان قد قرب من السلطان ملكشاه قرباً عظيماً، وكان أبوه يكتب الطغراء، فقال أبو المحاسن للسلطان: سلّمْ إليّ نظام الملك وأصحابه، وأنا أُسلّم إليك منهم ألف ألف دينار، فإنّهم يأكلون الأموال، ويقتطعون الأعمال؛ وعظّم عنده ذخائرهم.

فبلغ ذلك نظام الملك، فعمل سِماطاً عظيماً، وأقام عليه مماليكه، وهم ألوف من الأتراك، وأقام خيلهم وسلاحهم على حيالهم، فلمّا حضر السلطان قال له: إنّني قد خدمتُك، وخدمتُ أباك وجدّك، ولي حقّ خدمة، وقد بلغك أخذي لعُشر أموالك، وصدق هذا، أنا آخذه وأصرفه إلى هؤلاء الغلمان الذين جمعتُهم لك، وأصرفه أيضاً إلى الصدقات، والصلات، والوقوف التي أعظم ذكرها، وشكرها، وأجرها لك، وأموالي، وجميع ما أملكه بين يدَيْك، وأنا أقنع بمرقّعةٍ وزاوية، فأمر السلطان بالقبض على أبي المحاسن وأن تُسمَل عيناه، وأنفذه إلى قلعة سَاوة.

وسمع أبوه كمال الملك الخبر، فاستجار بدار نظام الملك، فسلم، وبذل مائتَيْ ألف دينار، وعُزل عن الطغراء، ورُتّب مكانه مُؤيّد الملك بن نظام الملك. (١٣٢/١٠)

ذكر استيلاء مالك بن عَلَويّ على القَيروان وأخذها منه

في هذه السنة جمع مالك بن عَلَويّ الصخريُّ العرب فأكثر، وسار إلى المهديّة فحصرها، فقام الأمير تميم بن المعزّ قياماً تامّاً، ورحّله عنها، ولم يظفر منها بشيء، فسار مالك منها إلى القَيروان فحصرها وملكها، فجرّد إليه تميم العساكر العظيمة، فحصروه بها، فلمّا رأى مالك أنّه لا طاقة له بتميم خرج عنها وتركها، فاستولى عليها عسكر وعادت إلى ملكه كما كانت.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة عمّ الرخص جميع البلاد، فبلغ كرُّ الحنطة الجيّدة ببغداد عشرة دنانير.

وفيها، في جمادى الآخرة، توفّي الشيخ أبو إسحاق الشيرازيُّ، وكان مولده سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وأكثر الشعراء مراثيه، فمنهم أبو الحسن الخبّاز، والبَندَنِيجيُّ، وغيرهما، وكان، رحمة اللّه عليه، واحد عصره علماً وزهداً وعبادة وسخاء، وصُلّي عليه في جامع القصر، وجلس أصحابه للعزاء في المدرسة النظاميّة ثلاثة أيّام، ولم يتخلّف أحدٌ عن العزاء.

وكان مؤيد الملك بن نظام الملك ببغداد، فرتّب في التدريس أبا سعد عبد الرحمن بن المأمون المتولّي، فلمّا بلغ ذلك نظام الملك أنكره، وقال: كان (١٣٣/١٠) يجب أن تُغلَق المدرسة بعد الشيخ أبي إسحاق سنةً؛ وصُلّي عليه بباب الفردوس، وهذا لم يُفعل على غيره، وصلّى عليه الخليفة المقتدي بأمر الله، وتقدّم في الصلاة عليه أبو الفتح ابن رئيس الرؤساء، وهو ينوب في الوزارة، ثم صُلّي عليه بجامع القصر، ودُفن بباب أبرز. (١٣٤/١٠)

سنة سبع وسبعين وأربعمائة

ذكر الحرب بين فخر الدولة بن جُهير وابن مروان وشرف الدولة

قد تقدّم ذكر مسير فخر الدولة بن جُهير في العساكر السلطانيّة إلى ديار بكر، فلمّا كانت هذه السنة سيّر السلطان إليه أيضاً جيشاً فيهم الأمير أُرتُق بن اكسب، وأمرهم بمساعدته.

وكان ابن مروان قد مضى إلى شرف الدولة وسأله نصرته على أن يسلّم إليه آمِد، وحلف كلّ واحد لصاحبه، وكلّ منهما يرى أنّ صاحبه كاذبٌ لما كان بينهما من العداوة المستحكمة، واجتمعا على حرب فخر الدولة، وسارا إلى آمِد، وقد نزل فخر الدولة بنواحيها، فلمّا رأى فخر الدولة اجتماعهما مال إلى الصُّلح، وقال: لا أوثر أن يحلّ بالعرب بلاء على يدي، فعرف التركمان ما عزم عليه، فركبوا ليلاً وأتوا إلى العرب وأحاطوا بهم في ربيع الأوّل، والتحم القتال واشتدّ، فانهزمت العرب، ولم يحضر هذه الوقعة الوزير فخر الدولة، ولا أُرتُق، وغنم التركمان حلل العرب ودوابّهم، وانهزم شرف الدولة، وحمى نفسه حتّى وصل إلى فصيل آمِد، وحصره فخر الدولة ومن معه. (١٣٥/١٠)

فلمّا رأى شرف الدولة أنّه محصورٌ خاف على نفسه، فراسل الأميرَ أُرتُق، وبذل له مالاً، وسأله أن يمنّ عليه بنفسه، ويمكنه من الخروج من آمِد، وكان هو على حفظ الطُّرق والحصار، فلمّا سمع أُرتُق ما بذل له شرف الدولة أذن له في الخروج، فخرج منها في الحادي والعشرين من ربيع الأوّل، وقصد الرَّقّة، وأرسل إلى أُرتُق بما كان وعده به، وسار ابن جُهير إلى ميّافارقين، ومعه من الأمراء الأمير بهاء الدولة منصور بن مَزْيد، وابنه سيف الدولة صدقة، ففارقوه وعادوا إلى العراق، وسار فخر الدولة إلى خِلاط.

ولمّا استولى العسكر السلطانيّ على حلل العرب، وغنموا أموالهم، وسبوا حريمهم، بذل سيف الدولة صدقة بن منصور بن مَزْيد الأموال، وافتكّ أسرى بني عُقَيل ونساءهم وأولادهم وجهزهم جميعهم وردهم إلى بلادهم، ففعل أمراً عظيماً، وأسدى مكرمة شريفةً، ومدحه الشعراء في ذلك فأكثروا، فمنهم محمّد بن خليفة السُّنبسيُّ يذكر ذلك في قصيدة:

كما أحرزتَ شُكرَ بني عُقَيلٍ ... بآمِدَ يومَ كَظَّهُمُ الجِذارُ
غداةَ رَمَتْهُمُ الأتراكُ طُرّاً ... بشُهبٍ في حَوافِلِها ازورارُ
فما جُبُنوا، ولكن فاضَ بحرٌ ... عظيمٌ لا تقاوِمُه البحارُ
فحينَ تنازلُوا تحتَ المَنايا، ... وفيهنّ الرّزيّةُ والدَّمارُ
مننتَ عليهمُ، وفككتَ عنهُم، ... وفي أثناء حبلِهمُ انتشارُ
ولولا أنتَ لم يَنفكَّ منهُم ... أسيرٌ، حينَ أغلَقَهُ الإسارُ

في أبيات كثيرة، وذكرها أيضاً البندنيجيُّ فأحسن، ولولا خوف التطويل لذكرتُ أبياته. (١٣٦/١٠)

ذكر استيلاء عميد الدولة على الموصل

لمّا بلغ السلطانَ أنّ شرف الدولة انهزم وحُصر بآمِد لم يشكّ في أسره، فخلع على عميد الدولة بن جُهير، وسيّره في جيش كثيف إلى الموصل، وكاتب أمراء التركمان بطاعته، وسيّر معه من الأمراء آقسُنْقُر، قسيم الدولة، جدَّ ملوكنا أصحاب الموصل، وهو الذي أقطعه السلطان بعد ذلك حلب.

وكان الأمير أُرتُق قد قصد السلطان، فعاد صحبة عميد الدولة من الطريق، فسار عميد الدولة حتّى وصل إلى الموصل، فأرسل إلى أهلها يشير عليهم بطاعة السلطان وترك عصيانه، ففتحوا له البلد وسلّموه إليه، وسار السلطان بنفسه وعساكره إلى بلاد شرف الدولة ليملكها، فأتاه الخبر بخروج أخيه تكش بخراسان، على ما نذكره.

ورأى شرَف الدولة قد خلص من الحصر، فأرسل مؤيّد الملك بن نظام الملك إلى شرف الدولة، وهو مقابل الرحبة، فأعطاه العهود والمواثيق، وأحضره عند السلطان، وهو بالبوازيج، فخلع عليه آخر رجب، وكانت أمواله قد ذهبت فاقترض ما خدم به، وحمل للسلطان خيلاً رائقة، من جملتها فرسُه بشّار، وهو فرسه المشهور الذي نجا عليه من المعركة، ومن آمِد أيضاً، وكان سابقاً لا يُجارى، فأمر السلطان بأن يسابق به الخيل، فجاء سابقاً، فقام السلطان قائماً لما تداخله من العجب.

وأرسل الخليفة النقيب طِراداً الزينيَّ في لقاء شرف الدولة، فلقيه بالموصل، (١٣٧/١٠) فزاد أمر شرف الدولة قوّةً، وصالحه السلطان، وأقرّه على بلاده، وعاد إلى خُراسان لحرب أخيه.

ذكر عصيان تكش على أخيه السلطان ملكشاه

قد تقدّم ذكرُه، وذكرُ مصالحته للسلطان، فلمّا كان الآن، ورأى بُعد السلطان عنه عاود العصيان، وكان أصحابه يؤثرون الاختلاط، فحسّنوا له مفارقة طاعة أخيه، فأجابهم، وسار معهم، فملك مرو الروذ وغيرها إلى قلعة تقارب سَرْخَس وهي لمسعود ابن الأمير

ياخز، وقد حصّنها جُهْدَهُ، فحصروه بها، ولم يبق غير أخذها منه.

فاتّفق أبو الفتوح الطُوسيُ، صاحب نظام الملك، وهو بنَيسابور، وعميد خُراسان، وهو أبو عليّ، على أن يكتب أبو الفتوح ملطّفاً إلى مسعود بن ياخز، وكان خطّ أبي الفتوح أشبه شيء بخط نظام الملك، يقول فيه: كتبتُ هذه الرقعة من الرّيّ يوم كذا، ونحن سائرون من الغد نحوك، فاحفظ القلعة، ونحن نكبس العدوّ في ليلة كذا، واستدعيا فَيْجاً يثقون به، وأعطياه دنانير صالحة، وقالا: سِرْ نحو مسعود، فإذا وصلتَ إلى المكان الفلاني فأقِمْ به ونم وأخفِ هذا الملطّف في بعض حيطانه، فستأخذك طلائع تكش، فلا تعترف لهم حتّى يضربوك، فإذا فعلوا ذلك وبالغوا فأخرجه لهم وقُلْ إنّك فارقتَ السلطان بالرّيّ، ولك منّا الحِباءوالكرامة.

ففعل ذلك، وجرى الأمر على ما وصفا، وأُحضِر بين يدَيْ تكش وضُرب، وعُرض على القتل، فأظهر الملطّف وسلّمه إليهم، وأخبرهم (١٣٨/١٠) أنّه فارق السلطان ونظام الملك بالرّيّ في العساكر، وهو سائر، فلمّا وقفوا على الملطّف، وسمعوا كلام الرجل، ساروا من وقتهم، وتركوا خيامهم ودوابّهم، والقدور على النار، فلم يصبروا على ما فيها، وعادوا إلى قلعة وَنَج، وكان هذا من الفرج العجيب، فنزل مسعود وأخذ ما في المعسكر، وورد السلطان إلى خُراسان بعد ثلاثة أشهر، ولولا هذا الفعل لنهب تكش إلى باب الرّيّ.

ولمّا وصل السلطان قصد تكش وأخذه، وكان قد حلف له بالأيمان أنّه لا يؤذيه، ولا ينَاله منه مكروه، فأفتاه بعض من حضر بأن يجعل الأمر إلى ولده أحمد، ففعل ذلك، فأمر أحمد بكحله، فكُحل وسُجن.

ذكر فتح سليمان بن قُتلمش أنطاكية

في هذه السنة سار سليمان بن قُتلمش، صاحب قونية وأقصرا وأعمالها من بلاد الروم، إلى الشام، فملك مدينة أنطاكية من أرض الشام، وكانت بيد الروم من سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة.

وسبب ملك سليمان المدينة أنّ صاحبها الفِردوس الروميّ كان قد سار عنها إلى بلاد الروم، ورتّب بها شحنةً، وكان الفِردوس مُسيئاً إلى أهلها وإلى جنده أيضاً، حتّى إنّه حبس ابنه، فاتّفق ابنه والشحنة على تسليم البلد إلى سليمان بن قُتلمش، وكاتبوه يستدعونه، فركب البحر في ثلاثمائة فارس وكثير من الرجّالة، وخرج منه، وسار في جبال وعرة، ومضايق شديدة، حتّى (١٣٩/١٠) وصل إليها للموعد، فنصب السلاليم، باتّفاق من الشحنة ومن معه، وصعد السور، واجتمع بالشحنة وأخذ البلد في شعبان، فقاتله أهل البلد، فهزمهم مرّةً بعد أخرى، وقتل كثيراً من أهلها، ثمّ عفا عنهم، وتسلّم القلعة المعروفة بالقُسيان، وأخذ من

الأموال ما يجاوز الإحصاء، وأحسن إلى الرعيّة، وعدل فيهم، وأمرهم بعمارة ما خرب، ومنع أصحابه من النزول في دورهم ومخالطتهم.

ولمّا ملك سليمان أنطاكية أرسل إلى السلطان ملكشاه يبشّره بذلك، وينسب هذا الفتح إليه لأنّه من أهله، وممّن يتولّى طاعته، فأظهر ملكشاه البشارة به، وهنأهُ الناس، فممّن قال فيه الأبيورديُ من قصيدة مطلعُها:

لمعَتْ كناصيةِ الحِصانِ الأشقَرِ ... نارٌ بمُعتَلِجِ الكَثِيبِ الأعفَرِ
وفَتحتَ أنطاكيّةَ الرومِ التي ... نَشَزَتْ مَعاقِلَها على الإسكَندرِ
وطِئَتْ مَناكِبَها جِيادُك، فانثَنَت ... تُلقِي أجِنّتَها بناتُ الأصفَرِ

وهي طويلة.

ذكر قتل شرف الدولة وملك أخيه إبراهيم

قد تقدّم ذكر مُلك سليمان بن قُتلمش مدينة أنطاكية، فلمّا ملكها أرسل إليه شرف الدولة مُسلم بن قُريش يطلب منه ما كان يحمله إليه الفردوس من المال، ويخوّفه معصية السلطان، فأجابه:

أمّا طاعة السلطان، فهي شعاري، ودثاري، والخطبة له، والسكّة في بلادي، وقد كاتبته بما فتح اللّه على يدي بسعادته من هذا البلد، وأعمال الكفّار. (١٤٠/١٠)

وأمّا المال الذي كان يحمله صاحب أنطاكية قبلي، فهو كان كافراً، وكان يحمل جزية رأسه وأصحابه، وأنا بحمد اللّه مؤمن، ولا أحمل شيئاً، فنهب شرف الدولة بلد أنطاكية، فنهب سليمان أيضاً بلد حلب، فلقيه أهل السواد يشكون إليه نهْب عسكره، فقال:

أنا كنتُ أشدّ كَراهيةً لما يجري، ولكنّ صاحبكم أحوجني إلى ما فعلتُ ولم تجرِ عادتي بنهب مال مسلم، ولا أخذ ما حرّمته الشريعة، وأمر أصحابه بإعادة ما أخذوه منهم فأعاده.

ثم إنّ شرف الدولة جمع الجموع من العرب والتركمان، وكان ممّن معه جبق أمير التركمان في أصحابه، وسار إلى أنطاكية ليحصرها، فلمّا سمع سليمان الخبر جمع عساكره وسار إليه، فالتقيا في الرابع والعشرين من صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة في طرف من أعمال أنطاكية، واقتتلوا، فمال تركمان جبق إلى سليمان فانهزمت العرب، وتبعهم شرف الدولة منهزماً، فَقُتل بعد أن صبر، وقُتل بين يدَيْه أربعمائة غلام من أحداث حلب، وكان قتله يوم الجمعة الرابع والعشرين من صفر سنة ثمان وسبعين [وأربعمائة] وذكرتُهُ هاهنا لتتبع الحادثة بعضها بعضاً.

وكان أحول، وكان قد ملك من السنديّة التي على نهر عيسى إلى مَنْبِج من الشام، وما والاها من البلاد، وكان في يده ديار ربيعة

ومُضر من أرض الجزيرة والموصل وحلب، وما كان لأبيه وعمّه قرواش، وكان عادلاً حسن السيرة، والأمن في بلاده عامّ، والرخص شاملٌ، وكان يسوس بلاده سياسة عظيمة بحيث يسير الراكب والراكبان فلا يخافان شيئاً، وكان له في كلّ بلد وقرية عامل، وقاض، وصاحب خبر، بحيث لا يتعدّى أحدٌ على أحد. (١٤١/١٠)

ولمّا قُتل قصد بنو عُقيل أخاه إبراهيم بن قُريش، وهو محبوس، فأخرجوه وملّكوه أمرهم، وكان قد مكث في الحبس سنين كثيرةً بحيث أنّه لم يمكنه المشي والحركة لمّا أُخرج؛ ولمّا قُتل شرف الدولة سار سليمان بن قُتلمش إلى حلب فحصرها مستهلّ ربيع الأوّل سنة ثمان وسبعين [وأربعمائة]، فأقام عليها إلى خامس ربيع الآخر من السنة، فلم يبلغ منها غرضاً، فرحل عنها.

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في صفر، انقضّ كوكب من المشرق إلى المغرب، كان حجمه كالقمر وضوؤه كضوئه، وسار مدىً بعيداً على مهل وتُؤدة في نحو ساعة، ولم يكن له شبيه من الكواكب.

وفيها وُلد السلطان سَنْجَرُ بن ملكشاه في الخامس والعشرين من رجب، بمدينة سنجار من أرض الجزيرة مقارب الموصل بينهما يومان، عند نزول السلطان بها، وسمّاه أحمد، وإنّما قيل له سَنْجَر باسم المدينة التي وُلد فيها، وأمّه أمّ ولد.

وفي هذه السنة، في جمادي الأولى، توفّي الشيخ أبو نصر عبد السيّد بن محمّد بن عبد الواحد بن الصبّاغ، الفقيه الشافعيُّ، صاحب الشامل والكامل، وكفاية المسائل وغيرها من التصانيف، بعد أن أضرّ عدّة سنين، وكان مولده سنة أربعمائة؛ والقاضي أبو عبد الله الحسين بن عليّ البغداديُّ المعروف بابن البقّال، وهو من شيوخ أصحاب الشافعيّ، وكان إليه القضاء بباب الأزج، وحجّ لمّا انقطع الحجّ على سبيل التجريد؛ وإسماعيل بن مسعدة بن إسماعيل ابن أحمد بن إبراهيم أبو القاسم الإسماعيليُّ، الجُرجانيُّ، ومولده سنة أربع وأربعمائة، وكان إماماً فقيهاً شافعيّاً، محدّثاً، أديباً، وداره مجمع العلماء، (١٤٢/١٠)

سنة ثمان وسبعين وأربعمائة

ذكر استيلاء الفرنج على مدينة طُلَيْطُلة

في هذه السنة استولى الفرنج، لعنهم الله، على مدينة طُلَيْطُلة من بلاد الأندلس، وأخذوها من المسلمين، وهي من أكبر البلاد وأحصنها.

وسبب ذلك أنّ الأذفُونش، ملك الفرنج بالأندلس، كان قد قوي شأنه، وعظم ملكه، وكثرت عساكره، مذ تفرّقت بلاد الأندلس، وصار كلّ بلد بيد ملك، فصاروا مثل ملوك الطوائف، فحينئذ طمع الفرنج فيهم، وأخذوا كثيراً من ثغورهم.

وكان قد خدم قبل ذلك صاحبها القادر باللّه بن المأمون بن يحيى بن ذي النُّون، وعرف من أين يؤتى البلد، وكيف الطريق إلى مُلكه، فلمّا كان الآن جمع الأذفُونش عساكره وسار إلى مدينة طُلَيطلة فحصرها سبع سنين، وأخذها من القادر، فازداد قوّةً إلى قوّته.

وكان المعتمد على اللّه أبو عبد اللّه محمّد بن عَبّاد أعظم ملوك الأندلس من المسلمين، وكان يملك أكثر البلاد مثل: قُرْطُبَةَ وإشبيليةَ، وكان يؤدّي إلى الأذفُونش ضريبة كلّ سنة، فلمّا ملك الأذفونش طُلَيطُلة أرسل إليه المعتمد الضريبة على عادته، فردّها عليه ولم يقبلها منه، فأرسل إليه يتهدّده ويتوعّده أنّه يسير إلى مدينة قُرطُبة ويتملّكها إلاّ أن يسلّم إليه جميع الحصون التي في الجبل، ويبقي السهل للمسلمين، وكان الرسول في جمع كثير كانوا خمسمائة (١٤٣/١٠) فارس، فأنزله محمّد بن عبّاد، وفرّق أصحابه على قوّاد عسكره، ثم أمر كلّ مَنْ عنده منهم رجل أن يقتله، وأحضر الرسول وصفعه حتّى خرجت عيناه، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر، فعادوا إلى الأذْفُونش فأخبروه الخبر، وكان متوجّهاً إلى قُرطُبة ليحاصرها، فلمّا بلغه الخبر عاد إلى طُليطلة ليجمع آلات الحصار، ورحل المعتمد إلى إشبيلية.

ذكر استيلاء ابن جُهير على آمِد

في المحرّم من هذه السنة ملك ابن جُهير مدينة آمِد.

وسبب ذلك أنّ فخر الدولة بن جُهير كان قد أنفذ إليها ولدَهُ زعيم الرؤساء أبا القاسم، ومعه جناح الدولة، المعروف بالمقدّم السالار، وأرادوا قلع كرومها وبساتينها، ولم يطمَعْ مع ذلك في فتحها لحصانتها، فعمّ أهلها الجوع، وتعذّرت الأقوات، وكادوا يهلكون، وهم صابرون على الحصار، غير مكترثين له.

فاتّفق أنّ بعض الجند نزل من السور لحاجة لهم، وتركوا أسلحتهم مكانها، فصعد إلى ذلك المكان عدد من العامّة تقدّمهم رجل من السواد يُعرف بأبي الحسن، فلبس السلاح، ووقف على ذلك المكان، ونادى بشعار السلطان، وفعل من معه كفعله، وطلبوا زعيم الرؤساء، فأتاهم، وملك البلد، واتّفق أهل المدينة على نهب بيوت النصارى لما كانوا يلقون من نُوّاب بني مروان من الجور والحكم، وكان أكثرهم نصارى، فانتقموا منهم. (١٤٤/١٠)

ذكر ملكه أيضاً ميّافارقين

وفي هذه السنة أيضاً، في سادس جمادى الآخرة، ملك فخر

الدولة ميّافارقين، وكان مقيماً على حصارها، فوصل إليه سعد الدولة كوهرائين في عسكره نجدةً له، فجدّ في القتال فسقط من سورها قطعة، فلمّا رأى أهلها ذلك نادوا بشعار ملكشاه، وسلّموا البلد إلى فخر الدولة وأخذ جميع ما استولى عليه من أموال بني مروان وأنفذه إلى السلطان مع ابنه زعيم الرؤساء، فانحدر هو وكوهرائين إلى بغداد، وسار زعيم الرؤساء منها إلى أصبهان، فوصلها في شوّال، وأوصل ما معه إلى السلطان.

ذكر ملك جزيرة ابن عمر

في هذه السنة أرسل فخر الدولة جيشاً إلى جزيرة ابن عمر، وهي لبني مروان أيضاً، فحصروها، فثار أهل بيت من أهلها يقال لهم بنو وهبان، وهم من أعيان أهلها، وقصدوا باباً للبلد صغيراً يقال له باب البُوَيبة لا يسلكه إلاّ الرجّالة لأنّه يُصعد إليه من ظاهر البلد بدرج، فكسروه، وأدخلوا العسكر، فملكه، وانقرضت دولة بني مروان، فسبحان من لا يزول ملكه.

وهؤلاء بنو وهبان، إلى يومنا هذا، كلّما جاء إلى الجزيرة من يحصرها يخرجون من البلد، ولم يبق منهم من له شوكة، ولا منزلة يفعل بها شيئاً، وإنّما بتلك الحركة يؤخذون إلى الآن. (١٠/١٤٥)

ذكر عدّة حوادث

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، وصل أمير الجيوش في عساكر مصر إلى الشام، فحصر دمشق، وبها صاحبها تاج الدولة تُتُش، فضيّق عليه، وقاتله، فلم يظفر منها بشيء، فرحل عنها عائداً إلى مصر.

وفيها كانت الفتنة بين أهل الكرخ وسائر المحالّ من بغداد، وأحرقوا من نهر الدجاج درب الآجرّ، وما قاربه، وأرسل الوزير أبو شجاع جماعةً من الجند، ونهاهم عن سفك الدماء تحرّجاً من الإثم، فلم يمكنهم تلافي الخطب فعظم.

وفيها كانت زلزلة شديدة بخُوزستان وفارس، وكان أشدّها بأرْجَان، فسقطت الدور، وهلك تحتها خلق كثير.

وفيها، في ربيع الأوّل، هاجت ريحٌ عظيمة سوداء بعد العشاء، وكثر الرّعد والبرق، وسقط على الأرض رمل أحمر وتراب كثير، وكانت النيران تضطرم في أطراف السماء، وكان أكثرها بالعراق وبلاد الموصل، فألقت النخيل والأشجار وسقط معها صواعق في كثير من البلاد، حتّى ظنّ الناس أنّ القيامة قد قامت، ثم انجلى ذلك نصف الليل.

وفيها، في ربيع الآخر، توفّي إمام الحرمَيْن أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجوينيُّ، ومولده سنة سبع عشرة وأربعمائة، وهو الإمام المشهور في الفقه والأصولَيْن وغيرهما من العلوم، وسمع الحديث من أبي محمّد الجوهريّ وغيره.

وفيها، في ذي الحجّة، توفّي محمّد بن أحمد بن عبد اللّه بن أحمد (١٠/١٤٦) ابن الوليد أبو عليّ المتكلّم، كان أحد رؤساء المعتزلة وأئمتهم، ولزم بيته خمسين سنة لم يقدر على أن يخرج منه من عامّة بغداد، وأخذ الكلام عن أبي الحسين البصريّ وعبد الجبّار الهمذانيّ القاضي؛ ومن جملة تلاميذه ابن برهان، وهو أكبر منه.

وفي هذه السنة توفّي القاضي أبو الحسن هبة اللّه بن محمّد بن السبيّ، قاضي الحريم، بنهر معلّى، ومولده سنة أربع وتسعين وثلاثمائة، وكان يذاكر الإمام المقتدي بأمر اللّه، وولّي ابنه أبو الفرج عبد الوهّاب بين يدَيْ قاضي القضاة ابن الدامغانيّ.

وفيها، في جُمادى الأولى، توفّي أبو العزّ بن صدقة، وزير شرف الدولة، ببغداد، وكان قد قبض عليه شرف الدولة وسجنه بالرحبة، فهرب منها إلى بغداد، فمات بعد وصوله إلى مأمنه بأربعة أشهر، وكان كريماً متواضعاً لم تغيّره الولاية عن إخوانه.

وفيها، في رجب، توفّي قاضي القضاة أبو عبد اللّه بن الدامغانيّ، ومولده سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة، ودخل بغداد سنة تسع عشرة وأربعمائة، وكان قد صحب القاضي أبا العلاء بن صاعد، وحضر ببغداد مجلس أبي الحسين القدوريّ، وولّيَ قضاء القضاة بعده القاضي أبو بكر بن المظفّر بن بكران الشاميُّ وهو من أكبر أصحاب القاضي أبي الطيّب الطبريّ.

وفيها توفّي عبد الرحمن بن مأمون بن عليّ أبو سعد المتولّي مدرّس النظاميّة، وهو من أصحاب القاضي حسين المروروذيّ وتمّم كتاب الإبانة. (١٠/١٤٧)

سنة تسع وسبعين وأربعمائة

ذكر قتل سليمان بن قُتلمِش

لمّا قتَل سليمانُ بن قُتلمِش شرفَ الدولة مُسلمَ بن قُريش على ما ذكرناه، أرسل إلى ابن الحُتَيْتيّ العبّاسيّ، مقدّم أهل حلب، يطلب منه تسليمها إليه، فأنفذ إليه، واستمهله إلى أن يكاتب السلطانَ ملكشاه، وأرسل ابن الحتيتيّ إلى تُتُش، صاحب دمشق، يعده أن يسلّم إليه حلب، فسار تُتُش طالباً لحلب، فعلم سليمان بذلك، فسار نحوه مجدّاً، فوصل إلى تُتُش وقت السحر على غير تَعْبئة، فلم يعلم به حتّى قرب منه، فعبّأ أصحابه.

وكان الأمير أُرْتُق بن أكسب مع تُتُش، وكان منصوراً لم يشهد حرباً إلاّ وكان الظفر له، وقد ذكرنا فيما تقدّم حضوره مع ابن جُهير على آمِد، وإطلاقه شرف الدولة من آمِد، فلمّا فعل ذلك خاف أن

ينهي ابن جُهير ذلك إلى السلطان، ففارق خدمته، ولحق بتاج الدولة تُتُش، فأقطعه البيت المقدّس، وحضر معه هذه الحرب، فأبلى فيها بلاء حسناً، وحرّض العرب على القتال، فانهزم أصحاب سليمان، وثبت وهو في القلب، فلمّا رأى انهزام عساكره أخرج سكّيناً معه فقتل نفسه، وقيل بل قُتل في المعركة، واستولى تُتُش على عسكره.

وكان سليمان بن قُتلمِش، في السنة الماضية، في صفر، قد أنفذ جثّة (١٤٨/١٠) شرف الدولة إلى حلب على بغل ملفوفةً في إزار، وطلب من أهلها أن يسلّموها إليه. وفي هذه السنة في صفر أرسل تُتُش جثّة سليمان في إزار ليسلّموها إليه، فأجابه ابن الحتيتيّ أنّه يكاتب السلطانَ، ومهما أمره فعل، فحصر تُتُش البلد، وأقام عليه، وضيّق على أهله.

وكان ابن الحُتَيْتيّ قد سلّم كلّ برج من أبراجها إلى رجل من أعيان البلد ليحفظه، وسلّم برجاً فيها إلى إنسان يُعرف بابن الرعوي، ثم إنّ ابن الحتيتيّ أوحشه بكلام أغلظ له فيه، وكان هذا الرجل شديد القوّة، ورأى ما الناس فيه من الشدّة، فدعاه ذلك إلى أن أرسل إلى تُتُش يستدعيه، ووعده ليلة يرفع الرجال إلى السور في الحبال، فأتى تُتُش للميعاد الذي ذكره، فأصعد الرجال في الحبال والسلاليم، وملك تُتُش المدينة، واستجار ابن الحُتَيتيّ بالأمير أُرتق فشفع فيه، وأمّا القلعة فكان بها سالم بن مالك بن بدران، وهو ابن عمّ شرف الدولة مسلم بن قريش، فأقام تُتُش يحصر القلعة سبعة عشر يوماً، فبلغه الخبر بوصول مقدّمة أخيه السلطان ملكشاه، فرحل عنها.

ذكر ملك السلطان حلب وغيرها

كان ابن الحُتَيْتيّ قد كاتب السلطانَ ملكشاه يستدعيه ليسلّم إليه حلب، لمّا خاف تاج الدولة تُتُش، فسار إليه من أصبهان في جمادى الآخرة، وجعل على مقدّمته الأمير برسق، وبوزان،وغيرهما من الأمراء، وجعل طريقه على الموصل، فوصلها في رجب، وسار منها، فلمّا وصل حَرّان سلّمها إليه ابن الشاطر، فأقطعها السلطان لمحمّد بن شرف الدولة، وسار إلى الرُّها، (١٤٩/١٠) وهي بيد الروم، فحصرها وملكها، وكانوا قد اشتروها من ابن عُطَيْر، وتقدّم ذكر ذلك، وسار إلى قلعة جَعْبَر، فحصرها يوماً وليلة وملكها، وقتل من بها من بني قُشير، وأخذ جَعْبَر من صاحبها، وهو شيخ أعمى، وولدَيْن له، وكانت الأذيّة بهم عظيمة يقطعون الطرق ويلجؤون إليها.

ثم عبر الفرات إلى مدينة حلب، فملك في طريقه مدينة مَنْبِج، فلمّا قارب حلب رحل عنها أخوه تُتُش، وكان قد ملك المدينة، كما ذكرناه، وسار عنها يسلك البريّة، ومعه الأمير أُرتق، فأشار بكبس عسكر السلطان، وقال إنّهم قد وصلوا، وبهم وبدوابّهم من التعب ما ليس عندهم معه امتناع؛ ولو فعل لظفر بهم.

فقال تُتُش: لا أكسِرُ جاهَ أخي الذي أنا مستظلّ بظلّه، فإنّه يعود بالوهن عليّ أوّلاً.

وسار إلى دمشق، ولمّا وصل السلطان إلى حلب تسلّم المدينة، وسلّم إليه سالم بن مالك القلعة على أن يعوّضه عنها قلعة جَعْبَر، وكان سالم قد امتنع بها أوّلاً، فأمر السلطان أن يُرمى إليه رشقاً واحداً بالسهام، فرمى الجيش، فكادت الشمس تحتجب لكثرة السهام، فصانع عنها بقلعة جَعْبَر وسلّمها، وسلّم السلطان إليه قلعة جَعْبَر، فبقيت بيده وبيد أولاده إلى أن أخذها منهم نور الدين محمود بن زنكي، على ما نذكره إن شاء اللّه تعالى.

وأرسل إليه الأمير نصر بن عليّ بن مُنقذ الكنانيُّ، صاحب شَيْزَر، فدخل في طاعته، وسلّم إليه اللاذِقِيّة، وكَفَرطاب، وأفامية، فأجابه إلى (١٥٠/١٠) المسالمة، وترك قصده، وأقرّ عليه شَيزر.

ولمّا ملك السلطان حلب سلّمها إلى قسيم الدولة آقسُنْقَر، فعمرها، وأحسن السيرة فيها.

وأمّا ابن الحتيتيّ فإنّه كان واثقاً بإحسان السلطان ونظام الملك إليه، لأنّه استدعاهما، فلمّا ملك السلطان البلد طلب أهله أن يعفيهم من ابن الحُتَيْتيّ، فأجابهم إلى ذلك، واستصحبه معه، وأرسله إلى ديار بكر، فافتقر، وتوفّي بها على حال شديدة من الفقر، وقُتل ولده بأنطاكية، قتله الفرنج لما ملكوها.

ذكر وفاة بهاء الدولة منصور بن مَزْيد وولاية ابنه صدقة

في هذه السنة، في ربيع الأوّل، توفّي بهاء الدولة أبو كامل منصور بن دُبَيْس بن عليّ بن مَزْيد الأسديُّ، صاحب الحِلّة، والنِّيل، وغيرهما ممّا يجاورها؛ ولمّا سمع نظام الملك خبر وفاته قال: مات أجلّ صاحب عِمامة؛ وكان فاضلاً قرأ على عليّ بن برهان، فبرع بذكائه في الذي استفاد منه، وله شعر حسن، فمنه:

فإن أنا لم أحمِلْ عظيماً ولم أُفِدْ ... لُهاماً، ولم أصبِرْ على فِعلِ مُعظِمِ
ولم أُجرِ الجاني، وأمنَحْ حوزَهُ ... غَداةَ أُنادي للفَخارِ وأنتَمي

(١٥١/١٠) وله في صاحب له يُكنى أبا مالك يرثيه:

فإن كان أودَى خِدنُنا، ونديمنا، ... أبو مالكٍ، فالنائباتُ تَنوبُ
فكلُّ ابنِ أُنثى لا مَحالةَ ميّتٌ ... وفي كلِّ حيٍّ للمَنون نَصيبُ
ولو ردَّ حُزنٌ، أو بُكاءٌ لهالكٍ، ... بَكَيْناهُ، ما هبّتْ صَباً وجَنوبُ

ولمّا توفّي أرسل الخليفة إلى ولده سيف الدولة صدقة نقيبَ العلويّين أبا الغنائم يعزّيه، وسار سيف الدولة إلى السلطان ملكشاه، فخلع عليه، وولاّه ما كان لأبيه، وأكثر الشعراء مراثي بهاء الدولة.